

مذكرات بائع الخضار

حكاية كفاح لأبنائي

تأليف: العم بائع الخضار

ترجمة: ريهام محمد ديشيش

مراجعة: د. أحمد السعيد

إهداء

إلى أبنائي وكل من ساعدني.

العم بائع الخضار

المقدمة

منذ فترة أثارت واقعة «بائع الخضار» المتداولة على شبكة الإنترنت اهتمامي بشكل كبير، والآن بعد بضعة أشهر من العمل المكثف، تُشرت أخيرًا «مذكرات بائع الخضار»، وساورت أرواحنا الكثير من المشاعر التي سوف نشاركها هنا مع عدد كبير من القراء.

بائع الخضار ياو تشي تشونغ، هو فلاح فقير من مدينة فويانغ بمقاطعة آنهوي، ترعرع وسط أسرة فقيرة؛ لذلك تلقى تعليمه لمدة أربع سنوات فقط، ثم بدأ المضي في طريق شاق لكسب لقمة العيش، خرج للعمل هو والكثير من الفلاحين في سن التاسعة عشرة، من أجل تغيير حياة الفقر التي كان يعيشها، وفي عام 1997 جاء إلى بكين، وبدأ العمل في مجال بيع الخضار، وبعد عدة سنوات من العمل الشاق، استطاع أن يُثبت أقدامه في بكين، وأحضر زوجته وأولاده إلى بكين، وكانت هذه بداية تخلصه من الفقر، في ذلك الوقت، عاد ياو للتفكير مرة أخرى وأخذ يتساءل: لماذا هو فقير جدًا؟ كان يعتقد أن السبب هو قلة التعليم الذي تلقاه وعدم كفايته؛ وحتى لا يمضي أولاده في طريق الفقر نفسه الذي سار فيه، اتخذ ياو قرارًا بضرورة تلقي أولاده التعليم المدرسي الكامل حتى ولو صعبت حياته، وعانى ذل الفقر أكثر وأكثر، كما أنه احترم رغبة ابنه الثاني وأنفق مبالغ كبيرة لإرساله إلى مدرسة فنون الدفاع عن النفس، وكان أولاده قادرين على تحقيق المجد وإثبات أنفسهم، وحققوا نتائج ممتازة؛ خاصة الابن الثاني الذي حاز العديد من الميداليات في مسابقات جميع أنواع فنون الدفاع عن النفس في الصين، حتى إنه سافر إلى الخارج للمشاركة في المسابقة وحاز جائزة.

خلال عملية تعليم أولاده، تولدت لدى ياو فكرة الكتابة، فأراد أن يسجل تجربة كفاحه ومراحل تربيته لأطفاله، لتكون بمنزلة ثروة روحية» يرثها أولاده من بعده؛ لذلك استعار ياو «قاموس شينخوا»، وفي وقت الاستراحة من بيع الخضار، والوقت المتأخر من الليل أثناء نوم أفراد أسرته، كان يكتبها رمزًا رمزًا؛ وخلال أكثر من ثلاث سنوات كتب مخطوطة بها أكثر من 200 ألف رمز؛ ومن ثم قام بتعديلها إلى أن أصبحت «مذكرات بائع الخضار» التي بين أيدينا اليوم. 200

خلال رحلته في القضاء على الفقر والسعي لتحقيق السعادة والمثل العليا، على مدى السنوات الـ 20 الماضية، واجه ياو العديد من النكسات والمصاعب والظلم؛ ولكن كان يسيطر عليه دائمًا الاعتقاد القوي بالمستقبل الأفضل الذي ينتظره، فلم يثبط ولم يشك، واستمر في المثابرة لتحقيق حياة مثالية، وكان يقول لنفسه أثناء مواجهة الصعاب: «الصعوبات هي نقطة انطلاق نحو النجاح»؛ حيث تغلب على الصعوبات واحدة تلو الأخرى، وأصر على التقدم نحو الأمام، إلى أن وصل إلى ما هو عليه اليوم، وعندما كان يتجرع من الدنيا مرارتها، ترسم ابتسامة سعيدة على وجهه من وقت لآخر.

ياو عامل عادي بسيط من جماهير الشعب الواسعة، رغبته في تحقيق حياة سعيدة، وجهوده من أجل تمتع أبنائه بتعليم أفضل، وسعيه الدؤوب لتحقيق قيمة لحياته، كل هذا من أجمل ما يسعى إليه جماهير شعبنا جميعًا، وكذلك هو تعبير كامل عن روح الاجتهاد والشجاعة التي يتحلى بها الشعب الصيني، وينبغي أن نعرب عن أسمى آيات الاحترام والتقدير له.

عانى ياو الكثير من الألم والمشقة في طريق تحقيق مساعيه الخاصة؛ ولكنه في الوقت نفسه تلقى الاهتمام والدعم والمساعدة من قبل جوانب عديدة في المجتمع؛ لذلك فإن ياو بالنسبة إلى المجتمع هو شخص يملك قلبًا ينبض دائمًا بالامتنان، هذا القلب النابض بالامتنان قد منحه الدفء والقوة والأمل، كما أنه جعله أكثر نشاطًا وودًا، وبالتالي، فإن جهوده وسعيه ألهم وشجع الكثير من الناس للسعي والكفاح من أجل تحقيق المثل العليا والسعادة. هذه الطاقة الاجتماعية الإيجابية للتعليم المتبادل والمساعدة المتبادلة هي قوة كبيرة لبناء مجتمع رغيد على نحو شامل، ولهذه الأسباب نحن حريصون جدًا على تقديم «مذكرات بائع الخضار» للقارئ في أقرب وقت؛ سواء أكنتم مثل ياو الذي عاش حياة صعبة، وكافح سعيًا من أجل سعادة أسرته، أم مثل الكثير من الأشخاص الطيبين الذين ساعدوه، وكانوا يقومون برعاية الفئة الكادحة في المجتمع؛ وسواء أكنتم الآن أبًا أم ابنًا ستلمس هذه المذكرات قلبك، وتكون مصدر إلهام لك، لجعل مجتمعنا أكثر انسجامًا، وقيامًا بالعمل الجاد لزيادة الدفء.

نتمنى لياو حياة أسرية سعيدة، وأن يحقق كل أحلامه، ونتمنى لجميع الأشخاص الذين يسعون لتحقيق السعادة، أن يقوموا بتحقيق أحلامهم وسط دفء هذا المجتمع.

الفصل الأول: طفولة بائسة

إن الطفولة بالنسبة إلى معظم الناس فترة سعيدة، فهي تلك الأوقات الجميلة الثمينة التي تستحق اكتنازها؛ ولكن كانت طفولتي على العكس من ذلك، فكانت مؤسفة ومأساوية جدًا، وتذكرها أمرًا محزنًا جدًا، في ذلك الوقت كنت دائمًا أتساءل لِمَ القدر غير عادل، وجعلني أتجرع الكثير من الحزن والمعاناة؟ شهدت طفولتي الكثير من الأحزان والألام، التي ستبقى محفورة دائمًا في ذاكرتي.

بيتي

كان أجدادي فلاحين، وأنا أعتبر أيام طفولتي طفولة بائسة، فحتى الطعام والملابس لم يكن هناك قدرة على توفيرها، أحيانًا كنت أتناول وجبة واحدة فقط في اليوم، والأطعمة الخضراء الصحية المنتشرة حاليًا؛ مثل عصيدة الذرة لم تكن أطعمة زراعية تقليدية؛ بل كان من الصعب أن تقوم ربة المنزل الماهرة بطهو وجبة الطعام من دون الأرز، فكانت حبوبًا وخضارًا، مع توفير الأرز والزيت.

اسمي ياو تشي تشونغ، كان بيتي في قرية بعيدة تسمى قرية شويينغ الكبيرة بمدينة فويانغ بمقاطعة أنهوي.

كانت عائلتي فقيرة جدًا، وكان منزلنا بالشرق الذي عاشت به أجيال يتراكم عليه الطين؛ لذا كان لونه أسود وقصيرًا، وقد مُنح لفريق الإنتاج لتربية وربط الحيوانات به، كما استُخدم مخزنًا؛ بينما كان هناك منزلان في الغرب قامت والدتي بالتوسل إلى جيراننا للحصول عليهما مقابل 60 كيلو جرامًا من القمح، عانى والدي من شبه التأخر العقلي؛ حيث إنه لم يقم ببناء حِثام طوال حياته، وفي كل مرة نريد الذهاب إلى الحمام نضطر إلى الذهاب إلى المنزل شخص آخر، كانت الغرفة مغطاة بطبقة سميكة من الغبار لسنوات عدة؛ لأنه لم يكن لدينا حتى مكنسة واحدة.

كان منزلنا هو الطريق الوحيد لأهل القرية بأكملها للعبور من خلاله، كما كان مكانًا للترفيه يأتي إليه كبار القرية وصغارها، ويمكن لأي شخص من أبناء القرية المرور بسهولة من أمام منزلنا، لا أعرف كم مرة تشاجرت أمي سواء مع المرأة المحتجزة بعد الولادة أم العروسة؛ اللتين كانتا تمران من أمام منزلنا؛ بينما كان أبي لا طائل منه، فهو لم يقدر على حمل شيء، وبالإضافة إلى السخرية التي كان يتعرض لها، الشيء الوحيد الذي يمكن تذكره هو أن الأب هو الشخص الذي لا يمكن الاستغناء عنه في حضور أي جنازة، فكان يذهب ليرى الجميع كبير العائلة.

لم تكن هناك أشجار مزروعة حول المنزل، والأشجار التي زُرعت قريبًا كانوا يربطون الخنازير والماشية بها، حتى أُلِفوا جميعًا، والشجيرات التي في منازل الآخرين اشتروها بيوانين أو ثلاثة يوانات؛ ولكن بسبب فقرنا أنفق أبي يوانًا فقط لشراء ثلاث شتلات، وكان ينتظر إلى أن تستقر الشتلات الصغيرة وتنمو بمنزلنا، في حين أن الأشجار بمنازل الآخرين تستخدم مدادات لبناء المنزل.

كان إعداد الطعام هو أكثر الأشياء التي تقلق أمي، فربة المنزل الماهرة لا يمكنها إعداد وجبة الطعام من دون الأرز، كانت تهتم دائمًا بمعرفة ما في البيت وما ينقصه، وعندما تعد الطعام تضع البطاطا الحلوى فوق كومة الحطب، وتغرف عصيدة الذرة وتخلط مزيجًا من الخضار المخلل، فهذه هي وجبة الغداء، التي كانت تُعدُّ وجبة اليوم؛ حيث كان من النادر أن تتناول أسرتنا الطعام ليلًا؛ لأن الطعام لم يكن كافيًا؛ أتذكر ربيع عام 1970، لم يكن لدينا طعام نأكله، كانت تقل المكرونة الموجودة في منزلنا، كما كان نمو القمح بالحقل بطيئًا، وكانت أمي تأخذ المنجل وتذهب لجني القمح، ثم تضعه في الحلقة وتفركه جيدًا عدة مرات، وتضع حبوب القمح في الوعاء لطبخها، وأحيانًا تضع قليلًا من ورق الخردل، والقليل من الملح، فهذا هو طعام أسرة بأكملها.

في كل مرة كانت تطحن دقيق القمح، وكانت بعض الأسر تستخدم هذه النخالة لإطعام الماشية، وبعضها الآخر يضعها في حقيبة ويحملها إلى السوق، فماذا كانت أسرتنا تفعل؟ كانت أمي تضع نخالة القمح في الوعاء وتقوم بخلطها مع الماء؛ ثم طبخها على البخار؛ ومن ثم أكلها، كنتُ في ذلك الوقت صغيرًا جدًا، ولكنني أتذكر جيدًا أنني كنت أحمل الوعاء ولا أستطيع أكل ما

به من طعام، وكانت أمي تصبُّ الماء على نخالة القمح في الوعاء عند الطهو كأنها زيت سمسم، وتقول لي: «تناول طعامك يا بني». ولم تكن تفرغ من كلامها إلا وهي تدير وجهها مجهشة بالبكاء، أليس هذا بسبب الفقر المجحف الذي كانت أسرتي تعانيه؟ كنت أرى وجه أمي تكسوه الدموع، ومع كل دمة تتساقط كنت أبتلع قضمة كبيرة من الطعام الذي كان يصعب ابتلاعه، وهناك ليالٍ كثيرة كانت أمي تجلس بجانبني وتضع اللحاف بلطف وتقول لي: «نَمْ يا بني». وكانت لا تتوقف عن قول عبارة: اغفُ يا بني سريعًا، جاء النمر وسأقوم بضربه». حينما كان البيت يخلو من الطعام، كانت أمي تستخدم هذه الطريقة حتى «أنام، وكنت أنسى الجوع في حلمي.

كان الآخرون يمتلكون موقدًا لطهو الطعام ومدخنة، في حين أنه لم يوجد في منزلنا سوى غرتين من الطين، في كل مرة كانت أمي تطهو الطعام؛ كانت تضع الحطب أسفل الوعاء ثم تُسرع إلى الخارج؛ لأن الغرفة تمتلئ بالدخان ولا يستطيع أحد المكوث فيها، وعندما كانت السماء تمطر، يُصبح الحطب رطبًا، ويكون هذا الدخان كثيفًا حتى إنه قد يتسبب في موت بقرة.

عندما كنتُ صغيرًا، كانت الأسر في القرية تربِّي خنزيرًا وعددًا قليلًا من الدجاج، وكانت تكفي النفقات اليومية لأسرة مكونة من عدة أفراد، ولكن حتى هذا لم تمتلكه أسرتي، ولم تربِّ أسرتي خنزيرًا يزن عشرات الكيلو جرامات قط خلال أجيال، ذهبت أمي إلى سوق أوومياو الذي يبعد 4 أميال لشراء خنزير صغير، ومات الخنزير الصغير بعد قدومه إلى منزلنا ببضعة أيام، وقمنا بتربية بعض الدجاج في المنزل قبل ذلك، وكنا نترقب بيضها للمساعدة في تغيير نفقات الأسرة، وعندما كان الدجاج يضع البيض كل يوم، كان أفراد العائلة يحدقون بأعينهم؛ ولكن الدجاج كان ينتظر حتى ننشغل بأعمال المنزل، ويذهب إلى بيت آخر لبيض هذا البيض بداخله.

كنت أتحدث مع الجميع عن قصة أبي الذي كان يعاني من شبه تأخر عقلي، ذات شتاء، بعد تناول وجبة الإفطار، سحب أبي ذلك الخنزير الذي كان بالبيت وكان وزنه 35 كيلو جرامًا تقريبًا، ويبدو أن هذا الخنزير لم يأكل حتى يشبع، فتمايل جسمه حتى أفلت الحبل من يد أبي، لم يربط الآخرون الخنازير؛ بل كانوا يصيحون فيها بأفواههم، ويلوحون بأيديهم لها حتى تعود؛ ولكن أبي بذل جهدًا كبيرًا؛ وكان يُقال: إن عائلتنا هي أضحوكة القرية. في ذلك الوقت لم أدر كم كان عدد الناس الذين يتشمسون أمام منزلنا منتظرين أبي شبه المتأخر عقليًا الذي كان أضحوكة لهم. ركض هذا الخنزير على بعد 3 أميال، وكانوا يمازحون أبي بجملة وأمازحه بجملة: ياو روداو، قدرتك اليوم في سحب الخنزير فائقة! ظل أبي يلاحق الخنزير طوال الصباح، وعندما أثبت لهم أخيرًا أنهم مخطئون، واستطاع إحضاره وإدخاله إلى عتبة المنزل، كان الخنزير يلفظ أنفاسه الأخيرة.

اعتمدت أسرتنا بأكملها لسنوات عديدة على عمل أبي بفرن الطوب في الركن الجنوبي الغربي من القرية، وكانت أجرة العمل في الفرن نصف يوان يوميًا دون وجبة طعام، كان كسب المال في ذلك الوقت يعتمد كل الاعتماد على الجهد المبذول، فكان أبي ينقل 2500 قطعة من الطوب إلى مرتفع يبلغ 6 أمتار يوميًا، وكان يحمل الطوب قطعة قطعة على ظهره إلى الأعلى، وعند هبوط المنحدر ينقل الطوب الذي حرق مرة أخرى إلى الأسفل، لا أعلم كم مرة كان يصعد ويهبط فيها من الصباح حتى المساء؛ هذا الطوب الثقيل سبب لأبي مشكلة كبيرة حتى إن رَفَع الرأس وخفضه أصبح يحتاج منه جهدًا كبيرًا؛ وبعد ذلك أغلق هذا الفرن، ولم يعيدوا لأبي الخمسين يوانًا المستحقة.

أيام عصيبة

فكرت مليًا ولم أتوصل إلى كلمة أستطيع أن أصف بها هذه الفترة من حياتي، وخلال تكويري لم أجد سوى كلمة «الفقر»؛ لأن «الفقر» في ذلك الوقت كان أكثر ما ترك أثرًا عميقًا في النفس.

عدة أجيال ممن سكنوا بمنزل ياو كان الناس يرونهم من شقوق الباب، وكان الضرب ببساطة بالنسبة إلينا وجبة يسيرة، في كثير من الأحيان عندما أفكر في ذلك، يشعر قلبي بالارتجاف لفترة طويلة، لم أكن أخشى الضرب؛ ولكن ما كنت أخشاه هو أن يقوموا بتقطيع ثيابي، في شتاء عام 1979، كنت في السابعة من العمر عندما جاء شخص ليضربني، وكان رد فعلي الأول هو الإمساك بملابسي؛ فمِنذُ أن تزوجت أمي وانتقلت إلى بيت ياو الذي كان أقدر من بيت الذباب، كان أبي يغضبها حتى مرضت مرضًا خطرًا، وكانت تتناول الأدوية العشبية باستمرار، ولم تقوَ أمي المريضة على حياكة الملابس لي، ولم يكسب أبي مليمًا واحدًا، فكان من الصعب أن يعطيني أحد الملابس أو الأحذية، وإذا قُطعت ملابس من أين سأحصل على ملابس أخرى؟

قبل عام 1980 كان منزل ياو في نهاية كل عام بالنسبة إلينا حفرة لا تُطاق، وكان الأغنياء يجعلون من رأس السنة الصينية حديثاً مجلجلاً، وبعد الانتهاء من تناول حساء اللابا، يحضرون السلع الخاصة لمهرجان عيد الربيع، ووفقاً لتقاليد قريتنا يكون اليوم الثالث والعشرين من الشهر الثاني عشر في التقويم القمري هو رأس السنة القمرية، وكل عام في هذا الوقت، كان أطفال العائلات الأخرى يُعْتَوْنَ مردين: «جاء رأس السنة، جاء رأس السنة، الفتاة تريد الجوارب، والولد يريد القبعة، والعجوز تريد القبعة». ويرتدي الأطفال والكبار في كل أسرة الملابس الجديدة، ومن لم تسمح ظروفه بذلك يقوم بشراء زوج من الجوارب ويقضي العيد، ولكن عندما نأتي عند أسرنا لا نجد شيئاً، وأحياناً كان بعض الأشخاص العطوفين يتصدقون بملابس لئلا نرتديها.

في كل عام جديد تشتري العائلات الأخرى الألعاب النارية الطويلة بسعر 5، 8، 10 يوانات؛ بينما كانت أسرتي تشتري علبة بها 10 مفرقات بخمسة ماوات، ويقوم الأطفال في القرية بالنقاط الألعاب النارية، وكانوا يركضون أمام منزلي دون رحمة، وكان هناك العديد من الأطفال يهتفون قائلين: «لم تشتري عائلة ياو روداو ألعاباً نارية طويلة». وأحياناً كانوا يهتفون باسم أبي في طفولته.

كان للأطفال الذين في نفس عمري آباء وأمهات بالتبني، وفي ليلة رأس السنة الصينية الجديدة كل عام يقوم الآباء والأمهات بإدارة الفوانيس بسعادة لاستقبال الأبناء والبنات بالتبني، وهذا الأمر جعل عيني حراوين كالدم. فلم تعرف عائلة ياو خلال الأجيال الثلاثة ما معنى «أب وأم بالتبني».

كانت أمي تخشى قدوم عيد رأس السنة، كما كانت تخشى الطقس الممطر، فعندما كانت تمطر السماء، تتأدني أمي قائلة: «دا شي (اسمي في الطفولة) أحضر المغرفة التي نغرف بها الطعام وَفَّ تحت سقف الباب». ثم واصلت كلامها قائلة: «تعلم» الجملة التي تقولها أمك». استمعتُ إلى كلامها وأنا واقف تحت سقف الباب، ثم عاودتُ من جديد مرادة: «يا بني جهز المغرفة، ستبدأ!» حملتُ المغرفة في يدي اليمنى، وذهبتُ إلى الاتجاه الجنوبي الشرقي وأنا مغمض العينين، ولم يتوقف فمي عن قول الجملة التي عملتني أمي إياها: «المغرفة المغرفة، الطقس عند بيتنا مشمس، بينما يتساقط المطر في الجزء الجنوب الشرقي، ونحن بحاجة إلى طقس مشمس هنا!» بالتأكيد سوف أرى من بضحك عليّ، حقاً إنها خرافات، أبهذه الطريقة نطلب من السماء أن تكون صافية؟ وهل سقوط الأمطار مخيف هكذا؟ بالنسبة إلى عائلة لا تملك حظاً، في اليوم المشمس يمكنها التقاط بعض فروع الشجر الجافة لحرقها، وإلا كيف ستقضي الأيام الممطرة! أعلم أن هذه الطريقة التي كانت أمي تتبعها ليس لها أي تأثير على الأيام المشمسة؛ ولكن أعتقد أن هذا أمل تشبثت به أمي، أملاً في أن تعيش أسرنا يوماً جيداً.

لم تعيش أمي يوماً جيداً منذ أن تزوجت وانتقلت إلى منزل ياو، في عيد رأس السنة الصينية من كل عام، تقوم أمي بإعداد كعكات على البخار، في انتظار من يأتي إلى منزلها، وفي عام من الأعوام جاء اثنان من أبناء خالي إلى بيتنا لقضاء رأس السنة الجديدة، وكان الله يريد أن يرى ضحكنا ونكاتنا، فأمرت السماء! يقال: إنه عند سقوط الأمطار ينبغي أن نبقى الضيوف؛ ولكن منزلنا لم يكن به أي طعام؛ وبعد الانتهاء من أكل الكعكة، لم أر أي علامات تدل على توقف تساقط الأمطار بالخارج، فتهدت أمي وقالت لأولاد أخيها: «أذهبوا فليس هناك طعام في المنزل لتأكلوه». أين هو عيد رأس السنة الجديدة؟!!

ذات ربيع جاءت زوجة عمي وابنها الذي كان يبلغ من العمر الخامسة لزيارتنا، وكانا أول أقارب يقومان بزيارتنا منذ سنوات عديدة، لا أعرف لمن أسأنا، حتى يكتب الله علينا أن يرافقتنا سوء الحظ في كل شيء؛ عندما دخل ابن العمّة من الخارج إلى المنزل قافزاً، اصطدمت جبهته بوعاء الطعام الذي كانت أمي تحمله، كيف يكون طعام أسرة فقيرة ساخناً هكذا؟ فتكونت طبقة ساخنة على جبهته كلها، وأخذ يبكي من الألم بكاءً سمعه نصف أهل القرية؛ للأسف، هذا هو بيتنا الفقير الذي لم يكن من السهل أن يزوره ضيف. في ذلك اليوم، ذهبت العمّة وهي تبكي وتمسح دموعها؛ منذ ذلك الحين لم يأت أحد من بيت عمي لزيارتنا؛ هكذا عاد الضيوف الذين حضروا إلى بيت ياو المعدم مرتين إلى بيوتهم باكين.

في إحدى السنوات، أوشك عيد الربيع على القدوم، وكانت الأسر ميسورة الظروف تقلي فطائر العجين الملتوية والزلابية احتفالاً بالعيد، وفي ذلك العام عند الإعداد للاحتفال بالسنة الجديدة، كانت أمي تخشى عدم كفاية الزيت الموجود لقلي فطائر العجين الملتوية، وأخذت تنظف وعاء الزيت بقلبه حتى ينزل منه الزيت إلى أن يصبح جافاً، وبعد تجفيفه وضعت قليلاً من زيت بذرة القطن استعداداً لقلي القليل من فطائر العجين الملتوية احتفالاً بالعيد؛ ما لم أتوقعه أنه قرب قدوم الليل، اعتقدت أبي المشوش أن أمي لم تنظف وعاء الزيت من الماء جيداً، فقام بقلب الزيت كله على الأرض؛ في العيد يقوم الآخرون بقلي بعض الفطائر وطهو بعضها على البخار، بينما كانت أمي تبكي وهي تردد: «هذا اليوم لا يمكن أن يمر».

عائلة تحيا حياة مريرة

في خريف عام 1982، كانت الأراضي الزراعية تُقسَّم على كل الأسر، وعندما كانت تُقسَّم في قريتنا شوبينغ الكبيرة كنت أبلغ العاشرة والنصف من العمر، وكان ذكائي وأنا في هذا العمر يعادل ذكاء طفل في سن الخامسة في الوقت الحالي، وكان بطني كبير جدًا، حتى إن أهل القرية كانوا يطلقون عليَّ اسم «صاحب البطن الكبير». كنت في ذلك الوقت لعبة للجميع، فكانوا يحبون ضربني على بطني عند الذهاب والمجيء.

عندما وجدت فرق الإنتاج الفرعي بقريتنا، كان عمي الثالث الأعزب قوي البنيان، وكان يتمتع بالقدرة على التجول في جميع أنحاء البلاد؛ لذلك أبقاه الفريق؛ بينما كان كل فريق يذهب إليه أبي يرفض انضمامه إليهم، حتى إن عمي الثالث الأعزب كان يشك أن أبي غبي ويجلب له العار؛ قام أبي بسكب صندوقين من الفضلات على أرض الفريق الثاني؛ لأنهم لا يريدونه معهم؛ كان أفراد الفريق الثاني رجالًا أنقياء، يتميزون بطول القامة والقوة، وكانت قامة ياو طويلة جدًا تحجب الباب، وكان الضعيف لا يريد الدخول إلى حظيرة ماشية الفريق الثاني. تسلل أبي إلى الدخول للفريق الثاني عنوة؛ ولكنه في النهاية طحن تحت أقدامهم، وما كان بوسعي سوى البكاء والصراخ: «أبي، أبي!».

تنقسم قرية شوبينغ الكبيرة إلى أربعة فرق، فريقان في الغرب يضمّان العائلات الكبيرة الغنية أصحاب لقب شو، وكان كلٌّ منهم طويل القامة قوي البنيان؛ وفريقان من العمال الرجال يتمتعون بالقدرة على التنبؤ بالمستقبل، فكان هناك «كو تشون الكبير»، و«تشو قه ليانغ»، و«ليو بو وين». لم يكونوا مثل أفراد عائلتنا ساذجين بسطاء؛ ولكنهم خُرُق، ومن وجهة نظرهم لا يتمتعون بأي قدرات أو مهارات سوى عرقلة سير الأشياء.

عند قدوم اليوم الخامس من الشهر الخامس واليوم الخامس عشر من الشهر الثامن في التقويم القمري، خلال هذين الاحتفالين كل عام، يقوم فريق الإنتاج لدينا بصيد الأسماك وتوزيعها على كل أسرة احتفالاً بالعيد؛ في كل مرة كانت الأسماك تُوزع، يقوم الناس المختصون بتقسيمها إلى سمك الكارب والكارب العاشب هذه الأنواع الجيدة؛ ولكنهم عندما كانوا يأتون إلى أبي يكون السمك كله كارب فضي صغير. لم يفهم أبي في الموازين، وكنت في ذلك الوقت أعرف كيف أثبت قطبي الميزان في الأعلى، وعندما يرتفع الميزان يكون الوزن كافيًا، وإذا هبط الميزان وسقط القبان وحطم قدم حامله، يكون الوزن غير كافٍ؛ في كل مرة تُوزع الأسماك على أسرتي، كان الميزان يهبط، ويسقط القبان ويحطم قدم الذي يزنه! كانت بعض الأسر التي يُوزع عليها السمك يقلونه في الزيت؛ ولأن الزيت بالبيت كان قليلًا، كنّا نسلقه؛ وفي كل مرة كنت أمر من أمام بيت شخص آخر، وأشم رائحة الأسماك التي تغمر المكان، كان لعابي يسيل اشتهاً.

كان أحد الأشخاص مدينًا لعمي الثالث الأعزب بالمال، ولم يردده إليه؛ بل قام بضربه وسبه؛ وكنت أتعرض دائمًا للضرب من قبل الآخرين، ولم يجرؤ أبي على قول أي شيء، فأحس عمي أنني مسكين لا أقوى على فعل شيء، فصاح متوعدًا وقال: من سيقوم بضرب ابن أخي الثاني مرة ثانية، سوف أشعل النار ببيته. وذات مرة، تعرض عمي للضرب حينما كان يساعد أبي على استعادة 25 يوانًا ثمن أول حيوان قمنا بتربيته، وكان دائمًا ما يجد أعقاب السجائر بداخل فطائر الخضراوات المملحة التي لفها ببديه، كما أن المعكرونة التي كان يصنعها ببديه كان هناك شخص يتعمد وضعها تحته والجلوس عليها عدة مرات، فكان عمي الثالث يحيا حياة بائسة هو الآخر.

في الريف كان من لا يتزوج يحتقره الناس؛ قبل عام 1993 كانت عائلة ياو مكونة من أربعة أفراد نصفهم عُزْب، في ذلك الوقت كانت كلمة «أعزب» كلمة مرادفة لعائلتنا، وتعرّض عدد من الأشخاص العُزْب للضرب من قبلك ومن قبل غيرك هو حقًا أمر مثير للشفقة، تقريبًا كان كل الناس يقولون: لقد انتهت عائلة ياو روداو، فبالإضافة إلى التسول ما السبيل لكسب العيش؟

كان هناك رجل مسنّ يأتي دائمًا لبيع صلصة الصويا في القرية؛ وكانت الطريقة التي يستخدمها في بيع صلصة الصويا مميزة جدًا، فكان يصيح دائمًا بصوت عالٍ: تُباع صلصة الصويا هذه من القرى الغربية وحتى القرى الشرقية، وهي لذيذة جدًا، ويمكن استخدامها كزيت عند صنع حبيبات المعكرونة.

حالما أسمع صوته، أتذكر سرقتي للعشرة يوانات التي كان أبي يُفني عمره لكسبها، وهذا الأمر لا يزال يجعلني أشعر بالأسف تجاه أبي حتى لو أبكاني حدوثه؛ ذات مرة أخذت سرًا العشرة يوانات التي كانت بداخل وعاء تخزين الحبوب الغذائية، وأخذت أبحث عن زجاجة صلصة فارغة، ثم ذهبت إلى بركة كبيرة عند الزاوية الجنوبية الشرقية من قريتنا، وأعطيت الرجل

العجوز الذي كان يبيع صلصة الصويا العشرة يوانات؛ وقد رأي أحد جيراننا عند الفناء الأمامي عندما كنت أشتري الصلصة، وركض إلى منزلنا بسرعة، وأخبر أمي بذلك الأمر؛ هربت أمي المريضة إلى البركة الكبيرة، واستعادت العشرة يوانات ذات الطبعة الثانية، ولم أحصل على صلصة الصويا في ذلك اليوم، وأنا في طريقي للعودة إلى المنزل كان قلبي يرتجف من الخوف، فكنت أخشى أن تضربني أمي؛ والمثير للدهشة أن أمي لم تضربني؛ بل قالت لي: «دا شي، هل تعلم كيف كسبنا هذه النقود؟» كان سؤال أمي هذا أشد قسوة من الضرب، فهذه الیوانات كانت هي شريان الحياة لأبي!

في تلك الليلة غسلت أمي السمك بالملح جيدًا، وعندما كانت تعد وعاء الطهو اكتشفت عدم وجود زيت؛ هذا الأمر جعل أمي تشعر بالأسى؛ أتذكر فقط أنها مسحت دموعها، وذهبت في تلك الليلة المظلمة وسحبت بضع أوراق من قرع الكالاباش من على الفرع بمنزل أحد الأشخاص خفية، واستخدمت أوراق قرع الكالاباش كزيت للطهو! وفي العيد كانت تقوح الروائح الطيبة من منازل العائلات الأخرى، بينما داخل منزلنا لم نشم سوى رائحة حرق أوراق قرع الكالاباش الذي بُري في وعاء الطهو. وعندما يكون السمك غير كافٍ، تستخدم أمي شعرية البطاطا الحلوى لتغطي السمك، وتضعها في الجزء السفلي من الوعاء، وتقوم بطهوه على النار؛ لا أعرف كم مرة استخدمنا هذه الطريقة في بيتنا.

دائمًا عند أدنى نقطة

بعد مرض أمي، لم يعد أحد يهتم بي وبأخي الكبير، فلم تُغسل ملابسنا على مدار العام، وكانت الملابس التي يرتديها أبي كلها ملابس أشخاص ماتوا، فبعد موتهم يقوم أبي بمساعدة ذويهم في حراسة البوابات، ثم يقومون بإعطائه حقيبة كبيرة من الملابس البالية التي كان الشخص المتوفى يرتديها.

قرب مجيء فصل الخريف كل عام، كانت أمي المريضة تذهب إلى بيوت بعضهم وتقوم بالتقاط القليل من أوراق السمسم الجافة وأوراق البطاطا الحلوى من على الأرض وتعود بها إلى المنزل، وتقوم بتخزينها لتتناولها في فصل الشتاء، وكانت نادرًا ما تذهب إلى السوق لشراء الطعام.

في ذلك الوقت كانت أسرتنا مكونة من أربعة أفراد، وكانت شعرية البطاطا الحلوى تُوضع في قدر صنع عن طريق الصفع براحة اليدين، وعند تناول الطعام كل صباح، نقوم نحن الأربعة بالتمسك بوعاء شعرية البطاطا الحلوى، لم تكن ظروف بيتنا تسمح بشراء صودا الخبز ولو حتى بسنت واحد، وفي ذلك الوقت كانت عائلتنا في كل ليلة تستخدم زيت الكيروسين الدرجة الأولى الذي يُوفر لإنارة المصابيح، وكذلك لم تكن تكفي حصة الحبوب السنوية، وكنا نعتمد على الإغاثة وإمدادات الحبوب الرخيصة، وكان أبي يكافح ويبدل قصارى جهده ليعطيهم النقود التي كان يكسبها من عمله.

خلال تلك السنوات لو لم تكن نعتمد على الإغاثة، لكانت عائلتنا ذهبت مع الريح، ذات ربيع أخذت أمي كوبون الملابس الذي توفره الإغاثة الاجتماعية وقامت بقطع بضع تشيات¹ من القماش القطني من الوحدة العسكرية عند معبد يانغ، واستخدمت يديها الماهرتين في قص وحياكة ثوب لأرثديه، في صباح اليوم التالي، كان الثوب جاهزًا، كنت سعيدًا جدًا وقفزت على ارتفاع ثلاثة أقدام من فرط سعادتي! وفي ظهيرة ذلك اليوم، ارتديت الثوب المزخرف الذي صنعه أمي وذهبت أطوف حول القرية على شكل دائرة كبيرة بكل سعادة، كان من يراني من أهل القرية مرتديًا هذا الثوب يقول لي: «متى صنعت لك أمك هذا الثوب المزخرف؟» عندما راووني أرثدي هذا الثوب أحسوا أنه جديد، في ذلك الوقت إذا لم تكن الإغاثة الاجتماعية توفر لنا الملابس، فكان ارتداء ملابس جديدة بالنسبة إليّ أصعب من الصعود إلى السماء.

كان الشباب في القرى المجاورة بعد نهاية حصاد الخريف كل عام، يُكوّنون مجموعات صغيرة، ويقومون بسحب الشبكة لاصطياد الكلاب وطهوها وأكلها، بعضهم يكون ذكيًا ويركب الدراجة ويذهب إلى سوق تشانغ قوانغ الذي كان على بعد عشرات الأميال لشراء دواء مخدر خصوصًا للكلب؛ وبعضهم يقوم بإشعال عظام الأغنام في المساحة الشاغرة بالبركة الموجودة بشرق القرية، تلك الرائحة كانت تقوح لتصل إلى القرى الثماني المجاورة على بعد عشرة أميال، وفي كل مرة يتناولون لحوم الكلاب، ويسرع الناس إلى بيوتهم لإحضار وعاء كبير من الخنزير؛ ولكن لم يكن بمنزلنا وعاء كبير، ولم يكن بوسعنا سوى أن نشم رائحة لحم الكلاب من بعيد.

لم يخرج أبي بعيدًا لكسب المال، ولم تحب أمي أبي ذي الظهر الأحدب الصامد كالجبل. ذات مرة ذهب مع رجل من القرية نفسها إلى هواينان لسحب سيارة فحم؛ ولكن في منتصف الطريق سقط في النهر، ولم يستطع أبي رفع قدميه أثناء المشي،

وكان دائماً يمشي بصعوبة، وعندما كانت أمي ترى أبي يحمل على ظهره سلة روث بالية من الأرض ويعود مائلاً، تغضب ولا تتفوه بكلمة.

في فترة الثمانينيات كانت عائلة ياو تحيا حياة صعبة للغاية، وكان تناول وجبتين يومياً يتم بحذر ويستغرق وقتاً طويلاً؛ عائلة مكونة من أربعة أفراد، يأخذ كل فرد وعاءً واحداً، وعند تناول الطعام تُكسر عيدان الطعام من كومة الحطب، وفي الظهر نتناول العائلة وجبة المعكرونة التي تُصنع باليد؛ ولكنها لم تكن بالدقيق الأبيض؛ بل كانت معكرونة من البطاطا الحلوى، وتُقطع المعكرونة المصنوعة باليد باستخدام سكين قديم، بعضها بشكل أفقي وبعضها الآخر بشكل عمودي، ثم يوضع عدد قليل من الأسماك الصغيرة التي يمكنها السباحة بداخل وعاء المعكرونة بشكل متفرق، وبينما كنت أشرب العصيدة في الصباح نظر إليّ جاري، ثم قال: "أرى أن العصيدة التي تشربها عائلتك، لم تَرَقْ إلى بول الحصان بداخل فريق الإنتاج". كانت أمي تفعل ذلك للاحتراس من أبي. فإذا أعدتها سميكة جداً، سوف يسكب أبي المرق كله، وكانت أمي وأخي ينظران إلى بعضهما البعض فقط؛ لذلك في كل مرة نتناول الطعام، دائماً ما تخبئ أمي وعاءً كبيراً سميكاً سكبته سابقاً، وتنتظر حتى يحمل أبي سلة الروث ويغادر المنزل، ثم تأخذ الطعام الذي خبأته سرّاً وتعطيه لابنيها؛ كانت أمي تفعل ذلك من أجل هذه العائلة، فكانت تخشى أن يعاني فمّا ابنيها ولا تتمو قامتاهما، لم يكن أبي يكسب المال، ولم تكن زراعة الأرض بالمنزل جيدة، وكان الناس الذين لا يدركون الوضع يقولون: إن أمي لا تعطي زوجها ما يكفي من طعام. فهم يدركون بمشقة أن زوجة ماهرة جاءت إلى هذه العائلة الفوضوية لا يمكنها طهو الطعام دون الأرز، فهي حقاً لا حيلة لها.

كانت أسرتنا تعاني الفقر، ولم يكن هناك علاقة بين الأشخاص؛ ولكن كانت هناك علاقة وتآلف بين الحيوانات؛ حيث كان الجزء العلوي من الموقد مسطحاً لشجار الفران التي كانت بمنزلنا ولعبها، حتى الأغنام التي بمنزل جيراننا كانت تأتي إلى منزلنا للتلقات على الطاولة وفوق الموقد وكذلك على سرير ي البالي، كل يوم على هذا الحال، تلك الأغنام كانت أكثر من يهتم بي. كل يوم عندما أنظر إليها وهي تقفز، أستشيط غضباً وأقوم بضربها ومطاربتها لتذهب بعيداً، وكلما كنت ألاحقها ازداد قفزها فوق الطاولة والموقد والسرير. أما الأغنام التي نربيهما لم تكن مريضة، وقام شخص ما بسحبها وأخذها إلى السوق لبيعها، وحتى الآن لا نعرف من هو الشخص المتحمس الذي ساعدنا على بيع الأغنام في السوق؛ ولكن حتى لو عرفنا ماذا نستطيع أن نفعل؟

أم ماهرة

نلمس براعة الأم من خلال بحث أهل القرية جميعاً عنها لتقوم بحياكة الملابس لهم، وكانت أمي تذهب دائماً إلى كل منزل للقيام بالأعمال المنزلية، من أجل كسب بعض المال لمساعدة أسرتي، وفي كل مرة تعود أمي إلى المنزل تُحضر معها بعض الطعام اللذيذ، وكان هذا أكثر شيء يسعدني.

كانت أمي امرأة ماهرة، تقريباً لا يوجد منزل في قريتنا شويينغ الكبيرة لم تقم أمي بحياكة ملابس لأصحابه، وفي كل مرة كانت تنتهي من حياكة الملابس وتعود إلى منزلنا، لا تقوم بإعطائي وعاء من حساء المعكرونة فقط؛ ولكنها أيضاً تُحضر لي كعكتين على البخار من دقيق الذرة، وفي بعض الأحيان كانت تحمل طبقاً من حساء الشعيرية باللحمة المطهية بالغلي البطيء أو السمك المغلي مع المعكرونة. وأكثر مرة لا أنساها هي عندما أعطانا جار عمي الثالث الأعزب شو جيانجيا وعاء جذور اللوتس باللحم، ففي ذلك الوقت باستثناء أسرتهم لم يكن يرغب أحد في تناول جذور اللوتس، وكان ذلك لأن والد شو جيانجيا عاملاً في منجم فحم هو اينان بأنهوي. ويعتبر هذا الطعام الذي أحضرته أمي من بيتهم هو أشهى الأطباق التي تناولتها على الإطلاق، حتى راحته لم أشم مثلها من قبل.

في ذلك الوقت في الريف كان البيت الذي يكون أحد أفراده عاملاً، هو حقاً في ازدهار، في الشتاء عندما كنت صغيراً كانت القبة القطن والحذاء المبطن اللذان ارتديهما تمنحهما لي العائلات الأخرى، وكانت جذور اللوتس باللحم ذلك اليوم هو ذلك المرض الذي حملته أمي طوال عمرها عن طريق أبي الذي كان يعاني من شبه تأخر عقلي، وكانت تنسج القماش السميكة والقماش القطن السميكة للعائلات الأخرى ليلاً ونهاراً. في ظهر ذلك اليوم عندما كانت والدتي شو جيان تحمل هذا الطعام الساخن الذي نفوح راحته الطيبة، كانت أمي تخشى من أن أكون قصير القامة، فأعطتني الطعام لأكله، تحبني أمي كثيراً، وكانت تلتقط الفاكهة البرية التي لا يستطيع أحد التخلي عن تناولها من محاصيل الأرض، وفي كل مرة تحمل الفاكهة بداخل جيب السترة التي ترتديها وتعود إلى المنزل لتعطيني إياها. كنت أشم هذه الرائحة الجذابة وأقول لأمي: "أمي من فضلك تناولي الطعام لتستعيد عافيتك، وعندما تشفين من مرضك اصنعي لي سترة مزخرفة لأرتديها"، في الحقيقة لا أقول: إنني في ذلك

الوقت كنت أستطيع تناول طبق واحد بل ثلاثة أو خمسة أطباق في نفس واحد. ولكنني لم أجروء على تناولها؛ لأن أمي كانت أكثر احتياجًا إلى التغذية، وكذلك كنت أخشى أن أعتاد على هذا الطعام، وماذا سأفعل عندما يعتاد فيمي على الطعام الشهوي؟ وما يقال: إنني لا أكل جيدًا. هو أمر غير حقيقي، مثلما يُقال: إن القط لا يأكل السمك. فهي ثقافة زائفة؛ لذلك في ظهر ذلك اليوم كان لعابي يسيل لتناول الطعام.

في ذلك الوقت كانت عائلتي تعيش أوقاتًا عصيبة، فالعائلات الأخرى كان لديها قليل من الدخل، وتزرع بعض الزنجبيل، وتربي الحملان والدجاج والخنازير، حتى تتمكن من إطعام أفرادها، أما عائلتي فلم تستطع تربية أي شيء، كان الملح والزيت والحطب والطحين الذي تستخدمه الأسرة يوميًا، نشتره بفضل الزنجبيل الذي يُحصَد من الأرض الصغيرة كل خريف، كما أن العائلات الأخرى كان بها سيد يتولى الرئاسة، ويقوم بوضع الزنجبيل في عربة بعجلتين ويسحبها لبيعها بمدينة كايفنغ بمقاطعة خنان، وبعضهم يقوم بسحبها إلى شمال النهر الأصفر، وبيعها بأفضل الأسعار، لم يكن أبي يعرف الميزان، ولقد استخدم العربة لسحب الزنجبيل إلى سوق أووميائو هنا لبيعه، ويشتره تجار السوق منه بسعر منخفض.

وهناك شيء حدث منذ وقت طويل، في صيف أحد الأعوام، أُقيم حدث سعيد في منزل الجد بالقرية الشرقية، وأخذت أمي بضعة يوانات حصل عليها أبي من عمله الشاق وتعرض حياته للموت في حفر نهر هوايخه في الشتاء وثنتها ووضعها في جيبها لشرب الخمر، كانت أمي تعلم أنني شرّة وأحب الطعام، فقامت بتقليل المال الذي أخذته؛ ولأنها كانت خائفة من القيل والقال ومن أن يعلم الآخرون، تركتني في المنزل، وعندما خرجت من الباب أخبرتني مرارًا وتكرارًا: «داشي، سأحضر لك قطعة كبيرة من اللحم وكعكتين على البخار عند عودتي». كانت أمي طويلة القامة، تمشي بخطوات كبيرة متجهة نحو القرية الشرقية، أخذت أتبعها بخطوات بطيئة تبعدا بسبع أو ثماني خطوات، وأركض بضعة أميال حتى لحقت بها، التقت أمي ورأتني، وكانت غاضبة وقلقة، وقامت بخلع حذاءها وضربتني على مؤخرتي عدة مرات، ثم سألت دموعها وأخذت تبكي، ووقفت أنا أيضًا أبكي على جانب الطريق، وعندما رأنتي أمي وأنا أبكي بشكل مثير للشفقة، انفجرت في البكاء، لا أتذكر هل ذهبت أمي في النهاية في ذلك اليوم لشرب الخمر أم لا؟ ولكن لا يزال مشهد احتضان الأم لابنها وبكائهما محفورًا في ذهني.

أن تحيا جبانًا أفضل من أن تموت بطلاً

تزوجت أمي وانتقلت إلى منزل يابو منذ فترة طويلة، وكان وجهها دائمًا متقلبًا، لماذا أقول ذلك؟ لأن أمي لم تر أبي الذي يعاني من شبه التأخر العقلي؛ بل ترى فقط ذلك الأب الذي يعود حاملاً سلة الروث كل يوم، فيتملكها الغضب، وتنتظر حتى يذهب أبي للعمل في الأرض، وتنتظر إلى ولديها الاثنين، وترسم على وجهها ابتسامة رضا.

ذات مرة أخذتني أمي معها إلى السوق ببلدة أووميائو التي تبعد عن قريتنا 4 أميال، هذا الأمر بالنسبة إلى أمي لا يحدث حتى ولو في مائة عام، وهذه المرة تركت لي أيضًا ذاكرة لا أنسى طوال الحياة؛ ففي ظهر ذلك اليوم، كنت أسير أنا وأمي في الشارع الشمالي الجنوبي ببلدة أووميائو الذي كان الناس يتدفقون عليه من كل حذب وصوب باستمرار، وكان على شمال الطريق رجل مسن أصلع الرأس يحرس سلة مكسورة مصنوعة من الخيش، هذا العجوز كان يرتدي قميصًا في الجزء العلوي من جسمه، وسروالًا قصيرًا من القطن السميك، ويحمل في يده اليسرى سكينًا قديمًا، وميزانًا في يده اليمنى، وفمه لا يتوقف عن الحديث عن جمال مذاق لحم الحصان المطبوخ بالتوابل الخمسة في الذي كان يبيعه.

لا أقول: إن أمي التي اعتاد فمها على الدواء عندما رأت اللحم تافقت نفسها إليه، فحتى لو كان هناك شخص لم يمرض من قبل ووعاؤه لم يُوضع به قطرة زيت واحدة لمدة عام، فإنه عندما يشم رائحة اللحم التي تفوح في المكان سوف يسيل لعابه، ويعجز عن كبح نفسه من الذهاب لرؤية ما يبيعه ذلك الرجل المسن.

سحبت أمي بيدها يدي خوفًا من أن أهرب، وأشارت باليد الأخرى إلى اللحم الذي كان بداخل سلة ذلك المسن متسائلة: «أي نوع من اللحم تبيع؟» فقال الرجل العجوز: «قبل أمس اقترضت محراث الحصان من أحد أقاربي، ولا أعرف لماذا صاحبني سوء الحظ، فالحصان الذي اقترضته منه لحرث الأرض قد مات». كانت أمي أكثر شخص يتمتع بالذكاء والقدرة في عائلتي، لم تصدق أن اللحم الذي كان العجوز يبيعه هو لحم حصان، فشرائح لحم الحصان سميكة أما شرائح لحم الحمار رقيقة؛ قامت أمي بفحص بضع قطع من اللحم المطبوخ الموجود في السلة مرارًا وتكرارًا، وقامت بقطع قطعة من اللحم بحجم اللوزة ووضعها في فمها لتذوقها، فنظرت إليّ أمي وجدنتني أهدق إليها ونفسي تنوق إلى تذوقها، فقطعت قطعة كحبة الفول ووضعتها في فمي، يا إلهي، أقسم أنها كانت ألذ شيء أكلته في حياتي حتى عندما كبرت، فما مُضغ في الفم وصل إلى أعماق القلب؛ ذلك

الشعور رائع جدًا لدرجة أنني لا أجد كلمات كافية لوصفه، مضغت تلك القطعة من اللحم التي كانت بحجم حبة الفول لفترة طويلة ولم أرغب في بلعها من روعة مذاقها.

ولكن سرعان ما دفعنا ثمنًا باهظًا لهذا الفعل، فاللحم الذي كان الرجل المسن يبيعه لم يكن لحم حصان؛ بل كان لحم حمار ميت، ومنذ ذلك الوقت أصيبت أمي بمرض جديد مع المرض القديم لتتدهور صحتها أكثر فأكثر، حتى عجزت عن النهوض من الفراش مرة أخرى.

في شتاء هذا العام، مرضت أمي مرضًا شديدًا ولم تستطع رعاية نفسها، وكانت تنام داخل كوخين من أكواخ القش القديمة في الغرب، متكئة على سرير تحت نافذة الجدار الجنوبي، ومنذ ذلك الحين بدأت أنقطع عن الدراسة أحيانًا وأذهب أحيانًا أخرى، وكانت النتيجة تسوء يوميًا بعد يوم، وحالما أنتهي من الدراسة كل يوم، كنت أقفز بخطوات سريعة أمام الآخرين، لأعود سريعًا إلى المنزل لأطهو الطعام، وبمجرد أن أسمع صوت خطوات الخارج، أعرف أن أبي عاد ومعه سلة الروث، وما إن أنظر إليه لا أتمالك نفسي من البكاء قائلًا: "لقد انتهى الآخرون من تناول طعامهم وذهبوا إلى الدراسة، وأنا ما زلت هنا أعد النار وأطهو الطعام.

وأنا في عمر التاسعة حدث شيء لن أنساه طوال حياتي، ففي صباح يوم من أيام موسم حصاد الخريف، اقترضت من عمي آلة لقطع رقائق البطاطا الحلوى، وكنت مشغولًا بالعمل مع أبي في الأرض، وعند اقتراب الظهر، كان حلقي يحترق، وذهبت إلى الخندق في الجنوب لشرب الماء؛ ولكن هذا لا يهم، الأهم أنني رأيت مشهدًا مثيرًا للغاية؛ كان هناك شخص يريد إلقاء نفسه في المياه، فقفزت إليه في خطوتين، وانتابنتي الصدمة في ذلك الوقت، أليست هذه أمي؟

نعم، حتى لو كانت جنية من السماء فلا يمكنها إعداد الطعام من دون الأرز، فحتى توفير الطعام الأساسي كان مشكلة تواجهها كل يوم، كما أنها كانت ترى زوجًا مشوشًا طوال اليوم، حقًا لم يكن لدى أمي أي وسيلة أخرى.

هناك مقولة متداولة في الريف: "أن تحيا جبانًا أفضل من أن تموت بطلًا"، ربما هي رحمة السماء أو هو مصير أمي؛ عندما أوشكت أمي على القفز في الماء، في الوقت المناسب جاءت من الناحية الجنوبية أخت تحمل سلة من الخيزران، هي جارة قديمة لنا، رأت الأخت أمي تقف بجانب الماء، بذلت قصارى جهدها في سحبها إلى الأعلى؛ ولكن ظلت أمي تتاضل مع الحياة والموت ورفضت أن تسحبها، وظلت تصرخ قائلة: "لا تسحبيني، أي قوة لدي حتى أعيش؛ فأنا أشعر بالذنب يوميًا بعد يوم، وإذا عشت يوميًا واحدًا سوف أحمل أولادي داي شي وتشونغ شي المزيد من الديون، أنا متعبة جدًا، ما الفائدة من حياة امرأة كسلة دواء مثلي؟".

ناضلت أمي من أجل القفز في أعماق الخندق، ولحسن الحظ لم يكن لدى أمي المريضة منذ سنوات عدة الكثير من الجهد لتبذله، بينما كانت الأخت تتمتع بقامة طويلة وبقوة جيدة، عانقت بذراعيها خصر أمي وحملتها لأعلى، ونصحت أمي قائلة: "لم تأخذين الأمور بهذه الصعوبة؟ لا يمكنك الموت؛ فأنت لديك ابنان داي شي وتشونغ شي، ماذا سيفعلان بعد موتك؟ ألا تشعرين أن الطفل بلا أم طفل مسكين؟

بعدما أخذت الأخت تقنع أمي أكثر من ساعتين، كان أبي شبه المختل عقليًا مشغولًا في قطع رقائق البطاطا الحلوى، ولم يقدر أبي على إقناع أمي، كانت أمي امرأة ماهرة، وإذا كان لدى أبي القليل من الفهم، لما عانت أمي من مرض خطر، هذه الأخت المتحمسة رأتني مسكينًا، ولا أتمالك نفسي من البكاء، فنادتني باسمي قائلة: «دا شي، ما لك تنظر وأنت مذهول هكذا؟ لم لا تذهب بسرعة وتقترض سيارة لسحب والدتك والعودة إلى المنزل؟».

لقد أرعبتني أمي المريضة، ولم أستطع سوى الوقوف مذهولًا والانفجار في البكاء، وفي ذلك اليوم جفت كل الدموع بعيني.

وفاة الأم

في الليالي المظلمة ركضت أنا وأخي في طريق ليس به نجمة واحدة تضيء سماءه، وكانت الرياح تهب في وجهي، وتولمني مثل ألم خدش القط، سمعت صوت حفيف الشجر في العاصفة مختلطًا مع صوت بكائي أنا وأخي، لم أنس هذا الشعور بالحزن حتى الآن.

على الرغم من استرداد أمي حياتها، فإن صحتها منذ ذلك الحين أصبحت تسوء يوماً بعد يوم، في منتصف ليلة ما أصبح مرض أمي أكثر خطورة، فزعت أنا وأخي الأكبر الذي كان يبلغ من العمر 19 عاماً حفاة الأقدام إلى كل مكان للبحث عن شخص يساعدنا، وحالما رأينا شخصاً جاء لمساعدتنا ركعنا على الأرض ودقت رؤوسنا الأرض مدوية امتثاناً.

في اليوم الثامن والعشرين من الشهر الأول عام 1982، كان الطقس لا يزال بارداً، غادرت أمي عالمنا؛ كان عمري يزيد عن تسع سنوات عندما ماتت أمي، في منتصف الليل تعرضت أمي لانسداد مجرى التنفس، في تلك الليلة هبت رياح شديدة، وأمّي ترقد على سرير من طين مجفف وسط كوخين من 60 كيلو جراماً من القمح، وكان هناك مصباح زيت وحيد مُضاء، ورماد أوراق النقود المحروقة يتطاير فوق جسدها الهزيل.

تلقيت مساعدة كبيرة من الأخ الطيب دونغ يوان، خلال القيام بترتيبات جنازة أمي، عندما توفيت أمي لم يكن في المنزل سوى عدة مغارف من الشعرية وأكثر من 50 كيلو جراماً من رقائق البطاطا الحلوى، في ذلك الصباح، كان الأخ دونغ يوان يستعد للذهاب إلى سوق أووميوا لبيع لحم الخنزير، واستخدمنا لحم الخنزير ذلك لإعداد مأكبتين من الطعام، بينما أنفق عمي الثالث الأعزب 50 يواناً لشراء تابوت أمي.

لم أبك في جنازة أمي، جاءت العمة في الفناء الخلفي وضربتني عدة مرات حتى أفيق، بعد وفاة أمي، كانت دائماً تسألني العمة: «دا شي، هل تشفق إلى أمك؟». ولحظة أن أسمع عبارة: «تشفق إلى أمك»، لا أتمالك نفسي من البكاء، وأحياناً كنت أستخدم اللحاف القطني البالي لتغطية رأسي والبكاء طوال الليل، فالعالم لا يكون جيداً إلا بوجود أمي، فالطفل الذي لا أم له العشب أفضل منه.

منذ وفاة أمي لم أعد أشم رائحة جذور اللوتس باللحم التي كان الآخرون يهدونها لأمي، وكذلك لم أعد أكل رقائق السمك ذات السبع طبقات المالحة، وتحول منزلنا المكون من عدة غرف تالفة إلى مكان عام لأهل قرية شويينغ الكبيرة بأكملها، يقومون بربط الحيوانات به، وكذلك كان مكاناً للترفيه ولعب الورق، فكان أفقر من بيت الذباب؛ حتى إن المنزل أصبح كازينو للقمار يتوافد عليه الرجال والشباب لمدة تسع سنوات، وخلال التسع سنوات، قامت جماعة القبض على المقامرين التابعة لبلدية يانغ ميوا بالقبض على أبي مرات عدة؛ لم يكن أبي مقامراً ماهراً، هو فقط كان يفعل ذلك من أجل جمع بعض المال، حتى تستطيع أسرتنا شراء الملح والزيت للأكل.

يبدو أن الشتاء عندما كنت صغيراً كان بارداً أكثر من الآن، وكان تساقط الثلج يمثل مشكلة جديدة بالنسبة إليّ، لم يكن لدي سوى زوج من الأحذية القطنية، وبعد المشي في الأرض المجمدة والمغطاة بالثلوج يكون الحذاء رطباً، وكنت أرتيه في قدمي عند النوم ليلاً، حتى يكون دافئاً وجافاً، وأواصل ارتدائه خلال النهار، وكذلك كان المعطف مبتلاً بفعل المطر والثلج وبحاجة إلى أن يصبح دافئاً وجافاً.

كانت أمي في قلبي كالشمس في الكون، وبعد وفاتها ساد الظلام الدامس قلبي، ولكني أعتقد أن الكون الذي تغيب عنه الشمس لا يزال ينيره ذلك القمر العالي، ولو أبى القمر أن ينير ضوءه منزلنا الذي كان أشد مرارة من العلقم، فعلى الأقل هناك تلك النجوم الواضحة التي تملأ السماء، ولو تلاشت تلك النجوم غير الواضحة سوف تضطر أسرتنا التي يعتمد أفرادها على بعضهما البعض إلى إشعال مصباح القلب ليلاً ونهاراً.

طعم المرارة بعد وفاة الأم

هذا العام كسب أخي الكبير 400 يوان من عمله؛ ولكنه منذ ذلك الحين لم يكسب سنناً واحداً، واستطاع الذين خرجوا معه كسب المال، بينما هو فشل في ذلك! أمي التي ماتت متأثرة بمرضها، وأبي الذي كان يعاني من شبه التأخر العقلي، وأخي الذي كان في ريعان شبابه عجز عن كسب المال، وأنا التحقت لتوي بالصف الثالث من المرحلة الابتدائية، لك أن تتخيل كيف كانت الأزمة التي تواجهها هذه الأسرة.

مر عامان على وفاة أمي دون أن أشعر، ذات مرة وأنا في طريقي إلى المدرسة ذهبت أنا وثلاثة أو أربعة طلاب إلى بركتين من الماء، وأخذنا نلعب بقطع الطين ونقذف بها بعضنا البعض، وقذفني أحد الطلاب دون وعي بطوبه من الطين في الجزء الخلفي من رأسي، فانفجر الدم فجأة من رأسي كالبركان، وفي ذلك الوقت شعرت بدوار في رأسي حتى إنني لم أعد أرى

أمامي، وبعد أن عدت إلى المنزل متعثراً، أمسك أبي المشوش معجون البطاطا الحلوى ولصقها على رأسي، وكان يتعامل مع البطاطا الحلوى كأنها دواء لوقف النزيف وتسكين الألم.

في تلك الليلة كنتُ تقريباً أموت من الألم، كما لو كانت المسافة بيني وبين ملك الموت قدماً واحدة فقط، ومع ذلك لم يجرؤ أبي على الذهاب إلى أسرة الطفل الذي ضربني لمحاسبته على فعلته، فإذا كنت أنا من ضربت الطفل، لكان الأمر غريباً إذا لم تأت أسرة الطفل بأكملها إلى عتبة بيتنا لأخذ حياتي! تعرّضتُ أنا وأخي للضرب مرات كثيرة، ولم نتلق قط نصف عبارة اعتذار أو القليل من التعويض، ذات صيف كنت ألعب أنا ورفيقي في القرية داخل البركة، رأينا شقيقة رفيقي واعتقدت أنني كنت أضايق أخاها الصغير، فقفزت في الماء وأخذت تضربني بقبضة يدها وتصفني على وجهي! يا له من وجع، كل ما دار في رأسي في ذلك الوقت هو أن الطفل بلا أم مسكين، وليس بعد ذلك شفاء.

ذات مرة شاركت في مسابقة سباحة مع مجموعة كبيرة من الرفاق في هذه البركة، ومن بينهم واحد كان يحاول إيجاد سبب لضربي، رآته عائلته ولم تمنعه من فعل ذلك؛ بل كانوا يشجعونه، عندما تعرضت للضرب شاهدني شوقوه ين الذي كان معنا في القرية نفسها، واندفع نحو الشخص الذي ضربني وصاح قائلاً: "دا شي رجل نزيه، إياكم أن تتعرضوا له مرة أخرى". وبعد أن أنهى كلامه سحبني وانتهى الأمر أخيراً، عندما كنت أتعرض للضرب، من قبل لم يأت أحد لمساعدتي، أنا حقاً ممتن له.

في فصل الشتاء الثالث بعد وفاة أمي، سحب الأخ الذي كان بالفناء الخلفي العربية وذهب إلى خان لببيع الزنجبيل، بالنسبة إلى شخص مثلي لم يخرج بعيداً من قبل، كانت خان تبدو مكاناً بعيداً في السماء، أخذ الأخ اثنين من الذرة وأراد أن يبادل أبي معه مقابل الحصول على جذور السمسم الموجودة بمنزلنا ليستخدما حطباً في طهو الطعام، فكر أبي المشوش دائماً هذه المرة بذكاء أخيراً، ولم يبادل معه، وفي الخريف التالي، تزوجت ابنته الكبرى، وكان بحاجة إلى أشخاص يحملون جهاز العروس، ومرّ من أمام منزلنا عدة مرات ذهاباً وإياباً ولم يدخل، ثم ذهب يبحث عن أشخاص آخرين من خارج العائلة لحمل جهاز العروس، كنّا ندرك جميعاً أنه يخشى أن نحرجه.

حدث العديد من الاحتكاكات والصراعات بيني وبين الأخ تشي هوي، كما ضربني ولداه وابنتاه عدة مرات، ولكن كل هذا قد مر، هذه المآسي شحذت همتي، ولكنني ممتنّ لابنة الأكبر ياو ديان بانغ؛ منذ عام 2008 وحتى عام 2009، كان اقتراض كتاب قديم من أهل القرية أكثر صعوبة من الصعود إلى السماء. كان ابن ياو تشي هوي الأكبر ياو ديان بانغ معلماً في المدرسة الإعدادية بمعبد يانغ، في صيف عام 2009، أعطى ديان بانغ ابني الأكبر أوراق الامتحانات الفأضة، وبعد ذلك أصبحت علاقتي بابن أخي ديان بانغ جيدة جداً، على الرغم من أنه من الجيل الأصغر سنّاً؛ فإنه كان معلم أولادنا، كانت والدته أكبر مني بعشرين يوماً؛ لذلك كنت أتصل بهم وبوالدتهم عدة مرات كل عام، لأعبر لهم عن شكري.

في ربيع عام 1988، كنت في الصف الثالث الابتدائي، ذات مرة كان هطول الأمطار غزيراً، وكان الطلاب في القرية يرتدون أذنية للمطر ويحملون مظلات سوداء، ومن كانت ظروف أسرته جيدة يحمل مظلة من القماش الحريري المزخرف، والأشد فقرًا كان يرتدي آلة الطين التي يصنعها النجارون (آلة المطر توضع على القدمين، هي آلة خشبية بها لوحة في الأعلى حجمها مثل حجم القدم، ويوجد في الأسفل عمودان من الخشب مثبتان بشكل عمودي متصلان بعمودين آخرين تم تثبيتهما أفقيّاً، وهي تشبه المقعد الصغير)، وبعض الطلاب يرتدون آلة الطين بقدم واحدة (أسفل اللوحة يوجه عمود رأسي واحد وآخر أفقي)، إلا أنا لم يكن لدي أي شيء. حتى وعاء الطبخ في بيتنا كان أسود من القذارة، تُرى كيف تكون لدينا الإمكانات لصناعة أدوات الوقاية من المطر، في ذلك اليوم ذهب الطلاب إلى المدرسة الواحد تلو الآخر، بينما أنا اضطررت إلى البقاء في المنزل في انتظار توقف المطر، لم أكن أتخيل أن هذا المطر سيزداد هطولاً أكثر فأكثر، حتى تيقنت أنه لن يتوقف، واضطررت إلى أن أعض على أسناني واندفعت تحت المطر الشاسع وأقدامي حافية، كانت أسرتي الفقيرة تتمنى تناول ثلاث وجبات يومياً؛ ولكنها لم تستطع؛ وكانت تأمل أن يتوقف المطر بسرعة لكنه لم يتوقف! كان كل الطلاب يمتلكون حقائب مدرسية اشتراها الأب أو حاکتها الأم، بينما أنا لم أمتلك حقيبة منذ أن التحقت بالمدرسة إلى أن توقفت عن الدراسة، ولم يمر نصف الفصل الدراسي حتى تتلف كتبتي بسبب العرق الذي يسيل تحت إبطي.

في إحدى السنوات، تم رصف الملاط بالطريق الشمالي في القرية، كان هذا الطريق هو الطريق الوحيد للذهاب إلى المدرسة، خشيت أن يلتصق الملاط بقدمي، فكنت على استعداد للمشي في المياه والعشب بجانب الطريق، في ذلك اليوم ظننت أنني هذا الشخص الساذج أفكر بطريقة ذكية: حتى لا أنجح من الأعشاب البرية التي كانت أطول من الإنسان، أخذت كيس

أسمدة ببيرونات الأمونيوم الذي أحضره أخي من مكان بعيد وقمت بلفه على جسمي، وصنعت ثقبين في النصف العلوي من الكيس لتكون مكان عيني، ولم أتوقع أن هذه المعدات التي تبدو مضمونة 100% أن تؤدي بحياتي! خشيت أن أتأخر؛ لذلك كنت تقريباً أركض على طول الطريق، وانزلت بسبب الطين الموجود أسفل قدمي دون انتباه، في هذا الوقت كنت أبعد عن مصرف المياه أقل من نصف متر فقط، وكنت محاطاً بالطين وانزلت جسدي في اتجاه الماء، كنت أشعر بالرعب، وأردت فقط الذهاب بعيداً عن هذا المكان بأقصى سرعة؛ ولكن كلما حاولت الابتعاد عن الماء اقترب مني، وعندما أوشك اليأس على التملك مني، يبدو أن يداي أمسكت بشيء ما وهو عشب ذيل الكلب، أمسكت به دون وعي وصعدت ببطء، واستعدت حياتي أخيراً بفضل هذا «القش المُنقذ للحياة».

الأب المسكين

تجرع أبي كأس المرار مرات لا تُعد ولا تُحصى، فكان دائماً ما يتعرض للسخرية من قبل أهل القرية، سواء لفقره، أو لأن عقله لم يكن ذكياً بما يكفي، أو لأنه كان يتمتع بشخصية صادقة وساذجة ومتسامحة وغير جيدة في الحديث.

عندما كنت صغيراً، أحببت مشاهدة الأفلام، ذات صيف ذهبت مع الكثير مع أهل القرية إلى قرية فنغ شين البعيدة لمشاهدة الأفلام، وأثناء المشاهدة نمت دون وعي؛ وعندما استيقظت لم يكن أحد حولي، فبعد انتهاء الفيلم ذهب الجميع ولم يوقظني أحد، كنت قلقاً وخائفاً كذبابة دون رأس تهرب في اتجاه لا تستطيع تمييزه وسط حالة من الذعر، وانتظرتُ حتى استيقظت ورأيت المكان، ليست هذه هي قرية فنغ لو التي تبعد كثيراً عن المنزل؟ إذا كانت أمي على قيد الحياة، وأبي لا يعاني من شبه التأخر العقلي، هل كانا يتركانني وحيداً؟ في تلك الليلة، كنت أغني على طول طريق بركة لاووا الذي تكثر فيه المقابر لتشجيع نفسي وشد همتي، وأخذت أتسحس طريقي في الظلام حتى عدت إلى المنزل.

في عام 1985 خلال ثلاثة أيام صيف ساخنة، كنت أسحب أنا وأبي عربة اليد، لنقل القمح على جانب الطريق لتجفيفه، وكان في منزل أحد الأشخاص الآخرين مذياع يستطيع عبره سماع توقعات الطقس، وعندما يعرف أن السماء ستمطر، يقوم بسحب القمح إلى بيته، أما أسرتي لا أقول: إنها لم تملك مذياعاً؛ ولكن حتى المصباح اليدوي لم يكن بمنزلنا، وكنا في ذلك اليوم كالذي فقد البطيخ والنقط السمسم، حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، كان أبي يلتقط القمح المبعثر خارج أكوام قمح الآخرين، من كان يعلم أن الله منحنا الأمطار الغزيرة ليمنح أسرتنا القليل من الحبوب المتبقية، وفجأة تحولت سماء اليوم المشمس إلى غيوم داكنة ورعد وبرق، جمعت أنا وأبي القمح في عجلة، وتلك الأمطار الغزيرة جعلت هذه الحبوب غارقة في المياه، وجمعتها أنا وأبي في ظل بكاء السماء والأرض.

تعتمد أسرتنا كلها على أبي في كسب المال، وفي القرية طالما وجد عمل من الأعمال الشاقة والقدرة والأعمال صعبة الحمل مثل تحريك كومة من البراز أو الروث، وأول شخص كان الناس يفكرون فيه هو أبي، فيقول هذا: أحضروا ياروداو للعمل عندنا اليوم. ويقول ذلك: أحضروا ياروداو للعمل في بيتي غداً. كان أبي طيب القلب، كلما استدعاه أحد لا يتردد في التلبية، وكان بعضهم يعرض عليه يواناً أو يوانين، فلا يدخر جهداً ويذهب للعمل.

هكذا كانت عائلة ياروداو تحيا، في ذلك الوقت كان هناك عرف في القرية: «من يذهب للعمل في منزل شخص ما، يقوم صاحب هذا المنزل بطهو بعض الأطباق ليتناولها الأشخاص الذين يعملون في منزله». كان أبي عندما يذهب للعمل في منزل أحد الأشخاص، كان المخمل والخردل وفاصوليا الصلصة المملحة هي الطعام الذي يتناوله، وكانت كل وجبة يتناولها في بيوت الآخرين يأخذ فيها قطعة خبز بالبخار بيده ويحمل الوعاء باليد الأخرى، ويجلس القرفصاء على الأرض ليتناول الطعام، هؤلاء الناس لم يعاملوا أبي ضيقاً قط؛ أبي ذلك الرجل الصادق لم يعتمد على أي مهارات سوى قوته الجسدية لكسب المال، وذات مرة ذهب إلى السوق ومعه 5 يوانات وأضاعها.

كانت أصابع قدمي كبيرة وكنت أعاني من مسمار القدم؛ لأن الأحذية التي كنت آخذها من الآخرين لم تكن مناسبة، إما كبيرة أو صغيرة لا يمكنني ارتداؤها، وكنت أرفع كعبي وأقوم بضغطه ودقه عدة مرات حتى أدخلها في الحذاء، عندما كنت صغيراً كانت معظم الملابس التي أرتديها من بيت شو جيان الذي يبيع براعم الفاصوليا والخضار المخمل في سوق الخضراوات أنشون تشنغ بيكين حالياً؛ حيث كان أفضل جار لنا خلال عشرات السنوات، كان أفراد أسرتنا قَبَحَى وخُرُوق، من يرانا يخشى أن نلطح جسمه بالرماد، وبالإضافة إلى القليل من الجهد الغبي لم تتمتع أسرتنا بأي قدرات أخرى، كان أبي الذي

يلعاني من شبه تأخر عقلي معروفاً لكل أسرة في قرية شويينغ الكبيرة، وعندما فسدت محاصيله في الأرض كان لا حول له ولا قوة، وعلى العكس كان يساعد أولاً الآخرين في عملهم.

قبل عام 1990، كان أبي في كل خريف يختار زجاجة زيت، وفي الثالثة صباحاً يذهب للاصطفاف لتبديل زيت السمسم، وكانت تُسرق تلك الزجاجات والبراميل لسنوات عديدة، وكان أبي يعرف من يسرقها؛ ولكنه لم يجرؤ على قول ذلك، فإذا سُمع أن أبي تقوه بشيء فسوف يخسر حياته، وفي فصل الصيف، يمشي أبي 8 أميال لتسليم ضريبة الحبوب العينية بمحطة حبوب فانجي، كما يقطع مسافة أكثر من 10 أميال للذهاب إلى محطة حبوب قاوتانغ جي لتسليم ضريبة الحبوب، لم يهتم أبي بالحفاظ على قواعد الاصطفاف، وكان الآخرون يرونه أحمق، ويتقدمون أمامه الواحد تلو الآخر، وفي بعض الأحيان يتعرض للضرب منهم.

في شتاء العام الذي أتممت فيه السابعة عشرة من العمر، كنت أحمل أنا وأبي 100 يوان، وكنا نجر العربة الزراعية معاً، ولحظة أن يستيقظ الديك، كنت أمشي إلى مدينة لينتشوان التي تبعد مسافة 60 ميلاً عن قريتنا وأحضر بعض البضائع لبيعها؛ لكسب بعض المال حتى أتمكن من دفع الرسوم الدراسية، في ذلك اليوم ذهبت إلى المدينة أنا وأبي ونحن نجر العربة ويحمل بعضنا البعض بالتناوب، هو يجرني مسافة خمسة علامات على الطريق، وأنا أجره مسافة علامتين، في ذلك اليوم عند إحضار البضاعة، كان أبي ينظر إلى تلك العربة، وأنا أدخل لإحضار البضاعة، وأحمل بعضها متجهاً نحو العربة، وعند الظهر كنا نتصور جوعاً لفترة طويلة، فاشتريت ¼ كيلو جرام من الكعك على البخار مقابل 7 موات 3 ونصف؛ في ذلك الوقت جلس أبي في الجزء الخلفي من العربة الزراعية وأنزل قدمه وبدأ يتناول الطعام، وكانت هذه هي أول مرة يأكل فيها أبي كعكاً على البخار، ألقيت نظرة على حذاء أبي الذي منحه أحد الأشخاص إياه، ورأيت ثقبين كبيرين فوق الإصبع الكبير، هذان الثقبان كبيران مثل عيون البقرة الموجودة في فريق الإنتاج، فشعرت بوخزة في قلبي من الحزن؛ وكان نعل حذاء أبي القماش يشبه ورقة رقيقة مطحونة، وإذا وخزته بلطف بإصبعك يمكنك ثقبه، عندما رأيت حذاء أبي، اختنق البكاء بداخلي ولم أستطع أكل الكعكة التي كانت في يدي.

في ذلك اليوم بعدما انتهيت أنا وأبي من إحضار البضاعة، عدنا مسافة 60 ميلاً بالطريقة نفسها التي ذهبنا بها، أنا الذي كنت أبلغ من العمر 17 عاماً وأبي الذي كان يعاني من شبه التأخر العقلي، قطعنا طريقاً مسافته أكثر من 100 ميل ذهاباً وإياباً، وطبقاً لما يقال حالياً لا بد أن معدل النظر إلى الوراء كان بنسبة 100% كان أبي يرتدي حذاء مطحوناً ومفتوحاً، وكانت قدمي قد طحنت وتورمت واحمرت من السير مسافة 100 ميل، ومن وقت لآخر يظهر عدد من البثور الكبيرة؛ في طريق العودة لم أتحمّل أن يجرني أبي مسافة خمس علامات على الطريق، وعندما قام بجري مسافة ثلاثة علامات، نزلت بسرعة من العربة وقلت له: "يا أبي لقد قمت بجر العربة مسافة خمس علامات؟" ولكن لم يتحمل أبي أن أجره مسافة أكبر خوفاً من أن يُتعب قدمي؛ في طريق عودتنا إلى المنزل قطعنا طريقاً صعباً، وعندما وصلنا كانت الساعة التاسعة والنصف مساءً.

كانت تجربة سير 100 ميل ذهاباً وإياباً لإحضار البضاعة لها فضل كبير في صقل ذهني، منحت مدينة لانتشوان أسرتنا أول فرصة للخروج لكسب لقمة العيش، فلم نشك الحياة؛ رأيت العالم أنا وأبي، كما تمكنا من أكل الكعك على البخار في المدينة، وهذا جعلني أؤمن أن الإنسان لن ينجح إلا بالكفاح وتحمل الصعاب، لم يتحمل أبي تعبني، وما لم أستطع تحمّله هو أن تتعب هاتان القدمان الباردتان المتجمدتان ثانية عند حفر نهر هوايخه.

حياة الأب خلال عمله في حفر النهر

لم يشعر أبي بالشعب عند تناول الحبوب الغذائية الخشنة في بيتنا، وكان هناك مطعم كبير يوجد عند منطقة العمل بحفر النهر؛ حيث يمكنه تناول الكعكة الكبيرة الموجودة على العصا السميكة كما يريد، وفي كل وجبة كان يشرب عصيدة الأرز المملح، كان أبي ساذجاً؛ ولكن سذاجته هذه لطيفة، ولم يكن كسولاً؛ لذلك كان مفضلاً لدى كوادر البلدية ويطلبونه للعمل.

في السبعينيات لم يكن في الريف أي آلات، واعتمدوا في طحن الدقيق على العمل اليدوي عن طريق الطحن باللف حلقات، كان بكل بيت مغرفة ومجرفة وكان أهل الريف يحملون الصرة ويذهبون لطحن الدقيق وطهو الطعام، كل عام عند الانتهاء من جني محاصيل الخريف، يجمع كوادر البلدية القوى العاملة من كل قرية وأسرة للذهاب إلى نهر هوايخه للعمل كعمال للطرق، وبحلول الشتاء يذهب كل أهل القرية للقيام بمهمة حفر نهر هوايخه ورصف الطريق، وكان بعض الناس في القرية

تتسخ ملابسهم، وبعضهم الآخر يشعر بالتعب الشديد، ويتناولون وعاء كبيراً من الطعام، وكان الذين يشعرون بالتعب يرفضون الذهاب، ولكن كان أبي سعيداً جداً بالقيام بهذا العمل الشاق؛ لأن ذلك المكان ببساطة هو بالنسبة إليه جنة.

في ذلك الوقت لم تمتلك عائلتي حتى ثمن شراء زوج من الأحذية المطاطية، كل شتاء كان أبي يضع قدمه داخل حفرة جليدية أثناء العمل، ولم يعرف كم شتاء عانى فيه، وكم عدد الحفر الكبيرة التي يسيل منها الدم في قدمه وتُقبَّت بفعل قطع الجليد الحادة، خلال الكثير من أيام البرد السيئة تجمدت أظفاره العشرة حتى تورمت، وسقطت الأظفار بعد أكثر من عشر سنوات، كان أبي يستطيع القيام بأعمال يقوم بها ثلاثة أشخاص؛ خلال العمل في النهر، كان عدد من أهل القرية يرون أبي ساذجاً وصادقاً، وفي الحقيقة يرونه أحمق، وكانوا يقولون له متعمدين: "ياو روداو"، نعتقد أنك لا تستطيع نقل مثل هذه الأشياء". لم يدرك أبي أن الآخرين يداعبونه، وكلما حرصه الآخرون على فعل شيء ازدادت حماسه.

في كل مرة يذهب عمال حفر النهر لتناول الطعام، يقوم الكثير منهم بإلقاء كعكة البخار شرقاً وغرباً، بينما كان أبي ينتهز وقت تدخينهم للسجائر ويلتقط الكعك الواحدة تلو الأخرى ليقوم بتجفيفها، ومن ثم يجمع كومة كبيرة منها ويبيعها معه حتى نهاية العام والانتهاء من العمل والعودة إلى المنزل، كان بداخل الكيس الكبير الذي يحمله أبي على كتفيه كعك متنوع، منه الكبير والصغير والمستوي والدائري، وكان هذا هو الكعك المتبقي من عمال البلدية المغتربين، عندما يعود أبي إلى المنزل يقوم بفرش مفرش بال لتجفيف الطعام على الأرض، ويحمل كيساً كبيراً من الخبز الجاف، ويقلبه على المفرش، ونحن ننظر إلى الكعك الجميل الذي يتدحرج من الكيس هنا وهناك، وقلوبنا ترقص من السعادة، هذا الكعك كان كافياً لتقضي أسرة ياو الفقيرة عام حصاد جيد، كان كل فرد في الأسرة متردداً في بلع الكعك بعد مضغه ليظل في فمه فترة طويلة، وإذا كان أجدادي على قيد الحياة ورأوا هذا الكعك لتسارعوا إلى تناوله.

كان أبي على استعداد للعمل في حفر النهر، كان العمال الذين يعملون بحفر النهر يعودون إلى بيوتهم في عيد الربيع نحفاء جائعين، إلا أبي كان يعود سميناً بسبب كثرة الأكل الذي يتناوله، في ذلك الوقت لم يكن بالقرية سوى مذياع واحد، اشتراه ثلاثة أشخاص في القرية، ودفع كل واحد منهم 18 يواناً، وبعد شرائه كانت كل أسرة تأخذه يوماً، ويجتمع أهل القرية في حلقة للاستماع إليه فقط، ولم يجروُ أحد على لمسه.

لم يعرف أبي الرموز ولا القراءة والكتابة؛ ولكنه كان يحكي مجموعة من القصص، وكان العمال يحبون الالتفاف حوله لسماع هذه القصص، وقد أدى أبي دوراً قيادياً عند كثير من الناس في البلدية وفي أعمال الحفر بالنهر، فكان يكافح ويشقى في عمله؛ ولكنه لم ينس تشجيع الناس حوله وتحفيزهم، وكنت معجباً به، هذا الأمر جعلني أشعر أن ثمن البلاهة الذي دفعه لم يكن خسارة.

لن نحيا حياة مضطربة ثانية

لدفع الرسوم الدراسية ذهبت أمي المريضة من شرق القرية إلى غربها لتعطيني يوانين، في ذلك الوقت قلت لنفسي ينبغي لي فهم الأشياء، وتحمل أعباء هذه الأسرة الفقيرة بكل جهد، وألا أخيب أمل أمي حتى أستحق الاسم الذي منحتني إياه.

كان أول اسم لي في المدرسة هو ياو تشي دونغ، منحتني أمي إياه، وقالت لي: «اسم ياو تشي دونغ هو دعامة للتقدم وبناء ثروة الأسرة!». عندما كنت في الصف الثالث، غيرت اسمي ليصبح اسمي الحالي ياو تشي تشونغ. وتمنيت أن أمنحه إلى زوجتي في المستقبل، وأن يلهم أبناء ياو تشي تشونغ الصين كلها، كما منحتني أمي اسم «دا شي»، وكانت تعلق على هذا الاسم آمالاً لا حدود لها، وتتمنى أن أستطيع تخطي الفتن الكبيرة والأحزان في المستقبل، وأن تكون كل المعاناة التي أواجهها مثل اللعبة الصغيرة أداعبها بلطف، وأن أتخلص من المعاناة والفقر الذي عانت منه أسرة ياو في الماضي.

في أوائل شتاء عام 1988، كنت في السادسة عشرة من العمر، في صباح يوم أحد، اقترضت أنا وزميلي شبكة الجمبري النهرية، لصيد بعض السمك والجمبري والعودة إلى المنزل لتجفيفه والاحتفاظ به لحين قضاء السنة الجديدة، وبهذه الطريقة أجعل عائلتي تقضي عام حصاد جيد، كما أنه يُظهر قدراتي؛ قطعت مسافة 3 أميال بسعادة للذهاب إلى النهر الصغير بمنطقة تشوانغ نان بمخيم شيواو سونغ، وفي الساعة 11 صباح ذلك اليوم، اصطدت الكثير من الأسماك والجمبري، في ذلك الوقت كان الطقس أكثر دفئاً، وبدأت مياه النهر في الذوبان قليلاً، وأردت الاستقادة من هذا الوقت لبذل المزيد من الجهد، وفجأة داست

قُدِمي اليسرى في الطين دون حذر، وسقطت فجأة، وضغطت قدمي اليمنى على القصب واختزقتها فجأة، ولو التصق جسمي في ذلك الوقت بالقصب، لربما أصبحت هذه المرة كومة من العظام.

على الرغم من أنني نشأت وسط عدد لا يُحصى من الوجوه، فإنني لا أعلم كم مرة تعرضت للضرب وسوء المعاملة من الآخرين عندما كنت صغيراً؛ ولكن عندما التحقت بالمدرسة، لم يحتقروني المدرسون والطلاب، وعندما كنت أذهب إلى المدرسة الابتدائية بمركز يانغمياو، لم يكرهني أو يسئ معاملتي أي طالب؛ بسبب فقر عائلتي، وإذا رأيت المعلم على الطريق، ألقيت عليه التحية بصوت عالٍ.

عندما كنت صغيراً، أحببت مشاهدة الأفلام، في ذلك الوقت أعطاني عمي ماواً أو ماوين لشراء وعاء كبير من المعكرونة لأتناوله، وفي بعض الأحيان كان يعطيني 5 فئات 4 إضافية لتناول معكرونة باللحم؛ ذات مرة ذهبت إلى قاو تانغ جي للاستماع إلى الأوبرا، أعطاني عمي نصف كيلو من كعك القمح، وكل عام جديد كان يعطيني من ماوين لخمس موات، وحدث الكثير من مثل هذه الأشياء الصغيرة؛ عندما كنت صغيراً، كنت أتعرض دائماً للإساءة والظلم، وتعارك عمي مع الآخرين من أجل عدة مرات.

كان الأب ياو خه تشي صاحب القلب الطيب يعيش بالفناء الخلفي في المنزل؛ فتح ياو خه تشي مصبغة وكان رجلاً يحترمه الجميع ويحظى بمكانة في الشارع، وقال لي كلاماً لا أنساه أبداً في حياتي، فقد شجعني قائلاً: “دا شي، عليك الاجتهاد والعمل بجد، لتكون قادراً على الزواج في المستقبل، فمظهرك لا يدل أنك ستكون أعزب”. بعد وفاة الأب ياو خه تشي، لم يكن لدي قدرة لإعداد مائدة للتعبير عن امتناني غير المتناهي، وكانت دموعي تنساقط كالطرر أمام قبره وأنا صفر اليدين، ظلت أفصاله محفورة في ذاكرتي، وفي كل احتفال بالعام الجديد، أذهب لتهنئة زوجته.

في عام 1990، تركت التعليم في سن الثامنة عشرة، وكنت حينها في الصف الرابع الابتدائي فقط، في شتاء ذلك العام، ذهبت أنا وأخي لشراء الزنجبيل من قرية تشن تشوانغ المجاورة، وأخذنا الزنجبيل وسرنا مسافة 240 ميلاً إلى بلدة بو شيان في الشمال لبيعه، قطعنا أكثر من 200 ميل ولم نشعر بالتعب، أعلم أن الرغبة في القيام بشيء ما تعتمد على الاعتقاد بعدم حدوثه، وضرورة القيام به، في ذلك العام تناولت لأول مرة الشعيرية المجففة من القمح النقي، وكنت أستيقظ أنا وأخي في الساعة الثالثة كل صباح، وكل منّا يحمل ميزاناً ويسحب عربة بعجلتين، ثم نذهب إلى عدة أسواق منها سوق دا يانغ وسوق سان تشا وسوق سان تانغ وسوق المدينة القديمة، ونحجز المكان الخاص بنا، ولم نضع الملح عند تناول الطعام في الصباح، وكان ذلك أفضل من تناول معكرونة البطاطا الحلوى الخالية من صودا الخبز التي كنّا نتناولها في المنزل.

تُحذ ذلك الشتاء إرادتي، على الرغم من تجمد أذنيّ ويديّ وقدميّ وتعرّضي للمرض، فإنني لم أندم، لأننا كسبنا في ذلك الشهر أكثر من 100 يوان، قد تكون المائة يوان في نظر الآخرين شيئاً لا يُذكر ولكنها ببساطة كانت في ذلك الوقت رقماً فلكياً بالنسبة إلى أسرة ياو الفقيرة المعتمدة، في هذا الشهر فهمت مقولة: «السكين لن يكون حاد إلا بشحذه، والإنسان لن ينجح إلا بالكفاح وتحمل الصعاب». وكنت أكثر إصراراً على مواصلة الكفاح.

كتبت معاناة الطفولة بكل هدوء وصراحة، لأنني أؤمن أن المعاناة تحوي بداخلها ثروة كبيرة، كما هو الحال عندما كنّا نتناول وجبة واحدة يومياً حينما كانت ظروف أسرتي أكثر صعوبة، كنت أثق أنه سيأتي اليوم الذي أتناول فيه ثلاث وجبات، كانت أجيال أسرة ياو أشخاصاً عاملة معتمدة من الطبقة السفلى في المجتمع، وقد أُرست هذه المعاناة أساساً متيناً للتغلب على كل الصعوبات التي سنواجهها في المستقبل.

1- تشي: هو وحدث طولتساويثامتر.

2- التوابل الخمسة: الديش، والأنيسون النجمي، وقرقة السرنديب، وكيشاقرنفول، والشمار.

3- الماو: وحدث قديمًا العملة الصينية (عشر اليوان).

4- الفن: هو وحدث قديمًا العملة الصينية (100/1 مناليوان).

الفصل الثاني: حياة العمل الأول

عملت في ويهاي لمدة خمس سنوات، خلال تلك السنوات وهبتي أشياء كثيرة ذاكرةً عميقة، أما بالنسبة إلى مشاعري تجاه ويهاي، فإنها مما لا أستطيع التعبير عنه بكلمات، بالإضافة إلى المعاناة، هل هناك شيء آخر؟ فلنفكر بهدوء، الامتنان! هذا هو الشعور الحقيقي بالنسبة إليّ.

العمل في ويهاي

العمل « هذه الكلمة أضفت عليها أسرتي تغييرًا لتصبح ألطف قليلًا، وهو ببساطة اللجوء للتسول واستجداء الآخرين لأن « المنزل خالٍ من أي طعام.

عام 1990 تولدت لدى أسرتي رغبة قوية، في هذا العام ذهب ستة أو سبعة أشخاص من قريتنا للعمل بويهاي بمقاطعة شانغونغ، كما ذهب زميلاي شو قوه يان وشو قوه تشونغ، كان بعضهم يكسب أكثر من 200 يوان، وبعضهم يكسب أكثر من يوان، وبعضهم يكسب أكثر من 700 يوان؛ أعطى رئيس العمال زميلي شو قوه يان بعض الملابس وزوجًا من الأحذية 400 الجلدية الحمراء، وأحضر كل واحد منهم التفاح الذي لم يأكله من قبل، وكذلك نوعًا من الفواكه دائرية الشكل وبدخلها بذور وهي البرتقال، فسأل لعابي وامتأ قلبي بالغبطة، وقلت لنفسي: «لا تعطينا لهذا أو لذاك، وتناولها كلها».

منذ ذلك اليوم شعرت أنها فرصة ذهبية لا تأتي إلا مرة في العمر، وطلبنا منهم أنا وأخي ليلاً ونهارًا أن نذهب معهم للعمل، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تطلب فيها أسرة ياو المساعدة من الآخرين، فهذا أصعب من تناول المعكرونة المقلية في يوم عاصف! ولكن حتى أستطيع خلع القبعة البالية التي يرتديها ياو، ذهبت على مضض لأطلب من رئيسنا ياو تشي فو، ولم أتخيل أنه سيوافق بسهولة؛ كنت سعيدًا جدًا، وقلت لنفسي: ما داموا قد منحوني فرصة لا بد من اقتناصها والعمل بجدية، حتى أحيا جيدًا.

قضينا عام 1990 بشكل معقول؛ حيث كان أبي يساعد جارنا دونغ يوان في أعمال المنزل، وأعطتنا العمة في بيت الجيران كيلوين ونصفًا من عجينة المعكرونة المقلية، وعند الاحتفال برأس السنة الجديدة تعمدت إنفاق 18 يوانًا لشراء 5 كيلو جرامات من الشعيرية، وبعد الانتهاء من قضاء رأس السنة الجديدة أقيمت لأبي بعضًا منها، وفي ذلك العام اشتريت أيضًا ألعابًا نارية بخمسة يوانات، عند قضاء رأس السنة الجديدة لم يَحْزْ كعك البخار اهتمامًا كبيرًا في بيتنا مثلما كان يحدث في بيوت الآخرين، وعند انتهاء الناس من إعداد كعك البخار وقلبي عجينة المعكرونة يقومون بالتضرع إلى الله؛ ومن ثم تناول الطعام، بينما تقوم أسرتي بطهو كعك البخار حتى منتصف الليل؛ لأنها لم تستطع طهوه بالنهار؛ ذكرت سابقًا أن منزلنا كان مكانًا يبحث فيه أهل القرية عن السعادة، وكانت أسرتي تطهو بعض الكعك وتقلي بعض الطعام، ويجلس أمام الوعاء مجموعة من الناس، ويقول هذا: "تضج هذا الطعام". ويقول ذاك: "ذلك الطعام يمكن إخراجه من الوعاء". ويقول بعضهم: "ماذا تفهم أنت؟ وهكذا. وعند شراء المشتريات الخاصة بعيد الربيع كل عام كان أبي يسبهم قائلاً: "ألن تذهبوا، من الذي لا تقضي أسرته رأس السنة الجديدة!".

في اليوم السادس عشر من الشهر الأول في التقويم القمري عام 1991، بلغت التاسعة عشرة من العمر، وهذا هو سن الزواج وفقًا لعادات أهل الريف، كانت أسرتي فقيرة ولم أستطع الزواج، فقررت أن أخرج أنا وبعض أهل القرية للعمل! ذهبت للعمل في شانغونغ، وكان هذا الطريق هو الضوء الذي لامس جارنا شو تشانغيين، واستطعت أن أذهب معه إلى قرية تشوفو الجنوبية بحاضرة هاوبو التابعة لمدينة ويهاي بمقاطعة شانغونغ، وعملت لدى صاحب العمل لو تشانغ تشينغ. كان طريق العمل جيدًا؛ ولكن نفقات هذا الطريق جعلت الأمور صعبة، لم يبق في المنزل سوى 35 يوانًا، وبهذه النفود سيشتري أبي الملح وزيت الكيروسين والحطب لعام كامل، كما يجب أن يعطي عمي جزءًا منها، قد يقول بعضهم: لم أسرتركم فقيرة هكذا؟ أقول لكم الحقيقة: كان أخي الأعزب يبيع الزنجبيل لعدة سنوات؛ ولكنه لم يكسب المال؛ بل فقد رأس المال، كان يبيع مرة ويخسر مرة. بينما كان الآخرون يكسبون المال، كان هو يخسر المال، وحتى الآن لا يزال مدينًا لعمي الكبير وعمي الثالث الأعزب بالمال. لم كل هذا؟ لم يكن أخي الأعزب يدرك كيف يعيش الحياة، ولم يقيم بالأعمال الزراعية في المنزل، وعندما يمتلك المال يذهب إلى الخارج لإفناقه دون تفكير، وغالبًا ما يضع في فمه سيجارين، كما أنه يأكل حوافر الخنزير بالتوابل

الخمسة والمعكرونة باللحم. والعم شو تشانغ شين العطوف المتحمس، الذي كان يرافق أفراد أسرتنا الغُرب لسنوات عديدة، خرج مع أخي الكبير، ووبخ أخي مرات عديدة قائلاً: «تشونغ تشي، لا يمكن أن تكون عديم التفكير هكذا، فعائلة مثلكم لن تقوى على العيش». إذا استطاع أخي أن يعيش بجدية، وتمكن من بناء منزل من ثلاث غرف من الطين، فماذا يفعل في مشكلة البقاء عازباً؟

في عام 1991، كان اليوم السادس عشر من الشهر الأول في التقويم القمري هو يوم خروجي للعمل، ووفقاً لمقولة أهل الريف: «الخروج من البيت في اليوم الثالث أو السادس أو التاسع»¹، كان هذا اليوم يجلب الحظ. اقترضت هذه المرة 50 يواناً من أحدهم لدفع تكاليف السفر، وهذه هي المرة الأولى التي اقترض فيها مبلغاً كبيراً من أحد، فقد اقترضت من أسرة أخي الكبير ياو تشي بين، في ذلك الوقت كنت أشعر بالحرج الشديد، وعندما ذهبت لاقتراض المال كنت أسير ذهاباً وإياباً على باب المنزل من شدة الحرج، ولم أجرؤ على دخول باب بيته الحديدي الكبير الفخم، وقد جعلني الكلب الذي كان ينبع أمام الباب الكبير أكثر اضطراباً كالنملة على وعاء ساخن! وتجولت حول باب البيت حوالي 20 دقيقة، إلى أن جاءت زوجة الأخ ياو تشي بين. وحالما رأنتي سألتني: «هل تريد شيئاً؟ تفضل بالدخول إلى البيت». فتحت زوجة أخي الباب، ودخلت ببطء إلى غرفة المعيشة، وقلت في تردد: «أود أن أطلب منك شيئاً، أريد أن أذهب مع أهل القرية للعمل بشاندونغ، وأحتاج إلى بعض المال لدفع تكاليف السفر». ولم أكمل كلامي حتى قالت زوجة أخي: «كم تريد؟». ولحظة أن سمعت كلامها تنفست الصعداء وقلت لها: «50 يواناً تكفي».

في طريقي للعودة إلى المنزل أمسكت في يدي الخمسين يواناً، وأنا أفكر متى سأردها إليه، كان ذهاب الأبناء للعمل أمراً يهز السماء ويحرك الأرض، وكان أقارب الابن يودعونه ويرسلونه، وبعضهم يساعد في حمل الحقيبة، وبعضهم يحمل عجينة المعكرونة المقلية والبيض المطهون، بينما كنت أنا وأخي الأعزب نخرج من البيت بشكل مخزٍ، في ذلك اليوم ارتديت سترة خشنة سوداء حصل عليها أبي مقابل عمله في بيت وانغ هونغرن بشرق القرية بضعة أيام، وأنا أمسك بالخمسين يواناً التي اقترضتها بإحكام وخرجت إلى العمل.

الذهاب إلى العمل بويهاي

إن التعرض للمحن والصعوبات أمر لا مفر منه، لم تكن حياة أفراد أسرة ياو على ما يرام، وكانوا عند مواجهة المحن يتقبلونها ببساطة، وعلى الرغم من الفقر الذي كان يرافقنا والعجز عن توفير ما نريد، فإننا لم نفقد الثقة بأنفسنا؛ لذا أردت أن أضاعف جهودي لكسب المال من العمل بالخارج، حتى تنففس أسرتي الهواء وأكون مستعداً لاستقبال مستقبل أفضل!

في صباح اليوم السادس عشر من الشهر الأول في التقويم القمري عام 1991، حملت أنا وأخي كيس سماد بيكروونات الأمونيوم واتجهنا نحو العربة، كان هناك شخص يتحدث خلفي: «هل هو جيد؟ مثل المكينة قصير وصغير، وإذا ذهب إلى العمل بشاندونغ، لن يمكننا التآلف والانسجام؟»، لا يجب أن ألقت وأنظر إلى الوراء لأعرف أنهم يتحدثون عني، أنا لا أخشى أن يسخر الآخرون مني وراء ظهري، في ذلك الوقت راودتني فكرة: أن أمضي في طريقي الخاص، وأدعهم يقولون ما يشاءون، سوف أعتد على قدراتي الخاصة لتحقيق المجد لعائلة ياو، وأدعهم يقولون: إن هؤلاء الغُرب ليسوا مثل الآخرين. الناس لا يمكنهم إظهار قدراتهم إلا بتحمل العواصف والأمواج، ولا شحذ همتهم إلا بمقاومة التغيرات صعوداً وهبوطاً.

اشترينا نحن وأكثر من عشرة أشخاص تذاكر القطار، وذهبنا معاً في رحلة إلى ويهاي، كان إصطبل قرية تشوفو الجنوبية بحاضرة هاوبو التابعة لمدينة ويهاي هو مسكني المتواضع، وموقع المصنع السادس لغزل الصوف بمدينة ويهاي بمقاطعة شاندونغ هو أول موقع أعمل به، وأول وظيفة تُعَيَّر مصيري.

أنا مواطن ريفي نشأت في بيئة فقيرة منذ الصغر، وحالما بدأت حافلة الركاب التي استقلناها في التقدم نحو الأمام، لم أتمالك دموعي، كنت أخشى أن يراني الآخرون، فأخذت أجفّ دموعي باستخدام أكمام السترة التي كنت أرتديها خفية، وتقريباً في الثامنة من صباح ذلك اليوم كانت السماء صافية تعانقها السحب، وعندما وصلت حافلة الركاب إلى بوابة نهر بينغ بمدينة فويانغ، واقترب القطار من المحطة، تحول الطقس فجأة إلى غيوم، وبدأ الرذاذ يتساقط تدريجياً، وجعلتني محطة فويانغ أرى صورة أخرى للعالم، كما زادت من اشتياقي إلى تلك الغرفة الأربع الصغيرة بمنزل ياو، ولأبي ذي الظهر الأحدب الصامد كالجبل، وكذلك لشجاري مع الآخرين خارج البيت، ولعمي الذي أعطاني العديدة مرات كثيرة.

في 18 من الشهر الأول في التقويم القمري عام 1991، بدأ العمل رسمياً بموقع مصنع غزل الصوف بمدينة ويهاي، ومن هنا بدأت حياتي المهنية، في اليوم الأول من العمل، عملت أولاً كعامل صغير أحمل الحجارة وأقوم بتحميل وتفريغ العربات وبناء حدائق الزهور وإصلاح الجدران وحفر التربة، وبعد ذلك عملت في بناء ملعب المصنع السادس لغزل الصوف بمدينة ويهاي. في الحقيقة في الأيام الثلاثة الأولى من العمل، إن لم أخش عودتي إلى البيت بخفي حنين والخزي يرافقني، كنت أخشى من عدم قدرتي على رد الخمسين يواناً التي اقترضتها لدفع مصاريف السفر، ولن أستطيع العودة إلى المنزل سيراً على الأقدام، كانت هذه حقاً معاناة لم أستطع تحملها. كنت أبدو صغيراً ونحيباً وقبيحاً، وكان الكثيرون يقولون أمامي: إنني شخص كسول، ولا يوجد مكان في جسمي يمكنهم رؤيته، عندما غادرت مسقط رأسي، كانت السترة الخشنة السوداء التي أرتديها قد حصل عليها أبي مقابل عمله عند الآخرين، وإذا عُدت إليه لن يستطيع رد الخمسين يواناً في حياته؛ لن أعود، شعرت أن جسمي أيضاً لا يمكنه تحمل ذلك؛ كان القلق يرافقني كل ليلة بسبب هذا الأمر ولم أغف سوى قرابة الفجر.

خلال فترة عملي في ويهاي، كان إصطبل قرية تشوفو الجنوبية هو مسكني أنا والعشرات من العمال الآخرين، وينام أكثر من عشرة أشخاص على سرير خشبي كبير، لم يمثل التزام في النوم في فصل الشتاء مشكلة؛ ولكن كان الأمر أكثر صعوبة في الصيف؛ حيث كنت أعاني من الطفح الجلدي على جسمي كله بسبب الحرارة الشديدة، أنفق الآخرون أكثر من عشرة يوانات لشراء ناموسية، ولكنني لم أستطع تحمّل ذلك، وحتى أوفر المزيد من المال، قمت بخياطة ناموسية كبيرة باستخدام شاش التعبئة والتغليف القديم البالي، واستخدمتها عدة أصياف؛ كان العمال الآخرون يحبون تناول البيرة مع الطعام، بينما كنت آخذ طعامي وأتناوله في مكان لا يوجد به أحد.

تناول بقايا الطعام وتوفير تذكرة الطعام

في مطعم المصنع السادس لغزل الصوف بمدينة ويهاي كنت أكل بقايا الطعام لمدة عامين كاملين، وفي كل مرة كانت العمة قو تنتقي بعض الطعام النظيف المتبقي من العمال سابقاً وتعطيني إياه، وكنت دائماً أفكر لو كانت أمي هنا ورأت كيف تعاملني العمة قو هذه المعاملة الجيدة، لاستخدمت يديها الماهرتين في حياكة سترة لها، مع تقديم زوج من الأحذية القماشية القوية متعددة الطبقات امتناناً لها.

في ربيع عام 1991، كان لا يزال الطقس بويهاي بارداً، وبدأ العمل في موقع المصنع السادس لغزل الصوف بمدينة ويهاي منذ أكثر من أسبوعين، والأطعمة اللذيذة الكثيرة بمطعم المصنع جعلتني أراه جنة روحية لا مثيل لها، كان موقع عملنا بجوار هذا المطعم، وفي كل مرة كنت أسمع صوت قلي الخضار القادم من المطعم، وأستمع إلى الملاحظات الموسيقية الأكثر جمالاً في العالم، تلك الرائحة القوية التي تفوح من خلال النافذة تجعل القلب متوهجاً بدفع لا حدود له، لم أتخيل أن الطعام قادر على إلهامي، فأخذت أفكر في أن نزع قبعة الفقر من عائلة ياو يحتاج أولاً إلى ممارسة المهارات الأساسية «للوجه الصفيق»، وأن تغيير مصيرك يبدأ أولاً بتغيير نفسك، إن الأيام التي يقضيها الإنسان يوم حزين بائس وآخر سعيد، وليس هناك أفضل من أن يفكر في نفسه للانطلاق والتحرك؛ لذا نزع تلك السترة الخشنة من على جسمي، ولم يعرفني أحد.

منذ ذلك اليوم كنت أستغل الوقت عندما كان عمال الموقع يأخذون قسطاً من الراحة، وأساعد العمة قو في المطعم، وكان هناك أيضاً العديد من السيدات يقمن بدفع عربات الطعام، فساعدتهن لإثارة قلوبهن، كانت هذه الحركة فعالة حقاً، بعدما قمت بمساعدتهن في العمل ثلاثة أيام، ورأين اجتهادي وصدقي ونزاهتي، ساعدني ذلك على تقديم بعض النصائح وقلت لهن: "إن الطعام في مطعم الموقع سيئ للغاية، فبالإضافة إلى اللفت والملفوف لا تتضمن الوجبة أي طعام آخر، ولا يُوضع زيت في الوعاء". ففكرت العمة قليلاً ثم قالت: "حسناً أيها الفتى، أنت كل صباح تجمع الطعام المتبقي وتعود إلى السكن لتأكله وتوفر المال". ثم قالت بعض السيدات: "لا تقلق، جميع عمال المصنع ملائمون جسدياً".

كنت أرى النفائات وبقايا الطعام بهذا المطعم وافرة أكثر من طعام رأس السنة الجديدة، عندما كان فريق الإنتاج يوزع الأسماك بقرينتنا، لم يكن في منزلنا زيت، وكانت أمي بعدما تضع الوعاء على النار، تضع أوراق القرع وتفرّكها لتستخدمها كزيت. في بعض الأحيان كانت تكفي فقط لنصف سمكة، ولا تكفي ليتناولها كل أفراد الأسرة، فكانت تستخدم شعرية البطاطا الحلوى لتغليف السمك ووضعه في العشب الموجود أسفل الوعاء لينضج ثم نتناوله، وبذكر ذلك الأمر تذكرت شيئاً مثيراً للاهتمام؛ في صيف إحدى السنوات غير فريق الإنتاج طريقة توزيع الأسماك، ليصبح التوزيع وفقاً للحساب في البنك لا لعدد الأفراد. هذه المرة أصبح عمي الثالث الأعزب غنياً فجأة، وأصبح لدينا الزيت والطحين. كان عمي يتجنّب الأكل مع أسرتنا، فيقوم بإعداد الطعام لنفسه ولا يأكل معنا. في تلك الليلة حرق الكثير من الحطب، واستخدم مغرفة الطعام في غرفه فنقّب بها

الوعاء ثقلاً كبيراً. وكانت النتيجة أنه أحضر قليلاً من السمك إلى بيتنا، وتناولناه في وجبة واحدة جميعاً. تناولت بقايا الطعام في المصنع السادس لغزل الصوف بمدينة ويهاي لمدة عامين كاملين، ولن أتحدث عن تلك المأكولات البحرية المقلية والمحمرة والسلوقة والمطهوه على البخار، فحتى مياه تنظيف الوعاء لا أعلم كم كانت أفضل من نظامي الغذائي السابق.

لم يعارض أحد من آلاف العمال في المصنع طريقتي في تناول بقايا الطعام في المطعم، ولم ينظر إليّ أحد بازدراء؛ بل كانوا يعاملونني بلطف: «أيها الشاب، أنت تتصرف بشكل جيد جداً، وتعمل بكل جد واجتهاد من أجل كسب المزيد من المال والعودة إلى المنزل». قمت بالأعمال الأساسية في بيت كل من رئيس مصنع الزجاج بويهاي ومصنع الصوف، وفي كل مرة كنت أذهب للعمل هناك كانوا يقدمون لي الطعام في بيوتهم، وأنا ممتن جداً لهم على ثقّتهم، كما كانوا السبب في توفير الكثير من تذاكر الطعام.

عندما كنت أتناول بقايا الطعام في المطعم أشعر بمرارة مذاقه، وكنت أعمل وأريد القليل من بقايا الطعام ومع ذلك كان هناك أشخاص يتعرضون لي، فكانت الأمور صعبة بالنسبة إليّ؛ أعتقد أنني شخص متحمس طيب القلب، فعند تناول كل وجبة أنقاسم مع زملائي الخبز والطعام؛ وكان أحد الزملاء شخصاً كسواً حينما كان في قريتنا، في كل مرة أقابله يحق بعينيه مثل عيون البقر، ويراني أوفر كل يوم المال والطعام، وكانت الغيرة والحسد تملأن قلبه، ودائماً ما كان ينتزع الأكل مني، ولم أمسكه جيداً عدة مرات فأتعرض للضرب منه، تعرضنا نحن أفراد عائلة ياو للضرب مرات كثيرة، ويمكن القول: إننا تعرضنا للإساءة داخل المنزل، والعض من الكلب خارج المنزل». أنا لم أخش الضرب؛ ولكن ما كنت أخشاه هو تمزيق «ملابسي نتيجة ذلك، فإذا تمزقت الملابس ليس معي مال لشراء ملابس جديدة.

في عامي 1991 و1992، كنت أتناول بقايا الطعام في مصنع غزل الصوف بمدينة ويهاي لمدة عامين، وأدّى ذلك دوراً كبيراً في تغيير وضع عائلة ياو. صرفت أنا وأخي أكثر من 700 تذكرة طعام؛ أي أقل من العمال الآخرين ببضع مئات. في البداية كان الأجر الذي أنقاضاه 4.2 يوانات يومياً، وبعد ذلك خلال الاجتماع أقر أربعة من مقاولي العمل أنني مخلص ونشط وعلى استعداد للعمل بجد واجتهاد، فأمر رئيس العمل لو تشانغ تشينغ بزيادة راتبي ليصبح 7 يوانات ونصف يومياً، وهكذا استطعت أنا وأخي كسب أكثر من ألفي يوان في العام الأول، و3200 يوان في العام الثاني.

واجه كارثة كبيرة ولم يمت

في ربيع عام 1992 كنت في العشرين من العمر، ومن خلال عملي في ويهاي بمقاطعة شاندونغ وكسب المال تمكنت أخيراً من نزع قبعة الفقر التي كانت تصاحب عائلة ياو الفقيرة؛ حيث وجدنا الاتجاه الصحيح؛ استطعت مقابلة رئيس العمل الذي كان على بعد آلاف الأميال من المنزل، وعند الانتهاء من العمل في نهاية العام أعدت النفود التي اقترضتها لأصحابها؛ كان بمنزلنا عدد من الغرف المبنية بالطوب اللبن، قررنا هدمها خلال هذا العام، ورفع أسقف جديدة لثلاث غرف بسيطة، وكان هذا الفعل أمراً لم يجرؤ أحد من عائلة ياو على التفكير في فعله من قبل.

في هذا العام كان مخزن تبريد جديد يوجد وراء المصنع السادس لغزل الصوف بمدينة ويهاي بمقاطعة شاندونغ، وعند حفر أساسات هذا المخزن، تعرضت للشقاء والمعاناة، كان حفر أساسات المخزن الجديد يتم بتقاسم العمل والتعاون، كل شخص مسؤول عن فترة، وبعد الحفر يمكننا أخذ قسط من الراحة؛ وكما يقول المثل: «حالمًا يرافق الإنسان سوء الحظ، لا تسير كل الأشياء على نحو سلس». كان هذا الجزء الذي حفرت له مواكبة خط الصرف الصحي. مع تصدع أنابيب الصرف الصحي وانتهاء أعمال الحفر الهندسية، وضع مدير العمل مضخة مائية صغيرة لصرف الماء ليلاً ونهاراً، وأنا كنت مشغولاً طوال الوقت، وكان جسمي كله متسخاً ومبتلاً، ومظهري يُرثى له، كان ذلك في شهر مارس تقريباً، والطقس بارد جداً، وكنت أرْتَجِف من البرد، وأكثر ما أحنّزني هو امتلاكي فقط للملابس الوحيدة التي كنت أرْتديها.

ذات مرة كان الموقع بحاجة إلى عامل صغير، فقام المشرف بتوزيع العمل وإرسالي للعمل في سطح الطابق الثاني لمخزن التبريد، وأعطى كل شخص حبلاً ودلوّاً جدياً، ليقوم بسحب الإسمنت السائل ووضعه في الدلو، كان ارتفاع مخزن التبريد المكون من طابقين يعادل ارتفاع مبنى سكني عادي من ثلاثة طوابق؛ وبعد الساعة الثانية ظهرًا بدأ العمل في الموقع منذ أقل من ساعة، وحدث أمر جعلني تقريباً أقابل ملك الموت.

كنت أقف على سطح الطابق الثاني لمخزن التبريد، وأسحب الدلو الممتلئ بالإسمنت لأعلى، وبعد مرور فترة من الوقت، بدأت أشعر بالتعب وفكرت في البحث عن مكان لأستريح بعض الوقت، فذهبت إلى مكان بارد وشاسع خلف مطعم مصنع الصوف تحت المظلة الموجودة أمام الباب الكبير لمخزن التبريد. أنا شخص بطيء الاستجابة، لم أفكر في أنها آمنة أم لا؟ وعندما صعدت فوق عصا خشبية، فجأة وطئت قدمي مكاناً فارغاً، وفقد جسمي توازنه؛ وفي لحظة سقوطي للأسفل، لم يسيطر على ذهني سوى فكرة واحدة وهي النهاية.

سقطت على الأرض لمدة عشر ثوانٍ، وبدا أمام عيني ظلام دامس لم أستطع رؤية أي شيء، وبعد مرور بضع دقائق استعدت وعيي تدريجياً، ووجدت نفسي فوق كيس الإسمنت، والذي أنقذ حياتي هو الدلو المطاطي الذي كان تحت رأسي، بعد ذلك حاولت تحريك يدي وقدمي، فكانت بخير؛ فتحت عينايا لأفريق ورأيت الناس يلتفون حولي، بعضهم عمال من الموقع وبعضهم الآخر من العاملين في مطعم مصنع الصوف؛ نهضت بمساعدة الناس المحيطين، وشعروا أنني ما زلت بخير، وكانوا ملتفين حول المطعم عدة حلقات، يمكن وصف ذلك بأنه هروب من الموت في كارثة كبيرة.

لم يؤلمني سوى الجزء الخلفي من رأسي، ولكنني كنت مذعوراً؛ ولكن تقديرًا لم يكن الأمر خطرًا، ونهضت لأواصل عملي، ظل كل العمال يتحدثون عن قوتي، قال الجميع: «إني ساذج وأحمق، وقام بعضهم بتذكيري: «عليك أن ترتاح نصف شهر وسيتم تسجيل فترة عملك شهرًا وفقًا للمعتاد». وقال الجميع: «كيف لا تستريح بضعة أيام؟ رئيس العمل غير موجود هنا». أعتقد أنه عندما سقطت من مثل ذلك المكان المرتفع، ولم يحدث لي أي ضرر هذا هو حظي السعيد خلال عمري كله، وربما لأن ملك الموت رأى عائلتي مسكينة فلم يتقبلني؛ اعتقدت أنه بعد انجلاء هذه الكارثة لا بد أن تتوالى النعم، وأن أعيش بشكل جيد، ولا أقصد العيش فقط؛ ولكن أنا أعيش مثل الناس، كان الفقر وجميع الصعوبات التي واجهت عائلة ياو هي نذير مشرق للمستقبل؛ لذلك تحملت الألم ذلك اليوم وواصلت عملي؛ في ذلك اليوم حظيت بشعبية بين العمال في الموقع والسكن، وانتشر لقب «الأحمق ياو» على الفور.

كنت أنا ثاني من لُقب بـ «الأحمق ياو» في بيتنا بعد عمي؛ عند إصلاح الأراضي عُيِّن سكرتيرًا للحزب بالمدينة القديمة بحاضرة هاوتشو بمقاطعة أنهوي ومديرًا لمحطة توزيع الحبوب الغذائية؛ شهدت فترة الستينيات نقصًا في الحبوب الغذائية؛ ولكن عمي الذي كان مدير محطة توزيع الحبوب لم يختلس فلسًا واحدًا من الدولة؛ كان الشتاء في ذلك الوقت أكثر برودة من الآن، فأحضر عمي كيس الدقيق القماشي وغسله وجففه، ليطلب من العمة حياكة زوج من الجوارب القطنية؛ ولكن بعد ذلك شعر عمي أن هذا الفعل خاطئ؛ وقبل فجر اليوم التالي ذهب لإعادة الكيس القماشي التنظيف مرة أخرى. ونتيجة لذلك أصبح عمي في قرية دا يانغ بالمدينة القديمة بأكملها «الأحمق ياو» الذي يعرفه كل الناس؛ إذا ذهبت إلى هذا المكان لتسأل عن ياو هيتشن، قد لا يعرفه أحد؛ بينما إذا قلت: هل هنا شخص يُعرف بـ «الأحمق ياو»؟ سيعرفه كل الكبار والأطفال بالمكان.

عندما تزوجت قَدَم لي عمي 70 يوانًا هدية؛ في ظهر ذلك اليوم، كنت أتناقش مع أبي في الحياة اليومية في غرفة مكتب البلدية، على الرغم من أن عمي سكرتير المنطقة؛ فإنه لم يكن متطرسًا أمام ابن أخيه؛ بل يسحب مباشرة مقعدًا صغيرًا ويجلس عليه أو يستلقي على السرير؛ في ذلك اليوم سألتني: هل التحقت بالتعليم أم لا؟ وعن نتيجة دراستي، ثم قال بكل جدية: «دا شي، نحن فقراء لا نملك المال، كل هذا يمكن تحمله؛ عائلة ياو القديمة لم تحرك من قبل إبرة واحدة أو خيطًا واحدًا للآخرين، ولم نتمكن من التخلص من السمعة السيئة، ولا نستطيع أن نسلك طريقًا غير عادي في المستقبل». في ذلك اليوم أكدت لعمي أنه حتى لو كانت الأيام القادمة أكثر مرارة، سوف تواجهها عائلتنا بابتسامة، وعلينا تخطي الأيام الحزينة بكل جدية.

انتزاع الطعام وتناوله من دون وعاء، وفعل الأشياء دون تركيز

كان فريق الإصلاح يعمل في قرية تشوفو الجنوبية بحاضرة هاوبو التابعة لمدينة ويهاي بمقاطعة شاندونغ، وذلك مشرف الأفراد الذي لم يكن للعمل لديه وقت محدد، فنعمل كل يوم من الصباح حتى يسود الظلام الدامس. كنت أنتزع الطعام وأتناوله من دون وعاء، وتذاكر الطعام كلها أستخدمها لأتناول من الطعام ما أشاء.

أعتقد أن الناس لا تجني الثمار إلا ببذل الجهد، أحلام الإنسان وتطلعاته عالية، وتطلعات الحياة في المستقبل عالية جدًا؛ في البداية اعتقدت أنني أستطيع كسب 200 يوان سنويًا وسأكون قانعًا راضيًا، وخلاف ذلك أضمن توفير طعام أكله، خلال عملي في الموقع لم أكن كسولًا قط مقارنة بالآخرين؛ لأنني أعلم أن هناك أبًا يعاني من شبه التأخر العقلي في البيت، ولا يستطيع

كسب فلس واحد، ولا يمكنه سحبي في أي وقت. لم أنفق المال مقارنة بالآخرين؛ لأن عائلتي كانت معروفة بأنها تعيش على الإعانات.

في خريف عام 1992، قامت الجمعية التعاونية للعرض والتسويق بقرية تشوفو الجنوبية التابعة لمدينة ويهاي بإدخال الأسمدة الكيماوية كريمة الرائحة، كنت أبلغ العشرين من العمر في ذلك الوقت، وكانت هذه هي أول مرة أقوم بتفريغ شاحنتين ثقيلتين محملة بالأسمدة، سألتني رئيس العمال قائلاً: «هل أنا على استعداد للعمل الإضافي ليلاً؟». لم أكن أعرف ما العمل الإضافي، وكنت أول شخص يقف ويذهب معه، وبعدما وصلت إلى غرفة الجمعية التعاونية للعرض والتسويق بقرية تشوفو الجنوبية، علمت أن العمل الإضافي هو تفريغ شاحنات الأسمدة الكيماوية كريمة الرائحة المستخدمة في الأراضي الزراعية في قريتنا. قمت أنا وثلاثة من العمال بتفريغ شاحنتين محملتين بالأسمدة، وكنت أنا الأصغر سنًا والأقصر قامة بينهم.

بدأنا نحن الأربعة في تفريغ الشاحنات، لم يتكاسل أحد منّا، وكأن نملة تدفع عشًا، يا إلهي لا أعرف كيف كان هذا العمل متعبًا جدًا، فلقد أتعبني حتى الموت بداخل مخزن الأسمدة، كنّا نرفع الأكياس على أكتافنا العارية الواحد تلو الآخر، ويمكنك أن تعرف معنى العرق من مشهدنا في ذلك الوقت، ويمكنني وصف ذلك باستخدام لهجة ويهاي «ذلك العرق كثير جدًا». تورم كتفائي وظهري واحمرّت من حمل الأسمدة، في كل مرة كان كيس الأسمدة الذي يزن 50 كيلو جرامًا يضغط على كتفي المتورم، تمتد شفتاي ألمًا وصولًا إلى أذني، وتختلط الدموع والعرق على وجهي؛ ولكن لم يرني أحد وأنا أبكي، كان كل كيس من الأسمدة يضغط عليّ وأنا أسير منحنيًا، وعندما كانت تقترب الجمعية التعاونية للعرض والتسويق عني بخطوات قليلة، أخذ نفسًا عميقًا وأسير بخطوات سريعة.

استغرقتنا ليلة كاملة في تفريغ شاحنتين من الأسمدة، تلك الرائحة الكريهة جعلتنا ننتفس بصعوبة للغاية، لم نكن عمالًا متخصصين في مصنع أسمدة، ولم نستطع ارتداء «قناع فم الخنزير» مثلما يفعل كل عامل هناك؛ تقسّخ كتفي كله في النصف الأول من الليل، وفي النصف الثاني كنت أعاني من ألم شديد؛ فعلت كل هذا حتى تتخلص عائلة ياو الفقيرة من الفقر في أقرب وقت ممكن، والأكثر هو رد الجميل لأبي الذي كان يعاني من شبه التأخر العقلي؛ ساعد أبي الآخرين في حفر أرض الربيع في الشتاء لتغيير سترتي المبطنة الخشنة، التي ارتدبتها عدة أشيّبة؛ كان أهل القرية يلقبون أبي باسم «الأحمق المسن»، كان أحمق؛ ولكنه كان يتمتع بمزايا خاصة؛ كل شتاء كانت تقسم البلدية المهام إلى حفر نهر هو إايخه ورصف الطرق؛ قوة الصعاب التي تحملها أبي أثرت في جميع أفراد البلدية؛ لذلك كنْتُ أكثر مثابرة على المضي في طريقه القديم، فهو يستحق التعب، في ذلك اليوم بعدما انتهيت من تفريغ شاحنات الأسمدة، شعرتُ بألم في جسمي أشد من ألم الضرب بالعصا.

كانت هذه المرة الأولى التي أقوم فيها بالعمل الإضافي الليلي عندما كنت عاملاً، وفي ذلك العام عند انتهاء العمل في فصل الشتاء، لم يُسجل هذا العمل الإضافي الليلي الذي نزفت من أجله دمًا في سجلات العمل؛ ربما لم يكونوا متعمدين، وفي الليلة الأخيرة من العمل، كانت نتيجة تقييم العديد من رؤساء العمل لعملي هو الرضاء عن العمل بنسبة 200%، في تلك الليلة تلقيت مالا كثيرا من رئيسي في العمل، وكانت الفرحة بقلبي لا تُوصف، وتمنيت العودة إلى المنزل في الحال، ليرى أبي هذا المال الكثير.

بالنسبة إلى أولئك الذين يحبون الكسل، أنا دائماً أردد كلمة واحدة، لا تعتقد أنك أذكى إنسان في العالم، فالإنسان الذكي الذي لا يعمل ليس ذكيًا، والسماء لا تمطر كعكًا.

العودة إلى المنزل بعد كسب المال لأول مرة

إن قيامي بالعمل الشاق في المنطقة الجبلية بجانب البحر بمدينة ويهاي، جعلني أتجرع ألمًا لم أشعر به من قبل، وتعلمت البقاء على قيد الحياة في موقع العمل من نقل الأحجار أكثر من 10 ساعات يوميًا.

السماء لا تسقط خبزًا، ولكنك تتلقى مقابل ما تفعله» هذه العبارة حقيقة كبيرة بلا شك، لم أخف من المشقة والتعب، «بالإضافة إلى الظروف المالية الصعبة، وبالمقارنة مع عام 1990، شهدت حياة أسرة ياو تغيرات ضخمة بعد ذلك، كان معي مبلغ ضخم أكثر من 2000 يوان، وخططت ما سوف أفعله، فنويت أن أهدم الغرف المبنية من الطوب اللبني وبناء غرف جديدة بالمنزل. عندما عدت من ويهاي، كانت أول جملة قالها لي أبي وعمي هي: «ابننا المطيع، هل هذا هو دا شي؟ لم نرك هذا العام طويل القامة وسمينًا هكذا؟». وعندما ذهبت في الشهر الأول عام 1991 كانت المسافة بين قمة رأسي والجزء

العلوي من الباب قبضة يد؛ ولكن هذه المرة كنت أخفض رأسي حتى أتمكن من الدخول، أحضرت لأبي وعمي بعض المنتجات المحلية الخاصة، وأعطيتهما الرقم الفلكي الذي كسبته، ورأى أبي أن ابنه دا شي أصبح يتمتع بالقدرة على العمل، لا أعرف كم كان سعيدًا.

دائمًا ما أعتقد أن الإنسان لن يتذوق حلاوة الدنيا إلا بعد تجرع مرارها، عندما كنت عاملاً صغيراً في موقع ويهاي، كان مصروف الجيب في بعض الأحيان 10 يوانات شهرياً، وأحياناً 15 يواناً، وهذه النقود لم تكن كافية بالنسبة إلى الآخرين، وكنت أنا فقط من يدخر ماله، ومن يحتاج إلى المال يأتي لأقرضه بعض المال، وكنت أضع المدخرات في الاتحاد الائتماني عند العم تسونغ بي سونغ. خلال كل استراحة غداء كنت أذهب لالتقاط بعض النفايات من مكب القمامة بالمصنع لبيعها، وأقوم بتجميع نفايات مصنع الصوف ومصنع الزجاج وترسانة بناء السفن إلى أن تتراكم قليلاً قليلاً، فكان لدي أسلاك حديدية ونحاسية بطول بوصة، وواحد أو اثنان من قطع الحديد الثقيل، ثم أخذ النفايات التي جمعتها وأذهب لبيعها في محطة اقتناء النفايات بحاضرة هاوبو التي تبعد 5 كيلو مترات عن المسكن، وفي كل مرة كنت أبيع بعشرة أو ثمانية يوانات، وكان ذلك دخلاً إضافيًا.

دائمًا ما أتعلم على بذل المزيد من الجهد لكسب المال، ولم أنتهز الفرصة لإشعال البخور من وراء العائلة لعبادة بوذا قط؛ في هذين العامين خلال عملي بالمصنع السادس لغزل الصوف بمدينة ويهاي، لم أتعلم تسلق الجدران والذهاب إلى البحر لسرقة الطحلب الأسمر مثلما كان الآخرون يفعلون، والذهاب مستترًا إلى منزل العائلة وأخذ الأحذية القديمة زوجًا زوجًا، ثم الاتجاه إلى قارب الصيد لسرقة هذا وتلك. في كل مرة بعد الانتهاء من العمل في الموقع، تكون تلك الحزم الكبيرة فارغة، لم أغبطهم قط، فإذا لم تكن الأشياء التي أحصل عليها هي مقابل عملي وجهدي، لن يكون للطعام مذاق، ولا للأشياء التي أستخدمها فائدة.

في كل مرة أعود إلى المنزل عندما كنت أعمل في ويهاي، أحضر بعض الأشياء مثل الفول السوداني والتفاح والشمام ومسجل الصوت، كل هذا من مساعدة الآخرين في العمل، وعندما كان الآخرون يرونني أعمل بكل جد وصدق يمنحونني هذه الأشياء، وعندما يرى أبي وعمي تلك الأشياء اللذيذة، والمال الكثير الذي كسبته، تغمرهما السعادة وتملأ وجوهيهما من الأذن للأذن، ويقول أبي لكل من يراه في القرية: "ابني الثاني دا شي حقق المجد لأسرة ياو". كما كان كبار السن في القرية يقولون: "كم سيكون جيدًا إذا كانت والدته دا شي على قيد الحياة".

في شتاء عام 1992، خرجت أنا وأخي الكبير للعمل واستطعنا كسب 2620 يواناً، وعلى الرغم من أن هذه النقود لا تعني شيئاً في عيون الآخرين؛ فإنه كان رقمًا فلكيًا بالنسبة إلى عائلة ياو، لم ير أبي وعمي مثل هذا المال الكثير من قبل، منذ ذلك العام بدأ حظ أسرتنا يتغير قليلاً قليلاً، وأصدر فريق الإصلاح بقرية تشوفو الجنوبية في مدينة ويهاي بمقاطعة شانغونغ هذا العام ثلاث شهادات ومكافأة قدرها 75 يواناً لكل فرد، وكنت واحدًا ممن حصل على مكافأة؛ كانت الـ 75 يواناً بالنسبة إليّ غير مألوفة، ولن تنفق أسرة ياو هذا المبلغ الكبير في عام، وفي ذلك العام اشترت حذاءً جلدًا بقيمة 20 يواناً.

كان الشباب وكبار السن في القرية يهتفون لي، وكنت سعيدًا لأننا بدأنا نحيا حياة أفضل، وأنفقت عشرات اليوانات ليشاهد أهل القرية فيلمًا، وقبل كل شيء شكرت الأخ ياو تشي بين الذي أقرضني 50 يواناً، فمن دون هذه النقود التي دفعتها لتكاليف السفر، لما تمكنت من تحقيق النتائج الحالية، وطرد الحظ السيئ الذي رافق عدة أجيال من عائلة ياو، واخترت عمداً فيلم "أمي فقط هي الأفضل في العالم"، لإحياء ذكرى أمي الرحلة.

بعد ظهر ذلك اليوم كان الطقس مشمسًا، ولم أتوقع أن السماء ستطر في المساء، صاح السيد فانغ بينغ في الميكروفون يريد أن يقرضه المالك مظلة، لم أكن بارعًا في طلب المساعدة من الناس، بينما ألح السيد فانغ بينغ إلحاحًا شديدًا، أما أنا ذهبت مهوولاً إلى متجر تشي هوي بالقرية، وقلت لمن كان بالمتجر مبتسمًا: "أخي أريد أن أقترض منك مظلة لبعض الوقت". فقال لي: "مظلة؟". عندما سمعته يقول ذلك شعرت بالسعادة الغامرة، واعتقدت أنه سوف يعيرني واحدة، فحركت رأسي سريعًا بالإيجاب: "نعم، أريد أن أقترض مظلة واحدة". ولكن كانت جملته الثانية بلهجة مختلفة: "لا تقل مظلة واحدة؛ بل قل عشرة أو عشرين: لن أقرضك". فهمت على الفور، فحتى لو خرجت للعمل، لا أزال في أعين الناس شخصًا متسولاً مثلما كنت من قبل، ولكنني لم أغضب من كلامه؛ لأن هذا الأمر جعلني أشعر بشدة أن عائلة ياو بحاجة إلى الاعتماد على الجهود الخاصة للتخلص من الصورة السابقة التي يراها الناس. أتوجه بخالص الشكر له ولآخرين كثيرين على توبيخي؛ لأن هذا يحفزني لمواصلة العمل بجد والتقدم للأمام.

بناء منزل جديد

عند بناء المنزل طلب المعلم واقونغ من أبي الذهاب لاقتراض شيء ما، فلم يقرضه أحد؛ لأنهم كانوا يخشون أن تسيء عائلتي استخدامه ولا يمكنها تحمل ثمنه، وقف المعلم واقونغ بالخارج منتظراً أن يحضر أبي الأداة المستخدمة التي لم تكن ببيتنا ولم يستطع أبي اقتراضها من الآخرين، فكان الأمر صعباً للغاية؛ ولكن ما فعله هو البكاء بصوت عالٍ، وهذا ألحق بعائلتي سمعة سيئة.

مع حصولي على المال فكرت في بناء منزل جديد؛ في شتاء عام 1991، ذات يوم كنت أتناول الغداء، وأحمل معي النقود التي كسبتها من عرقي، واقتضت دراجة، وتنفقت بين عدة أفران طوب صغيرة، عندما ركبت الدراجة تذكرت أفراح الحياة وأحزانها عند تعلم ركوب الدراجة أول مرة.

كان ابن أخي ياو شينغ بانغ يعمل بتجارة كبيرة، وفي كل مرة كان يقطع عشرات الأميال ليحصل على الزنجبيل، في بعض الأحيان كنت أنتهز أن يوم الأحد إجازة وأذهب لمساعدته، مقابل أن يعطيني يوانين في اليوم، وكان اليوانان في ذلك الوقت بكفيان لشراء الملح لأسرتي لمدة أربعة أشهر، وبعد الانتهاء من تناول الغداء استغل فترة استراحتي وأدفع دراجته على الطريق وأجلس فوق الدراجة، وكانت قدمي اليسرى تنزلق على الأرض ارتفاعاً وانخفاضاً، والقدم اليمنى تتدلى ومن وقت لآخر تلامس الأرض خوفاً من أن أسقط، كانت هذه هي المرة الأولى لتعلم ركوب الدراجة، والمرة الثانية كانت عندما ذهبت مع أبي إلى منزل الأب الأكبر لزيارة أقاربه في البلدة الشمالية، ومكثت في منزله بضعة أيام، كنتُ أستيقظ مبكراً كل صباح، ودفعت بمفردي دراجة المسيرات الطويلة القديمة التي كان الأب الأكبر يمتلكها إلى مكان شاغر للتدرب على ركوبها؛ وفي المرة الثالثة لتعلم ركوب الدراجة كدت أخسر حياتي. في ذلك الوقت كان موسم الزراعة في الخريف، انتهزت فرصة وجود دراجة الأخ دونغ يوان واقترضتها في الحال، وركبتها في طريق صغير بمنطقة أوتانغ القديمة في الشرق، ولم يكن في هذه الدراجة القديمة فرامل، ودواسة القدم ليس بها سوى عصا صغيرة عارية، فخشيت أن يراني الآخرون غيباً، ودفعت هذه الدراجة العتيقة إلى غابة صغيرة ليس بها أحد؛ دفعتها مثلما أريد ولم يرني أحد على كل حال، وكنت أنزلق إلى الأمام، ودون انتباه كدت أسقط لولا وجود شجرة التون الصينية المنحنية، ولم يكن هذا خطراً، في ذلك الوقت دخلت دواسة القدم العارية بين أصابع قدمي، فشعرت بالألم الشديد على الفور، وكنت تقريباً أختنق من الألم، وعندما رأيت ثقباً دموياً كبيراً في أصابع قدمي، لم أجد على النظر إلى الأسفل مرة أخرى؛ في ذلك اليوم نزفت على الأقل نصف وعاء من الدم، وشعرت بالألم مثل برامع الفاصوليا بداخل برميل على النار، ولم أستطع أن أصلب ظهري، ولا أن أخطو خطوة؛ هذه هي المرة الثالثة التي ركبت فيها دراجة.

في ذلك اليوم تجولت حول عدة أفران، وفي النهاية ساعدني عمي، سألت على أسعار الطوب في مصنع الطوب تشانغ تشاي بالزاوية الشمالية الشرقية؛ ومشيت مع عمي 6 أميال لنسأل عن سعر الخيزران المستخدم في المنازل؛ وفي اليوم الثالث سحبنا عربتين بعجلات، وبدأنا في نقل المواد من تشو تشوانغ بالزاوية الجنوبية الشرقية في قريتنا إلى المنزل، ووصلنا في منتصف الليل؛ نقلت أنا وأبي وعمي 15 رافدة خشبية بالعربتين سيراً على الأقدام مسافة تبلغ أكثر من 30 ميلاً، اشتريناها من سوق ما تشاي، أما مواد البناء الصغيرة التي استخدمناها في بناء المنزل نقلناها بأيدينا شيئاً فشيئاً.

بعد انتهاء عيد الربيع عام 1992، أرسل إلينا رئيس العمل لو تشانغ تشينغ تلغرافاً عاجلاً يدعونا إلى أن نعود إلى الموقع بسرعة، وفي هذا الوقت كنت أموت قلقاً، فأنا لم أقم ببناء المنزل بعد، فكرت في أن أرسل أخي الكبير مع عمال القرية، وأبقى أنا لأقوم ببنائه، ولكن قال لنا عمي: «عليكما الذهاب، ولا تهتما بشأن بناء المنزل، ولا تشغلا ذهنكما بهذا الأمر، واجتهدا في عملكما، وفي نهاية العام القادم يمكنكما بناء ثلاث غرف لنا».

في اليوم الثاني والعشرين من الشهر الأول في التقويم القمري، كانت الناس تجتمع في معبد مسقط الرأس لمشاهدة الغناء الدرامي، وبعد الغداء وصلنا 20 شخصاً إلى مدخل القرية منتظرين أمام الحافلة المخصصة للعمال المهاجرين، بالإضافة إليّ أنا وأخي، كان الآخرون برفقة أقاربهم يودعونهم، وهذا ينصح أحدهم قائلاً: "عليك أن تأكل كثيراً ولا تجع نفسك"، وذلك ينصح آخر: "لا تدخر المال وتهمل صحتك، عليك الاهتمام بصحتك أكثر". أما أبي لا نعرف أين هو؟ فقد ذهب في الصباح للاستماع إلى الغناء الدرامي.

شعرت أنا وأخي بالطمأنينة؛ بسبب اهتمام عمي ورعايته، وأخذتُ أفكر ملياً: «عليَّ أن أتحمل المشقة فترة حتى لا أتحمّلها طوال العمر، فما دام أنك تحظى بعقل سوف يفتح لك المستقبل أبوابه»، لم أهتم بشأن المنزل على أي حال، وبُنيت أربعة منازل من خمسة وسكنت عدة سنوات، ولم يتبق سوى منزلنا الفقير البائس، اختار الرجلان المسنان يوماً محظوظاً وهو اليوم الثاني من الشهر القمري الثاني لبناء المنزل.

في كل مرة أكتب خطاباً لأحد لا أعرف كيف أكتب علامات الترقيم، في ذلك الوقت لم توجد درجات بالموقع، وفي كل مرة أريد إرسال خطاب إلى المنزل عليّ أن أقطع مسافة 5 أميال للذهاب إلى مكتب بريد حاضرة هاو، وكنت أرسل الخطاب لأخي الكبير المتعلم ياو تشي دي، ليقرأ محتواه على مسامع الشخصين المسنين في المنزل.

عندما بدأت عائلتنا في العمل، حدث شيء صعب غير متوقع، ذهبت العائلات الأربع الأخرى ناحية الجنوب على التوالي، وكانوا يعيشون حياة مريحة، وانتظروا عندما كانت عائلتي تبني المنزل، رفضوا إخلاء أرض المسكن تماماً لنستخدمها، وأخذوا يشكون أن عائلتنا العزب أفقدوهم ماء وجوههم، تملك الحزن عمي الثالث الأعزب وأبي المعاق حتى سالت دموعهما، وعجز الرجلان المسنان عن التعبير بصراحة للآخرين، وكانا يركضان هنا وهناك ويلتقيان الناس، وإذا تحدثنا عن التشاجر، كانوا بقيضة يد واحدة يستطيعون دفع أبي من الجدار الجنوبي إلى الجدار الشمالي، شخص يضرب واثنان لديهما وقت لتدخين السجائر، وعند مقارنة الظروف الاقتصادية، كان المال الذي أكسبه من عملي لا يُقارن بشعرة في جسدهم، وقد ازدادت العائلات الأربع في إحراج وإرباك أبي وعمي، ودفعهما للبقاء المرير في الشهر الأول في التقويم القمري. ولم يتركوا لنا سوى طريقة واحدة، وهي التخلي عن هذا البيت القديم؛ لم يكن هناك حل آخر، فاضطر الرجلان المسنان إلى استخدام عربتين لنقل 17 ألف قطعة من الطوب إلى مكان بجنوب شرق القرية لا تبرز فيه الطيور ولا تضع فيه الدجاج البيض؛ هذا المنزل غير مسموح به، وذاك المنزل كذلك، لذلك بسببهم انتقلت أسرنا في هذا المكان.

في منتصف الشهر الثاني في التقويم القمري عام 1992، قام الرجلان المسنان الموجودان بمسقط الرأس ببناء شقة في منزلنا، كان هذا المنزل أقصر من منازل الآخرين، فكان مكوناً من طابقين من الطوب، بينما كانت منازل الآخرين من ثلاثة طوابق؛ كما يوجد على سفح منازلهم 13 قرميداً، بينما يوجد على سفح منزلنا 12 قرميداً فقط؛ في الصيف تتساقط الأمطار الغزيرة، وتنسلل إلى داخل منزلنا، كل هذا بسبب افتقارنا إلى المال، كان الآخرون يجدون من يساعدهم على بناء منازلهم؛ ولكن قريبنا الوحيد وهو العم الكبير جلب عددًا من الخيزران كمجاملة، بينما قدّم عمي رافدة خشبية، كان عبء بناء المنزل على عاتق عمي بشكل كامل، واعتمدت عليه في العمل في الداخل والخارج.

في شتاء ذلك العام انتهيت من العمل، قال لي أبي ذو الظهر الأحدب كالجبل الذي يعاني من شبه التأخر العقلي: «عاد دا تشي، لا تعلم كم كان صعباً بناء هذه الغرف الثلاث». وقال عمي عند بناء هذه الغرف، كان كثير من الناس ينادون أبليك بلقبه قائلين: «أيها الأحمق المسن، بنيت هذا المنزل ولا أحد يسكنه». سمعت الرجلين المسنين يقولان هذا الكلام، حينها اتجهت نحو أبي وارتيمت في حضنه، لم يكن الأمر سهلاً على أبي وعمي.

الزواج والتخلص من حياة العزوبية

في نهاية الشهر الرابع في التقويم القمري عام 1993، كانت هناك سقيفة بسيطة يبلغ طولها مترين بأعلى نقطة بجبل تا بمدينة ويهاي بشاندونغ؛ حيث كنت أعيش، في ذلك العام كنت أبلغ من العمر 21 عاماً، وأرتدي الحذاء الذي صنعه لي أقرب الناس، هذا الحذاء كان أعلى من الأحذية ذات العلامات التجارية التي تُصنع بمصنع القرد الذهبي للأحذية الجلدية الذي يقع في شمال موقع العمل، منحني هذا الحذاء الدفء، ولم أستطع الاستغناء عنه.

كانت ويهاي في ذلك الوقت تنتفتح زهور ربيعها، ويهب نسيمه الدافئ، أستخدم تعبير الصياني، رسالة حب كاملة لأكتب عن الدفء والحب بعد الزواج وتكوين الأسرة، في صباح ذلك اليوم كنت مشغولاً في عملي بالموقع بجبل تا بمدينة ويهاي، وكان يهب نسيم الربيع العليل الدافئ من أنهوي مسقط الرأس في الجنوب؛ أحضر لي أحد الجيران زوجاً من الأحذية القماشية متعددة الطبقات المصنوعة يدوياً؛ هذا الحذاء صنعه لي زوجتي لي رونغ بنفسها، وكلفت جارنا بإحضاره؛ شعر قلبي حينها بدفء لا يُوصف؛ وفي تلك الأيام غمرتني السعادة، وكان يرافقني مزاج حماسي كل يوم، وتصاحبني ابتسامة حمقاء وأنا أعمل.

في اليوم الخامس من الشهر العاشر في التقويم القمري عام 1993 احتفلت بزفافي، وكان يوم تحقيق حلمي؛ بل الأكثر هو يوم تحقيق رغبة أُمِّي المتوفاة؛ أتذكر أُمِّي وهي على سرير الموت توسلت إلى الجميع قائلة: «افعلوا خيرًا وابحثوا لدا شيء عن زوجة». في يوم زفافي يصعب وصف الحماسة الشديدة بقلبي، الفرح يجلب فرحًا، لم أنس الحب الذي منحني أبي وعمي إياه، حتى لو كنت لا أردي ملابس جديدة عليّ أن أشتري لهما ملابس جديدة، للترحيب بالمناسبات السعيدة في أسرة يابو كانت عائلة زوجتي تقول: «كيف لا يرتدي دا شيء أي ملابس جديدة، وفي كل مرة نراه لا يرتدي سوى ثوب أحمر؟». لم يكن لدي بديل، ألم تكن أسرتنا فقيرة لا تمتلك شيئًا؟ وإلا من يمتلك مالا ولا ينفقه؟ وعلى أي حال هل يسمح لي أهلها بالزواج من ابنتهم؟ أم لن تستطيع عائلة يابو إشعال البخور؟ أقول بكل صدق إن زوجتي امرأة حنونة طيبة القلب، تزوجتني وهي تعلم أن أسرتنا المكونة من أربعة أفراد تحيا حياة بائسة.

في نهاية كل عام تعود كل فتاة إلى أهلها ومعها خطيبها، وكان أفراد أسرتنا الأربعة العُزب يحسدونهم؛ وفي كل مرة نرى حفل زفاف يُقام في القرى المحيطة، ونشاهد العزف على آلة النفخ، والبندقية ذات العيون الثلاثة، وآلة الصنح المزوجة، والكثير من الأقارب ملتقون حولهم، وصوت ضجيج الألعاب النارية وقرع الطبول، كنت أتساءل متى سيأتي اليوم الذي تشهد فيه عائلتي العُزب مثل هذا الحدث؟

كان الشهر العاشر في التقويم القمري عام 1993 من أفضل الأيام التي تحقق فيها حلم عائلة يابو؛ في العام الماضي قامت عائلتنا ببناء منزل، وهذا العام تزوجت، وكانت هذه بالنسبة إلى أسرتنا بداية أحداث سعيدة تتوالى الواحد بعد الآخر؛ قبل الزواج لم يكن في منزلنا الكثير من المال، وعند تجهيز لوازم الزفاف اشتريت سريرًا كبيرًا، ومن أجل توفير 5 يوانات، سحبت العربية لقطع مسافة أكثر من 30 ميلًا سيرًا على الأقدام إلى شمال ماتشاي؛ ذهبت أنا وعمي إلى سوق أوومياو لشراء ماكينة خياطة، وحتى أوفر 10 يوانات، اشتريت ماكينة أحد أرجلها ماركة الرجل الطائر والأخرى ماركة الفراشة، وهذا الأمر لم تُنسه زوجتي حتى الآن.

عمي هو الذي ساعدني في اختيار يوم زفافي، وكان يومًا ممطرًا؛ لم أستطع استئجار من يعزف على آلة النفخ، واستعرت من جاري مسجل صوت، وسحبت سلك إضاءة من منزله؛ أما المفرفعات التي اشتراها عمي قد ابتلت بفعل المطر، واشتري سلة من البامبو قديمة؛ ترك هذا الزفاف ذكريات هي الأكثر دفئًا، وقد حضر معلمي وعدد من زملائي حفل الزفاف.

بعد الخامسة مساءً، بدأ الظلام يسود تدريجيًا، وتفرق الناس الموجودون في حفل الزفاف، ولم يَبْقَ سوى الناس المتحمسين للمساعدة لتنظيف الطاولات والكراسي، سألت زوجتي: "لماذا لم يغادر ذلك الرجل المسن؟". فقالت زوجة جارنا: "أليس هذا والدك المسن؟". واصلت الكلام قائلاً: "نحن وذلك المسن عائلة واحدة". في تلك الليلة، نظرتُ زوجتي إلى المنازل بالجانبين الشرقي والغربي، وسألتني: "ماذا يوجد في منزلكم؟" حتى أكون صادقًا، في ذلك الوقت لم يكن بمنزلنا سوى سلة من أغصان نبات الإرث بها مغرفة واحدة من الحبوب الغذائية، أقرضها لنا جيراننا بالفناء الغربي لعدم وجود مكان في منزلهم؛ عندما تحدثت لم أخش سخرية واستهزاء الناس، في ذلك الوقت كان في المنزل شيان مقبولان، كنّا لا نزال في فترة "القفرة الكبرى إلى الأمام" عام 1958، ووصل "الإصلاح الزراعي" إلى البلدة الشمالية، لم أستطع سحب كرسيين من الكراسي الخشبية ذات اللون الأحمر الأرجواني وصندوق الملابس الخشبي البرونز القديم فتركتهما في المنزل.

في صباح اليوم التالي من وصول زوجتي منزل يابو، وجهتُ لي كلامًا لمس قلبي، فقالت: "إذا لم تكن عائلتك فقيرة لم آتِ إلى هذا المنزل على الإطلاق؟". في الحقيقة كانت زوجتي تعلم بوضع عائلتي منذ فترة طويلة.

أول مرة جاءت زوجتي إلى قريتنا، مرت من أمام منزلنا المكون من عدة غرف متصدة، لم أجرو على إخبارها أن هذا منزلي، طلبت زوجتي من الخاطبة أن تدلها على منزلي عدة مرات، فقالت لها الخاطبة: "ترين ماذا؟ بيتهم ليس به أي شيء، في الفناء الخلفي يعيش الرجل المسن، وهو مكون من منزلين من المنازل المتصدة". إذا لم تتقبل زوجتي الظروف القاسية التي مرت بها عائلتي، لما اغتربت العائلة في سبيل العيش وتحملت العمل الشاق في بكين بعد ذلك.

كانت الفاكهة التي تناولتها زوجتي عندما جاءت إلى قريتنا لأول مرة، هي التفاح الذي اشتريته من سوق أوومياو، في ذلك اليوم اشتريت 7 تقاحات، وصنع البائع في كل تقاحة فتحة باستخدام السكين؛ وفي مأدبة الزفاف تبقى في النهاية أذن خنزير، فقلت لها: "فلننظر احتفال العام الجديد لتأتي عائلتك لتناول الطعام والشراب". وبالتأكيد فسدت أذن الخنزير قبل قدوم العام

الجديد، ولم يكن في وسعي سوى رميها؛ ترك هذا الحادث أثرًا عميقًا في ذاكرة زوجتي، وحتى اليوم، دائمًا ما نتحدث عن هذا الأمر عند تناول الطعام.

الإصرار على تحقيق المجد والتقدم أفضل من الغضب

فقد بعض الناس الثقة في أنفسهم بسبب أشياء تافهة، وبعضهم يتقدم في العمر ويدق على صدره بيديه ويضرب الأرض بقدميه حيث لا يراه أحد: لماذا لم أعمل بجد واجتهاد عندما كنت صغيرًا. إن الشكوى لا طائل منها، وأعتقد أن الإنسان لا يتذوق حلاوة الدنيا إلا بتجرع مرارتها، وإن الإصرار على تحقيق المجد والتقدم أفضل من الغضب والتحسر.

قبل عام 1993، كانت عائلة يارو كل عام جديد تدعو خصوصًا العمة وزوجة أخي لظهو 5 أو 6 كعكات على البخار لتقديمها لأبناء العم في القرية الغربية، وكانت أكثر مرة عندما قمنا بطهو 10 كعكات، في الشهر التاسع في التقويم القمري عام 1993، عدت من ويهاي ووفرت عائلتنا حصة شخصين من الحبوب، وكان الغداء يكفي لتناوله، في ذلك الوقت فكرت في أن الاعتماد على الذات أفضل من طلب المساعدة من الآخرين، وشرمت عن ساعدي بسعادة وقمت بطهو الكعك على البخار مع الشعرية. وكانت هذه أول مرة أطهو كعكًا على البخار، ولم أفرش طبقات المبخرة على الحامل بداخل الوعاء؛ أنا لست ماهرًا في الطهو على البخار؛ لذا كانت الشعرية طرية جدًا، واستخدمت يدي في صنع مجموعة ووضعها بداخل الوعاء، وانشغلت فترة طويلة في وضع غطاء الوعاء أخيرًا، وانتظرت حتى تتضج؛ بعد مرور ساعة، فتحت الغطاء لأراها، كيف اختفى الكعك؟ فأخذت عودين من عيدان الطعام وأخرجت الحامل الذي كان متصلًا بالوعاء، ونظرت إلى أسفل الحامل، وجدت عددًا لا يحصى من الكعك مثل المصابيح عالقة أسفل حامل الكعك؛ أخذ أبي الكعك الذي طهوته وذهب إلى مكان به كثير من الناس خارج المنزل، وسرعان ما قفزت خطوتين وذهبت لأعيده إلى المنزل. قلت له: «لا تذهب هناك، إذا علم الآخرون أنني أطهو الكعك على البخار سوف تصل ضحكاتهم إلى أذانهم».

كانت زوجتي امرأة تستطيع القيام بأي شيء، حياكة الملابس وصناعة الأحذية، ليس هناك شيء يصعب التغلب عليه، حتى تلك الأرض الزراعية التي تبلغ مساحتها 3 ماو 4 و 8 فئات 5 و 4 لي 6 هي التي تقوم بزراعتها، وفقًا للكلمات أمي التي كانت تفكر وتهتم بكل شيء، يجب أن يقوم أبي بالعمل في هذه الأرض الزراعية، بينما تقوم أمي بنزع الشتلات، ولكن في ذلك الوقت كان العمل في الأرض الزراعية تقوم به الزوجة وحدها، في صيف عام 1994، كانت زوجتي حاملًا في ابني الكبير، ومر سبعة أشهر، وفي ظهر أحد الأيام كانت تعمل في الأرض تحت الشمس الحارقة، وجسمها كله يتألم، ثم عادت لتطهو الطعام بدموعها. في كل مرة تُرفع الشتلات تنتقل زوجتي للجلوس على المقعد الصغير الذي أحضره عمي الثالث وتواصل العمل. كان العمل في الأرض الزراعية تقوم به الزوجة تحت الشمس الحارقة وتنتقل المقعد الصغير قدمًا نحو الأخرى للأمام لإنهاء العمل.

كان أبي يقوم بعمل فذر طوال حياته في القرية، فكان ينتقي الروث وينقله، وذات مرة، قامت إحدى السيدات في القرية بنقع القنب، وكانت تعلم أن هذا القنب المتهرئ حامض وكرهه الرائحة، وهذا العمل يحتاج إلى البحث عن شخص آخر، ببساطة مسح الجبر من على فمه ولم يقل أي شيء، لم توافق زوجتي أن يذهب الأب للقيام بهذا العمل؛ في صباح أحد الأيام، حاولت الزوجة أن تجد وقتًا للذهاب إلى السوق لشراء بعض الملح، وعندما وصلت إلى الطريق بشرق القرية، سمعت شخصًا يصيح خلفها: «أيتها الزوجة توقفي، والدك الأحق طلب مني أن أقول لك شيئًا». كانت العمة تركض لتلحق بزوجتي، وقالت: «إنني أنقع في بيتي بعض القنب، وطلبت من والدك أن يأتي لمساعدتي في فرزها». إذا لم يكن أبي أحق لقال مثل هذا الكلام؟ هذا الأمر جعل زوجتي لم تتناقش بشكل جيد.

كان أبي يتكاسل عن القيام بالأعمال داخل البيت، بينما كان مجددًا في العمل بالخارج، فالقيام بأعمال الآخرين لم يكن متعبًا بالنسبة إليه. لم يقم أبي بأعماله في المنزل؛ بل كان يساعد الجيران في الفناء الخلفي في تقشير الثوم يوميًا، لم يكن بارعًا في فعل الأشياء، وكان يساعد الجيران في الفناء الخلفي في إعداد علب كبيرة مملئة بحبات الثوم وهو عاري الساقين حافي القدمين كل يوم. وبعد فترة طويلة تحولت عيناه إلى اللون الأحمر وأصيب بمرض التهاب الملتحمة! وعندما كانت ترى زوجتي أبي صادقًا تعرف أنه يعمل لدى الآخرين بحماقة، وكانت قلقة من أن تتلوث عيناه بسبب الثوم، وأرادت أن تتاديه ليعود. فخشت ألا يسمعه أبي إذا همست إليه بصوت منخفض، فاقتربت إليه لتتاديه: «أبي، عليك أن تعود بسرعة، للقيام بأعمال المنزل وتربيته». عليك أن تتخيل إلى أي درجة وصلت حماقة أبي، حدثت عين أبي إليها وصاح بصوت عالٍ قائلاً: «ما الأعمال التي تحتاجين إلى القيام بها في منزلنا؟». خيرًا تفعل، شرًا تلقى، فكادت زوجتي تستشيط غضبًا بسببه.

خلال عامين من زواجي، لم يكن في منزلنا طعام، وزرعنا عدة مرات، ولم ير أحد ذلك؛ ولكنه كان لا يكفي ليسرقه لصٌ ويمضي، كانت ظروف عائلة زوجتي أفضل من ظروفنا، في كل مرة تعود إلى بيت أهلها تحضر عددًا من بيض البط المملح؛ وكانت تسلق كل مرة بيضتين واحدة لأبي والأخرى لها؛ عليك أن تتخيل كيف يأكل أبي هذه البيضة؟ يفتح فمه وابتلع بيضة البط المملحة مرة واحدة، ويغلق عينيه ثم يحدق في الرجل المسن، في كل مرة يأكل أبي شيئًا نادرًا يكون بهذه الطريقة؛ وكما يقول المثل: «الأشياء الجيدة تبقى في الداخل، والأشياء السيئة تذهب وتنتشر بعيدًا». سرعان ما انتشرت الطريقة التي ابتدعها أبي لتناول بيض البط المملح في جميع أنحاء القرية، لتصبح موضوعًا آخر للسخرية.

كانت زوجتي ذكية بارعة، اشترت من السوق بضعة أمتار من القماش، لتصنع لأبي قميصين وسروالين، وهذه الملابس لم يرتدها أبي قبل سن 58 عامًا؛ رأى أبي زوجتي تعطيه الملابس التي صنعتها بنفسها، وكانت جميلة فأخذها ليرتديها في غرفته الصغيرة، وبينما كان يرتدي الملابس قال لنفسه: «مريحة جدًا». وكلام من هذا القبيل؛ وضحك ضحكة بلهاء، ولم يفكر في أن يرتدي الملابس الجديدة ويذهب للتنزه وسط الناس.

عندما كان أبي شابًا، تعرض لسخرية ليست قليلة من أحد الجيران؛ كان هذا الجار يسكن في شرق بيتنا، وكل مرة كانت ابنة الجيران تعود إلى بيت أهلها لزيارتهم، وتحضر له أشياء جيدة، ثم يأتي إلى أبي ليعرضها أمامه ويقول: هذه سترة صنعتها لي ابنتي، وهذه علبة سجائر اشترتها لي بأكثر من 6 يوانات، كما أرسلت لي بضعة كيلو جرامات من الشعرية النشوية؛ وذات مرة عادت ابنته فارغة اليدين ولم تحضر شيئًا، فكان وجهه مكفهرًا. ذهبت ابنته إلى الخارج لغسل يديها، فقال لها: «ظننت أنك خرجت لإحضار الحقيبة». كنت أنادي ابنته بالأخت، وفي ظهر ذلك اليوم لم تَطُء الأخت طعامًا، ولم يكن هناك طعام لتناوله، بكت بكاءً شديدًا، وفمها يتمتم: «أعتذر إليك، لم أعطك وعاء البراز لتقرزه ولم أطلب منك أن تقوم بأعمال الأرض، وهذه المرة لم أعطك شيئًا، فلم تنظر إليّ». كان هذا الجار عندما تحسن حياته، يلقي التحية بصوت عالٍ وهو يسعل أمام بيتي، وللتذكير: كل يوم يتناول بيضة البط المالحة، ويستخدم إصبع الإبهام والسبابة لرفع البيضة المطهوه لأعلى. في الشتاء كان يرتدي السترة التي صنعتها ابنته له، وعندما يرى أبي يرفع قطعة من السترة التي يرتديها ويقول: «أيها الأحقق المسن، انظر إلى السترة التي ارتديها؛ تقولون جميعًا: إنني أشعر بالبرد في أيام الشتاء الباردة، كيف سأشعر بالبرد الآن وأنا ارتدي هذه السترة؟».

سعادة صعبة المنال

كان عام 1995 عامًا سعيدًا، فكانت المرة الأولى التي نجتمع فيها معًا لتناول الطعام؛ في عيد الربيع، اشترينا أواني ومقالي جديدة، وهدمنا الموقد القديم، وقمنا ببناء آخر جديد؛ وقمت بت تركيب البلاط الذي أرسله رئيس العمل بموقع ويهاى؛ بذلت عائلة ياو جهودًا متضافرة للمضي نحو تحقيق حياة سعيدة.

في صيف عام 1995، احتضنت زوجتي ابني الكبير الذي لم يبلغ من العمر عامًا، واستعدت للذهاب إلى الحقول بشرق المنزل لترى كيف نبتت المحاصيل؟ عندما رأت العمه ابني الكبير، صاحت بسرعة: «انظروا انظروا إلى حفيد ياو روداو كم يبدو جميلًا».

وبذكر ذلك أتذكر في عام 1980 كانت قرية شويينغ الكبيرة بحاجة إلى حارس كل ليلة، وبطبيعة الحال لم يفوت أهل القرية هذه الفرصة للمزاح مع أبي؛ في منتصف ليلة باردة، نادنتني زوجة أخ في الجهة الغربية من القرية باسم والدي قائلة: «ياو روداو، ياو روداو! هناك عدد من الحراس عطشانين، ومنزلك هو الأقرب إليهم، هل يمكنك أن تذهب إلى منزلك وتحضر لهم بعض الماء الساخن؟». قال أبي: «لا يوجد حطب في المنزل لطهو الطعام، ماذا أفعل؟». فقالت زوجة الأخ: «عد إلى المنزل وأحضر سلة، يمكنك التقاط سلة حطب لطهو الطعام من أي منزل، وعندما عاد وهو يحمل الماء الساخن الذي أعده بصعوبة، لم يشرب أحد من الحراس؛ هذا فعلاً يؤكد قولاً مأثورًا: «القدارة تطغى على النظيفين، والنظافة لا تطغى على القذرين».

بعد عدة سنوات حدث أمر كبير مختلف؛ في ذلك اليوم كان شاي رقائق البطاطا الحلوى الفاسدة الذي أعدته زوجتي جف لفترة طويلة، وعاد كوادر القرية والمعلم الأخ شو تشانغله من قياس الأرض، وجاءوا إلى بيتي لتناول الشاي بغرفة الموقد، لم يهتموا إذا كان هناك شاي متبقياً أم لا؟ فحملوا الأكواب وشربوها، هذا المشهد لم يحدث من قبل في منزل ياو.

تركني أبي

أخيراً جاء اليوم الذي تمكّن أبي من تناول ثلاث وجبات ساخنة يومياً، وأكل كعك البخار الذي عجنته زوجة ابنه الثاني ببيديها باستخدام الخميرة، ومع بداية استمتاعه بالسعادة كأنه يقضي كل يوم عيد رأس السنة مقارنة بحياته السابقة، وافته المنية.

في عام 1995، كنت أعمل في شركة هواتشانغ المحدودة للمنتجات الصحية بويهاي بمقاطعة شانغونغ. كانت الحياة في الموقع مستقرة، والعمل على أساس ثابت يساعدك على كسب المزيد من المال، ليسكنك الأمل يوماً بعد يوم؛ في هذا العام، تناولت أسرتنا كعكاً غير لزج وشعرية دقيق القمح؛ كان أبي يحب الاستماع إلى عروض طبل أنهوي، واستخدمت المال الذي كسبته من العمل في موقع طريق هونغمي بقرية تشي شين بشنغهاي العام الماضي، وذهبت إلى سوق أوومياو لشراء مسجل كبير ماركة قه لين وانغ من شنغهاي، ومروحة ماركة السور العظيم؛ بنيت بنفسني بركة من الإسمنت بداخل الفناء، وقمت بتركيب مضخة ماء، وهكذا كان يغسل أبي الحبوب والخضراوات ولا يحتاج إلى الفل على نصف أهل القرية، والذهاب إلى تلك الآبار القديمة العتيقة لجلب الماء، ولن يسقط في البئر مرة ثانية.

في صباح أحد الأيام في خريف عام 1995، كنت أعمل في منزل سونغ يو كاي بقرية سونغ جياوا، وقمت بنصب الموقد وتركيب البلاط ووضع الرخام على سطح الموقد، في ذلك اليوم انتهيت من العمل مبكراً، وجهزت نفسي للعودة إلى المسكن، لم أتوقع أن يأتيني خبر مرض أبي، في ذلك اليوم اتصل الأخ ياو تشي بين قائلاً: «عمي مريض، عد بسرعة». عندما سمعت هذا الخبر لم أعد أرى أمامي وشلت حركتي، وسالت الدموع على وجنتي، وأخذت أفكر: أبي، لا يمكن أن تكون حياتك مريرة هكذا! أكلت منذ عامين فقط طعاماً مطبوخاً وكعك البخار المعجون يدوياً، وفي فصل الشتاء في السنوات الماضية كنت تنتردد في رمي رقائق البطاطا الحلوى المتساقطة في زيت الفحم، وتقوم بطهوها قليلاً ثم أكلها، وتغلبت على المصاعب والصعوبات، وعند تساقط مطر غزير وتلوج كثيفة تذهب للخارج للاستماع إلى عروض المسرح، والذهاب إلى منزل الآخرين لمشاهدة التلفزيون؛ ولكن كان الناس يدفعونك إلى الخارج، فاشتريت تلفازاً أبيض وأسود ولم تشاهده سوى أقل من عام، ثم مرضت. لم تمرض من قبل وأنت تحيا أياماً عصيبة، في طريق عودتي إلى المنزل تواردت كل هذه الأشياء في ذهني، وشغلني التفكير كثيراً.

في اليوم التالي أعطيت أخي لحافي البالي وكل أدواتي، وأخبرته أن يتذكر حساب الراتب في نهاية العام عند الانتهاء من العمل، أحضرت البلاط المستخدم في الموقد الذي لم يره أبي من قبل، وكنت أعد لاستبدال موقداً جديداً بالموقد القديم في نهاية العام؛ ولكن لم يستطع أبي رؤية العمل الحرفي الذي قمت به؛ لأنه كان يرقد بمستشفى تشانغ تشاي في الركن الشمالي الشرقي من القرية.

شكرت الأخ ياو تشي بين على تسهيل بقاء أبي في المستشفى، كان عمي الثالث جاهلاً وفقيراً، وعندما مرض أبي لم يكن بوسعه سوى البكاء، لم يبق ياو تشي بين بإرسال أبي إلى المستشفى فحسب؛ ولكنه قال أيضاً للطبيب: «عليك أن تعالجه، وإذا لم يستطع ابنه دفع التكاليف أنا سأدفعها». لن أنسى هذا المعروف الذي فعله الأخ ياو طوال العمر.

عندما عدت من ويهاي، مررت بمنزل الجدة، واسترحت هناك لفترة من الوقت، كانت الجدة تملك قلباً دافئاً، فقالت لي: كانت حياة والدك مريرة، وتعرض للسخرية من الناس طوال عمره، وأكل لتوه الطعام المطبوخ منذ عامين، وكان يتمتع «بنعمة النظر إلى أن أصيب بمرض خطر»، وتتهددت الجدة ثم قالت لنفسها: «انظر إلى زوجة ابنه الثاني الماهرة الفاضلة؛ وذلك الحفيد ذي الأنف الكبير والعينين الواسعتين، اللذين تسعد برؤيتهما»، وبينما واصلت الجدة حديثها لفترة طويلة، كانت دموعي تتساقط كالقطر.

في اليوم الخامس من الشهر العاشر في التقويم القمري هذا العام، كانت الذكرى الثانية لزوجي، وتوفي أبي متأثراً بمرضه، شخص مرض أبي من قبل عدة عيادات صغيرة على أنه مرض القلب التاجي، وبعد ظهر اليوم الخامس من الشهر العاشر في التقويم القمري عام 1995، غادر أبي العالم بهدوء، في ذلك الوقت لم يكن بمنزلنا حتى شجرة واحدة لصنع تابوت، فأنفقت يواناً لشراء شجرة حور من منزل الجيران في الفناء الخلفي، عندما توفيت أمي، أنفق عمي 50 يواناً لشراء التابوت، 200 بكيت بصمت، كانت كل لحظة قضيتها مع أبي تمر في ذهني كفلاش فيلم. عندما ذهبت مع أبي لبيع البضائع، وكان يسحبني علامات على الطريق وأسحبه علامتين؛ وعندما كان يعمل في حفر النهر ويعود في عيد رأس السنة ومعه كيس بداخله 5

مجموعة متنوعة من كعك البخار المتبقي من الآخرين، لم يكن أبي ذكيًا بما يكفي مثل الآخرين؛ ولكنه منحني أنا والأسرة كلها حبه وحنانه.

حادثان

كانت الصعوبات التي واجهت أسرة ياو نقطة انطلاق بالنسبة إلينا، جعلت خطواتنا نحو طريق المستقبل أكثر صلابة.

بعد أيام قليلة من وفاة أبي، قال لي جارنا في المنزل الجديد: «داشي، ماذا ستفعل أسرتك بعد ذلك، لقد تُوفّي والدك البسيط، ولا أحد يقوم بأعمال الزراعة، وأطفاله ما زالوا صغيرين لا يمكنهما الذهاب إلى العمل، ونتيجة لهذه الظروف ليس بوسعكم سوى التسول والطلب من الآخرين». في الواقع كان كلام العم حقيقة كبيرة، ومنذ ذلك اليوم قررت سرًا: لا بد أن أضاعف جهودي حتى تتعم عائلة ياو بمستقبل مشرق.

بعد انتهاء عيد الربيع عام 1996، كانت لدي خطة جديدة، ذات يوم قالت لي زوجتي: «استمع إلى أصوات مكبر الصوت الصاخبة القادمة من بيت شو تشانغ بينغ بالفناء الخلفي، إذا كنت تريد الذهاب إلى بكين اتجه بسرعة إلى الطريق الشمالي الكبير لتستقل السيارة، السيارة في انتظاركم على جانب الطريق. وأضافت قائلة: «عندما كنت عاملًا مهاجرًا تكسب 1800 يوان سنويًا كنت سعيدًا مطمئنًا، انظر مرة أخرى إلينا ونحن في هذه القرية، عند ذهابك إلى بكين لبيع الخضار المخلل، سيعادل المال الذي تكسبه هناك في عام ما تجمعه في عدة سنوات من عملك كعامل، بعملك القديم كنت ما تجنيه في عام تأكله في عام، متى ستكون صاحب عمل؟» أيقظني كلام زوجتي من سباتي وألهمني فكرة الذهاب إلى بكين؛ ولكن في ذلك العام لم يكن معي رأس مال، فاضطرت إلى العمل عامًا آخر، لجمع رأس مال وتنفيذ الفكرة.

في النصف الأول من عام 1996، واجهت حادثين وأنا في طريقي للذهاب إلى العمل، ففي طريقي للذهاب إلى ويهاي لأول مرة، استقلت أنا والعشرات من العمال المهاجرين في القرية سيارة خاصة، في الساعة التاسعة صباحًا وصلت هذه السيارة المتجهة إلى مدينة يانتاي إلى منتصف التل بحاضرة مو بينغ، وفجأة اصطدمت بها من الخلف شاحنة سحب الإسمنت، وأصبح الدخان يغطيها، ودخل الزجاج في يدي اليمنى ونزفت دمًا، ولم يصدر أي رد فعل بعد، حتى اصطدمت تلك الشاحنة بمؤخرة سيارتنا مرة أخرى. في ذلك الوقت كنت أقول لنفسني: لقد انتهينا تمامًا، وبعد أكثر من نصف ساعة، استيقظت في دھول، وفتحت عيني ورأيت الجميع مصابين تقريبًا.

أما المرة الثانية حدثت في نهاية الشهر الخامس في التقويم القمري، خلال موسم الزراعة، وكان عليّ الذهاب إلى مسقط رأسي أنهوي لحصاد القمح، في ذلك الوقت كنت أنوي عند عودتي للمنزل الذهاب إلى بكين لشق طريق جديد وتوفير المال، استقلت حافلة متجهة إلى أنهوي عند الحدود المشتركة للمدن الثلاثة وندينغ ورونغ تشنغ وويهاي.

في صباح اليوم التالي حوالي الساعة التاسعة، وصلت هذه الحافلة إلى الحدود المشتركة بين شاندونغ وأنهوي، وفجأة اصطدمت عجلة السيارة بجرار زراعي ماركة الأحمر الشرقي من الأمام، ثم قال السائق بعد ذلك: إن سائق ذلك الجرار المحمل بالطوب لم يكن سكران بل كان متعبًا، وأن الجرار اتجه يسارًا ثم يمينًا، وفي اللحظة التي اصطدمت عجلة السيارة اليسرى، بدا جسمي كالتنين الذي يلعب على المسرح ويركع للأمام وللخلف. وقلت لنفسني: هذه المرة هي النهاية حقًا. ولحسن الحظ أوقف السائق السيارة في الوقت المناسب، وعدنا إلى الحياة مرة أخرى.

في خريف عام 1996، كانت عائلة ياو سعيدة بقدوم الابن الثاني ياو ووي، أضفى ميلاد ياو ووي على هذه العائلة فرحًا كبيرًا؛ ولكن اختلط بهذا الفرح بعض الحزن، على الرغم من أن عائلة ياو في ذلك الوقت كانت تتناول وجبات ساخنة؛ فإنها لا تزال تفكر إلى الممتلكات، والحياة لا تزال صعبة.

كان وقت ميلاد ياو ووي تقريبًا في اليوم الثلاثين من الشهر السابع وحتى الساعة الواحدة صباح اليوم الأول من الشهر الثامن في التقويم القمري، ما سبب عدم تأكدي؟ ليس لأنني كأب لم أحب طفلي؛ ولكن لأنه في ذلك الوقت لم يكن في منزلنا ساعة، وما كان في وسعنا سوى تقدير الوقت، عندما وُلد الطفل احتضنته ومشيت طريقًا قصيرًا إلى منزل الجيران بالفناء الغربي لاقتراض 10 بيضات، لأعطيها زوجتي لتكلمة التغذية، ودفع 30 يوانًا مصاريف القابلة؛ عندما مرض الطفل تساءل

الطبيب لماذا لا تتغذى أمه أكثر، والحليب غير مغذٍ لذلك يبدو الطفل نحيفاً، ولا يتحمل الحقن، كانت الملابس التي يرتديها هذا الطفل وهو صغير أهداها لي الآخرون عندما كنت أعمل في ويهاي، وكذلك الملابس المتبقية التي كان يرتديها ابني الأكبر.

في صيف عام 1997، في هذا الطقس الحار، أجرى ياو وويي الذي لم يتم عامًا عملية جراحية كبرى، في ذلك الوقت كنت أتقاضى عدة مئات اليوانات شهرياً من عملي بموقع ويهاي، ولم أستطع الذهاب إلى المستشفى الكبرى بمدينة فويانغ، فاضطررت إلى اختيار عيادة صغيرة في مكان قريب، لإجراء العملية الجراحية، لم تبدأ العملية الجراحية بعد، وكانت الأسرة كلها تبكي، طفل يبلغ من العمر سبعة أو ثمانية أشهر طوله أكثر من قدم فقط يجري عملية جراحية. أمسك ثلاثة أو أربعة أطباء الطفل الذي كان بكاءه يمزق القلب، وقطع قلب والديه.

بعد إجراء العملية الجراحية للطفل لم يستطع أكل الطعام الصلب، وكان يعيش على حساء المعكرونة التي تعدده زوجتي وتقوم بإطعامه شيئاً فشيئاً باستخدام ملعقة صغيرة.

قبل الذهاب إلى بكين

في عام 1997، انتابتنى رغبة شديدة في تغيير الحالة الأسرية، فاقترضت من ياو تشي بين 1200 يوان للمرة الثانية، وهذه المرة اخترت الذهاب إلى بكين للبحث عن سبيل جديد للعيش، كان الذهاب إلى بكين حلمًا، أملاً في مساعدة عائلتي للتخلص من الفقر في وقت مبكر.

أنا رجل غير متقف، تركت التعليم في الصف الرابع الابتدائي، أخشى بعد وصولي إلى بكين أن أكون ضعيفاً بالحساب، فذهبت عمداً إلى سوق أوومياو لشراء آلة حاسبة بمبلغ 8 يوانات، وتحدثت مع زميل قابلته كان يبيع الخضار المخلل في بكين، وتبادلنا الحديث عن هذا وذاك وقتاً طويلاً، ولكني لم أستطع قول تلك العبارة: «أود الذهاب معك إلى بكين لبيع الخضار المخلل». عندما كنت صغيراً كان أبي يحثني على الاجتهاد في الدراسة والاستماع إلى كلام المعلم، ولم يعلمني كيف أطلب المساعدة من الآخرين، فطلب المساعدة بالنسبة إليّ هو أصعب من الصعود إلى السماء. في ذلك اليوم بعد حديثي مع زميلي في أمور كثيرة، حاولت أخيراً أن أقول له: «هل كوّنت ثروة في بكين خلال هذين العامين؟ أذهب إلى شانونغ للعمل بجد واجتهاد ولا أكسب سوى القليل من المال». ولم أنته من كلامي حتى فهم زميلي ما أقصده، وقال: «إذا أردت الذهاب إلى بكين عليك اصطحاب أقاربك». في ذلك الوقت كنت أفكر في أن زملاء المهنة أعداء، وأن الغريب على استعداد لأخذني معه، كما فكرت في طلب المساعدة من ابن أخي الأكبر ياو شينغ بانغ.

بعد مرور أكثر من عام على وفاة أبي، كانت أسرتنا تعاني ضيقاً مالياً؛ بسبب الديون الكثيرة، بعد وفاة أبي، فقد ترك لنا ديوناً تبلغ 3840 يواناً، كان هذا المبلغ في نظر الآخرين لا يستحق الذكر؛ ولكنه كان رقمًا فلكيًا بالنسبة إلى أسرتنا في ذلك الوقت.

منذ تذكّري أن أمي كانت تبكي كل يوم بسبب أبي الذي كان يعاني من شبه التأخر العقلي، وهي لم تعيش يوماً هانئاً، إلى أن توفيت في النهاية بداخل كوخين من الأكواخ التي قامت بتبديلها مقابل 60 كيلو جراماً من الحبوب الغذائية، اعتادت زوجتي منذ الصغر وهي في بيت أهلها على الحياة دون قلق، وفجأة جاءت للعيش في هذه البيئة، يمكن للمرء أن يتخيل هذا الشعور بالألم، في بعض الأحيان كانت تبكي بسبب عدم قدرتها على التحمل، وأحسست كأن سكيناً ينخر قلبي، وما كان بوسعي سوى أن أنصحها قائلاً: «لا تبكي، لا تبكي، من الآن فصاعداً سوف أضاعف جهودي وأعمل بجد، حتى أوفر لك حياة طيبة».

في ذلك العام كان الابن الكبير ياو قوه تشينغ بلغ العام الثالث من عمره للتو، ولم يكن في المنزل مال لشراء فاكهة للطفل، فاضطررت إلى أخذ مغرقتين من القمح لتبادلتهما مع الآخرين، في ذلك الوقت كان بائع البطيخ يقود جرّاراً، وسمع الابن صوت الجرار بالخارج، فركض بسعادة فوق سطح الموقد بالمطبخ، وأخذ سكين تقطيع المعكرونة القديمة وذهب لتبديلها ببطيخة، وعندما رأى بائع البطيخ هذا الطفل اللطيف المسكين، أعطاه بطيخة كبيرة بكل سخاء.

عند وفاة أبي كنّا مدينين بمقدار كبير من النفقات الطبية، وذات يوم جاء الدائنون إلى المنزل، وكانت تبكي زوجتي من القلق، فتقدمت لأقول لها: «لا تبكي، سأستقل السيارة غداً للذهاب إلى العمل في مبني الدراسة بمدرسة يانغ مياو الابتدائية».

عملت في بناء مبنى الدراسة بمدرسة بانغ مياو الابتدائية بمسقط الرأس، وكنت أتناقضى 10 يوانات يوميًا، وأتناول وجبة الغداء فقط؛ لم تكن هناك خضراوات في مطعم الموقع سوى القرع الأبيض، فأخذت نصف جرة مخلل الثوم الذي كان بالبيت وذهبت لتوزيعه على الجميع.

في ظهر أحد الأيام، ذهب عدد قليل من شباب القرية إلى سطح الموقع لمشاهدة العمال وهم يعملون، قال لي ابن أخي الأكبر ياو شينغ بانغ: «كيف تعمل هنا، كم ستكسب في مثل هذا اليوم الحار؟ تبدأ بتسلق الجبل في منتصف الليل، وتواجه حياة متعبة جدًا، وتسلق المرتفعات طوال اليوم أمر خطر أيضًا، ثم تنتظر حتى يتم الانتهاء من جمع المحاصيل وتذهب إلى بكين لممارسة التجارة».

وعند التفكير في ذلك الأمر خطرت بذهني فكرة، كنت أمل في الذهاب إلى بيته لأجرب حظي، وفي اليوم التالي شحذت الهمة وانتهزت سواد الليل وجئت إلى باب بيتهم، استمعت بإنصات، فكان الأب والابن يتناولان الطعام، ترددت كثيرًا، ومشيت أمام منزله ذهابًا وإيابًا ببطء، وإذا رأي شخص في هذا الموقف، سيوبخني: “انظروا إلى ذلك الشخص الذي يخجل من التعامل مع الأغراب! يحمل رأسه على كتفه ويريد الذهاب إلى بكين، وإذا ذهب، سوف يذهب كل الحمقى”.

في ذلك الوقت أحضرت للحاف والأدوات التي كنت أستخدمها في ويهاي، ولم يكن هناك طريق للتراجع، عزمت على دفع باب بيت أخي ياو تشي دي، وعندما رأي ابن أخي ياو شينغ بانغ قال لي مبتسمًا: “إنه عمي، هل تناولت الطعام؟ يوجد هنا طعام ونبيد، فلنشرب كوبين” فأجبت قائلاً: “لقد أكلت بالفعل، تناولت أسرتي الطعام اليوم مبكرًا، وكان طعاما بسيطًا”. ثم سألتني أخي ياو تشي ده: “دا شي، ما الذي جاء بك إلى هنا اليوم؟”. فضحكت ضحكة حمقاء وضغطت على نفسي فترة طويلة حتى نطقت عبارة واحدة: “أود أن أذهب أنا وياو شينغ بانغ إلى بكين لبيع الخضار المخلل، ما رأيك؟ وكان قلبي يهمس بالحديث، ألم يكن هذا تتأؤب الموت – فتح الفم بطريقة عشوائية؟

لم أتوقع أن الأب وابنه يقولان في صوت واحد: “حسنًا”. وأضاف ابن أخي ياو شينغ بانغ المتحمس قائلاً: “انتظر بعد الانتهاء من حصاد الخريف، وسنذهب معًا”. في ذلك الوقت كنت سعيدًا لدرجة أنني لم أستطع الانتظار للعودة إلى المنزل لإخبار زوجتي هذا الخبر السار، وفي طريق العودة كان لا يزال كلام ابن أخي ياو شينغ بانغ يتردد في ذهني: “عليك البحث عن كشك جيد في بكين، وأن تكون أقوى بكثير من عامل تقوم ببناء مبنى الدراسة بمدرسة بانغ مياو، وبعدما تصل إلى بكين تذهب أولاً إلى ليو لي تشياو للعمل في مكان غير ثابت عدة أيام، تفعل ذلك أولاً ثم تفكر بعد ذلك في حيلة أخرى.

كانت تضفي عليَّ لهجة حماسية عند وصولي إلى المنزل، وقلت لزوجتي بصوت عالٍ: “سأذهب إلى بكين”.

يعتقد الصينيون أنالخر وجفيااليومالثالثوالسادسأوالتاسعهيأيامتجلبالحظ.1-1

القرميد: الأجر الذييوضععلىحافةسطحالمنزلأوحافةشرفةالبهو، وهيعبارة عنحجار مصنوعةمخوفةتتضجبالنار.1-2

حملةاقتصاديتمو اجتماعيةقامبهاالحزبالشيوعياالصيني، التيانعكستقياصدار قرار انتخابيطيةمنذعام1958حتىعام1961.1-3

المو: وحدةمساحةصينيةتساوي0.0667هكتار.1-4

الفن: وحدةمساحةصينيةتساوي66.666متر مربع (10/1مو).2-5

اليي: وحدةمساحةصينيةتساوي0.666منالمتر المربع.3-6

الفصل الثالث: أيام «العمل والحياة في بكين»

أعتقد أن كلمة «بِّي بياو» (العمل والحياة في بكين) هي كلمة غير مألوفة بالنسبة إلى كثير من الناس، حتى الآن عملت وعشت ببكين 16 عامًا، وسمعت أن الكثير من الأشخاص يشكون من أذاتهم مثلي، فكم هو صعب أن تأتي إلى بكين؛ أهذا ما لا أعرفه؟ «إن الذين يعملون ويعيشون في بكين هم الذين يعرفون مرارة العمل والحياة في بكين»، في طريقي من منزلي بأنهموي، كنت أواجه دائمًا الفقراء وأبرز المعاناة والسخرية؛ ولكن أليست الحياة نفسها رحلة تمتزج بها الأفراح بالأحزان؟

بكين، قادم جديد

كنت راهبًا في معبد صغير، لم أر من قبل مثل هذا البخور العظيم، بعدما هبطت من القطار في بكين، تلك المباني الشاهقة ومشهد قدوم الناس وذهابهم جعل العين تعجز عن الإلمام بهذه المشاهد، وحالما تحولت بوجهي فقدت معرفة الاتجاهات.

قبل الذهاب إلى بكين، تركت لزوجتي وأولادي 20 يوانًا، لشراء الملح وطحن الدقيق، في صباح اليوم الذي ذهبت فيه إلى بكين، حملت على كتفي الأيسر ما جاد به عمي الثالث، لحاف قطن مزدوج 3.7 جين 1 ندفة بنفسه، كما أحضرت تلك الآلة الحاسبة التي اشتريتها بثمانية يوانات من سوق أووميوا، واستقلت أنا وابن أخي القطار الأخضر للذهاب إلى بكين.

في ظهر ذلك اليوم، وصلنا إلى وجهتنا عريشة المزرعة التي يملكها لائو تشانغ جيا في قرية شيواو تشانغ بطريق تاي بينغ تشياو ببكين، وصلنا إلى المكان الذي استأجره أولاد أخي ياو شينغ بانغ وياو شينغ لي منذ أكثر من ساعة، وجاء من الخارج عدد من الرفاق يرتدون قبعات لها رفراف، لفحص تصريح الإقامة المؤقت، ظننت أنهم من مكتب الأمن العام، وأخبرني ابن أخي أنهم من الدفاع المشترك، ولحسن الحظ لم أرم تذكرة القطار، وإلا أرسلوني إلى منزلي وما وجدت طعامًا أنا وعائلتي، أين رأيت مثل هذا المشهد، في ذلك الوقت ظل قلبي يرتجف من الخوف فترة طويلة، وقال هؤلاء الرفاق: «عليكم الذهاب إلى مركز شرطة ليو لينتشياو لعمل تصريح إقامة مؤقت غدًا أو بعد غد». وقمنا بهز رؤوسنا بسرعة استجابة.

في يونيو عام 1997، شهدت بكين تفتيشًا أمنيًا صارمًا، وعلى وجه الخصوص، خلال أيام العد التنازلي لعودة هونغ كونغ إلى الوطن، كنت أركب العربة ثلاثية العجلات خلال النهار وأنا خائف مثل اللصوص، ولم أجرؤ على العودة إلى المسكن في وقت مبكر، وفي كل ليلة كنت أصعد ومعني اثنان من أبناء أخي إلى حديقة منزل المالك لائو تشانغ، أو فوق سقفة الخنازير، ذات مرة، رأينا نحن عدة أشخاص فريق الدفاع، فأخذنا مصابيح يدوية ساطعة في أيدينا واتجهنا داخل الغرفة لإضاءتها، وكنت أخشى أن يقوم فريق الدفاع بالقبض علينا؛ لذا تسلقنا سقفة القش الكبيرة التي كان يضع فيها ابن أخي ياو شينغ بانغ المخللات.

في ليلة 30 من يونيو عام 1997، كان صوت جرس عودة هونغ كونغ إلى الصين على وشك الانطلاق، وما كان في وسعي سوى التحديق من بعيد في تلفزيون بأحد المنازل في الجانب المقابل، ومشاهدة تلك اللحظة المثيرة، بعد منتصف الليل قمنا أخيرًا بهدم العريشة القديمة التي أوشكت على التعفن، ولحظة سقوطها، اصطدم ظهري بجرة الفت المخل، وجرحت ساقي لتصبح مثل خريطة العالم، تسلل الألم الذي اخترق قلبي عبر الجسم كله، وكان من الصعب تحمله، وعند النوم كان هناك عدد لا يحصى من الناموس يلدغ جسمي كله، في هذه الليلة القاسية، استطعت فقط التفكير والاشتياق إلى زوجتي وأولادي البعيدين في مسقط رأسي لتخفيف التعب الجسدي.

كان الذهاب إلى بكين للبحث عن سبيل جديد للعيش فرصة من الصعب الفوز بها، أردت الاستفادة الكاملة من كل دقيقة هنا، وألا أضيع الوقت سدى، جئت إلى بكين للبحث عن سبيل جديد للعيش، وبدأت من الصفر، ولو سُئلت: أكانت الحياة مريرة أم لا؟ سأقول: إن كلمة «مريرة» لا تستحق الذكر أمام عائلتنا؛ عانت أسرنا الفقر، وكان يجبرنا الدائنون على سداد الديون، ويُحصل كوادر القرية كل عام نفوذ إنشاء المدارس، ويجمعون الأموال وتكاليف إصلاح الطرق؛ هذه الأموال أُجبرَت الأسرة على التنفس بصعوبة، أنا الذي كنت أفكر دائمًا في لِمَ الحياة صعبة هكذا؟ ولكن ما لم أفكر فيه هو أن الوضع سيكون أكثر صعوبة بعد خروجي.

عندما وصلت بكين لم أكن أعرف أي شيء، كان القيام بالأعمال التجارية الصغيرة يشبه ممارسة الكونغ فو، وكان من الصعب أن تبدأ بكل طاقتك، جئت إلى بكين منذ أكثر من 10 أيام، وأخفق ابن أخي ياو شينغ بانغ في مساعدتي لشراء عربة بثلاث عجلات مناسبة؛ لذلك أعطاني عربته القديمة، فقلت له: «الإخوة يتحاسبون، سوف أعطيك ثمن هذه العربة، فأنت ساعدتني كثيرًا عندما جئت إلى بكين، واهتممت بمأكلي ومسكني، ولم أرد لك هذا الجميل بعد، هذه هي المرة الثانية التي أطلب منك المساعدة، وعلى أي حال لا أستطيع أن أخذ عربتك دون مقابل». قال ابن أخي ياو شينغ بانغ: «هذه العربة تكلفتها يوانًا، سأبيعها لك بمبلغ 300 يوان». وبهذه الطريقة أصبحت أملك أول أداة للعمل بالتجارة. 350

الاستعداد قبل ممارسة التجارة

هكذا هي الحياة، عندما تمر بأوقات عصيبة وأوقات تشعر فيها بالعجز، سيكون دائمًا هناك من ينثر الماء البارد عليك، ليجعل حياتك أكثر عذابًا، إلا أنني لم أفهم في ذلك الوقت أن هذا اختبار من الله.

بعد ظهر اليوم الثاني عشر من قدومي إلى بكين، علمني ابن أخي ياو شينغ بانغ قيادة العربة ثلاثية العجلات. ولحظة أن دفعت العربة بضع خطوات فقط التقيت الأخ شو فوه بين، فجلس الاثنان على العربة كمدرسين يقومان بتعليمي. كانت استجابتي بطيئة، ولم أكن شجاعًا، وعندما وضعت قدمي فوق العربة، اهتزت العربة كلها مع اهتزاز جسدي، كان ابن أخي ياو شينغ بانغ صبورًا جدًا، وعلمني في البداية مبادئ قيادة العربة، وأخبرني أن يداي مثل عجلة القيادة، والاتجاه إلى اليسار يكون بتحريك اليد ناحية اليسار، والاتجاه إلى اليمين يكون بتحريك اليد ناحية اليمين، كان هذا الأمر صغيرًا يفعله الآخرون دون عناء، أما أنا كنت غبيًا، فقد استغرقت نصف يوم للتعلم. لم تستجب هذه العربة لقيادتي، فعندما أوجهها لتسير مباشرة، تتحاز على جانبي الطريق، واصطدمت بالجدار عدة مرات تقريبًا، كنت أغضب لدرجة أنني أردت رميها جانبًا. لم يهزأ ابن أخي ياو شينغ بانغ مني، ونصحني قائلاً: «العمل خارج المنزل ليس أمرًا سهلًا، والقيام بأي شيء يحتاج إلى الجهد والعمل بجد، وقيادة العربة عمل يحتاج إلى مهارة، وبعد فهم واستيعاب طريقة القيادة، تحتاج إلى الممارسة كثيرًا حتى تتمكن من القيادة؛ تعال، حاول أن تقودها مرة أخرى. بعد الاستماع إلى كلام ابن أخي، فكرت: نعم، هذه المرة لا بد أن أعمل بجد، ولن أسمح لهذه الانتكاسة الصغيرة أن ترعجني أو تغضبني، فإذا عدت إلى البلدة بسبب هذا الأمر، ألن أُنح كبار القرية وصغارها بذلك الفرصة لمضاعفة ضحكهم وسخريتهم؟ والأهم هو ألا تُصاب عائلتي بالإحباط، لا بد من العمل بجد لكسب المال، حتى ينعم الجميع بحياة طيبة.

بعد ظهر ذلك اليوم، أخذوني إلى سوق هونغليان ليعلموني كيف أزن الخضراوات وأجذب الزبائن وأدعوهم، وكيف أبيع الأشياء، في ذلك اليوم، أدركت ضرورة الابتسام في وجوه الزبائن عند إعطائهم السلع، وعدم فتح الكيس البلاستيكي عن طريق النفخ بالفم، وعندما يغادر المشتري يجب أن أقول له: «سر ببطء، مرحبًا بكم مرة ثانية. في ذلك اليوم كانت النتائج كبيرة.

في اليوم الثالث عشر من قدومي إلى بكين، أخذني ابن أخي ياو شينغ بانغ إلى سوق المزارعين يويقه تشوانغ للجملة لمعرفة الطريق، وعلمني كيف أشتري البضائع، وكيفية تخفيض السعر الأصلي، لا بد أن تمتلك أولاً أدوات ممارسة التجارة، ساعدني ابن أخي على شراء ميزان مقابل 25 يوانًا، وتجهيز أكياس مناسبة لتغليف المخلل. في اليوم التالي، ركبت العربة بمفردي واتجهت إلى سوق يويقه تشوانغ للجملة لشراء بعض الزنجبيل، لزيادة أنواع السلع، من يعلم لعل الله يختبرني ثانية.

حتى الآن أتذكر ما حدث بعد ظهر ذلك اليوم؛ ركبت العربة وأخفيت بعض النقود في جيبي، وتجولت في السوق، وسألت هذا المحل لأجد الأسعار مرتفعة، ثم سألت ذاك البائع فلم تكن الأسعار رخيصة، كنت مترددًا لا أعرف أيهما أختار؟ وأتعبت أصحاب تلك البضائع، قال لي عم كبير في السن: «أيها الشاب، لا تتردد، هل تعلم كم كان سعر النصف كيلو جرام في العام الماضي؟ كان سعر النصف كيلو جرام من هذا الزنجبيل نفسه في العام الماضي 9 يوانات ونصف، وكانت الناس تأتي لشرائه، وسعره هذا العام أرخص بكثير».

سألت عن البضاعة لدى الشباب، في أول مرة كانوا يتكلمون بأدب: «كم تريد؟». وفي المرة الثانية عندما سألت: «كم سعر النصف كيلو من هذا الزنجبيل؟». لم يعيروني أي اهتمام، وأحيانًا يعاملونني بشراسة الواحد تلو الآخر. في الواقع، أدركوا من تصرفاتي أنني مبتدئ، وبعد أن تحدثت مع ذلك العم العجوز لفترة طويلة، وافق على أن يبيع لي 10 كيلو جرامات من الزنجبيل بسعر 7 يوانات ونصف للنصف كيلو جرام.

وضعت 10 كيلو جرامات من الزنجبيل على العربية المسطحة، وقمت بقيادة هذه العربية التي ليس بها فرامل وسط تدفق الناس؛ لأنني مبتدئ كنت أنظر إلى الأمام لا إلى الخلف، وفي النهاية وصلت إلى المسكن بعد قيادة العربية منحنيًا، ونظرت خلفي لم أجد الزنجبيل فوق العربية. في المنزل تنتظرني أفواه لأكسب المال حتى أعود ومعني الملح والزيت والحطب، ولم أكسب المال بل خسرت، لم يكن رأس المال كثيرًا؛ حيث كان 1200 يوان اقترضتها من الأخ ياو تشي بين، بالإضافة إلى المال الذي كسبته من عملي الشاق في بناء مبنى تعليمي في معبد يانغ في الصيف، في تلك اللحظة أردت حقًا أن أبكي.

لم أجرو على إخبار الآخرين بهذا الشيء المخجل؛ بل همست فقط إلى ابن أخي ياو شينغ بانغ بصوت منخفض. في تلك الليلة، أخبرت ابن أخي أنني فقدت الزنجبيل، وبعدما سمع ذلك أخذ يواسيني قائلاً: "هذا الأمر سيكسبك خبرة ومعرفة وفيرة". وبعد ذلك قال: إنه سيعلمني بعض المهارات لتجنب فقدان السلع عند إحضارها.

بعد عدة أشهر من العمل الشاق، استطعت أخيرًا قيادة العربية بسلاسة والتجول في الشوارع، وعندما كنت أحرك يدي باتجاه اليسار، تستجيب العربية وتتجه ناحية اليسار، وعندما أحركها يمينًا كانت تتجه ناحية اليمين، ولم اصطدم في الجدار مرة أخرى، وعند السير في مكان مزدحم بالكثير من الناس، كنت أصرخ قائلاً: "عفوًا. عفوًا". وشعرت أنني أندمج ببطء في هذه المدينة الجميلة.

بدء العمل بالتجارة

يقول الجميع: إن عملنا بالتجارة هو عمل متعب وشاق، ومع ذلك لا نكسب الكثير من المال؛ متعب، هل سيكون متعبًا مثل استخدام عربية يد مطاطية لدفع أحجار كبيرة تزن 100 كيلو جرام في ويهاي؟ شاق، هل سيكون شاقًا مثل تفريغ شاحنتين بهما سماد بيكر بونات الأمونيوم كرية الرائحة خلال عملي بالجمعية التعاونية للعرض والتسويق بقرية تشوفو الجنوبية التابعة لمدينة ويهاي لمدة يوم دون أجر؟ يجلب الفقر، هل مثلما كنت صغيرًا لا أتناول سوى وجبة واحدة من الطعام في بيتي، وأنام وأنا أتضور جوعًا؟

كان مسكننا يقع في غرب تاي بينغ تشياو في بكين، وكان مالك السكن رئيس عمل بشانشي، وكانت المنازل البسيطة التي بناها المالك هي أول مكان أستأجره، عندما جئت إلى بكين لم يكن لدي الكثير من المال، واستأجرنا نحن الأربعة منزلًا واحدًا، من أجل توفير بعض النفقات.

في البداية لم أكن أعرف كيف أخلل المخللات، أتذكر فقط قولاً مأثورًا في بلدنا: «العمل في الزراعة لا يحتاج للتعلم، فنفعل مثلما يفعل الآخرون». قبل قدمي إلى بكين لم أكن أعلم ما الموقد؛ لذا كنت أذهب إلى الخارج لجمع الحطب لإعداد النار وطهو الطعام وعمل الملفوف المخلل وغيره، أو أستخدم سلة المخلل التي ألقتها زملائي القرويين لحرقها كحطب.

كانت أول مرة أذهب للبيع في سوق صغير بالقرب من المسكن؛ أتذكر في ذلك اليوم أنني بعت بضاعة بثمانية وثلاثين يوانًا، على الرغم من قلة المبلغ فإنه كان كافيًا لجعلي سعيدًا لفترة من الوقت، لم يكن المال كثيرًا؛ ولكنه أفضل من تجارتي أنا وأخي الكبير في الزنجبيل بمسقط رأسنا وتعرضنا للضرب حتى الموت ممن كُنا نستولي على مكانهم في البيع! لم يكن لدي رأس مال كبير، وحتى رأس المال الذي كنت أملكه اقترضته، فاضطرت إلى التوفير، وعند الظهر كنت أدفع العربية وأعود إلى المنزل، وألنقط بعض الحطب لطهو المعكرونة البيضاء، وكان يلقي الآخرون أوراق النبات المتبقية من عمل الملفوف المخلل، بينما كنت ألنقطها بعيدان تناول الطعام وأكلها؛ وأستخدم مخلل الخردل ليكون طعامًا أتناوله في الوجبات الثلاث كل يوم.

أقول ما يشعر به ضميري، خلال هذه الفترة التي قضيتها في بكين، من دون مساعدة ياو شينغ بانغ وشوقه بين، لما استطعت البقاء في بكين. كان ياو شينغ بانغ يجهز المخلل ويبيعه بالجملة، وكنت أشتريه منه وفي كل مرة كنت أبتاعه منه بسعر رخيص، وفي بعض الأحيان كان المال معي لا يكفي للشراء، فأتعامل بالدين؛ بينما كان شوقه بين يساعدني في إحضار التوفو كل مساء، فكل أفضالهم محفورة في قلبي.

في اليوم الثاني ذهبت لبيع المخلل في المكان نفسه، ولم أبع سوى أكثر من 20 يوانًا، حينما جئت إلى بكين، لم أفهم في التجارة مقولة: «في يوم الاثنين تكون حركة البيع والشراء قليلة»، ولم أفهم «ضرورة دراسة ما تريد فعله»، وبعد ذلك

أخبرني بعضهم أن يومي السبت والأحد هما أفضل أيام التجارة والبيع. أخذ الليل يسود تدريجياً، وكان لا يزال الصباح الذي اقترضته مُعلقاً على الكشك، فكرت في جمع البضاعة في وقت متأخر لبيع المزيد، فالسنت الزيادة الذي أكسبه من البيع هو مال، لم أكن ماهراً في قيادة العربة بثلاث عجلات، وعندما ركبتها ودخلت زقاقاً صغيراً ضيقاً، بدأت العربة تتأرجح؛ لأنني لم أمسكها جيداً، وسقط الميزان الذي اشتريته لتوي على الأرض وكسر ساقي.

في اليوم الثالث ذهبت أنا وشوقه بين إلى السوق الصباحي والمساءلي في بينخه بمنطقة باي تشي فانغ للبيع يوماً واحداً. ساعدني شوقه بين في إيجاد مكان لبسطة البيع، وقال: إن هذا المكان يقف فيه أحد الأشخاص، وهذا الشخص سوف يأتي غداً؛ وقال من الأفضل أن تذهب إلى السوق غداً؛ لأن كل من بالسوق أغنياء يمتلكون المال، هناك يمكنك بيع الأشياء بأسعار مرتفعة، وقليلًا ما يقوم المشتري بالتفاوض على السعر، ولكنك ستععب قليلاً. التعب والشقاء والفقر هذه الكلمات لا تذكر أمامي.

في اليوم الرابع قبل الفجر، ركبت العربة وتحركت في اتجاه ضد الرياح بسرعة متجهًا إلى سوق الخضراوات لاول تشيانغ جن؛ في ذلك الوقت لم أعرف حتى فائدة استخدام إشارات المرور، ومررت بالمخرج الجنوبي لمعبد باو قوه، وعندما ركضت إلى منتصف مفترق الطريق، كانت السيارات تأتي من اتجاه الشرق والغرب بسرعة، وصاح الشرطي قائلاً: «العربة ذات العجلات الثلاث، العربة ذات العجلات الثلاث». كانت حالتي المزاجية سيئة، فضغطت على الفرامل بسرعة، وتذكرت أن العربة ليس بها فرامل، وانشغلت في الضغط على الفرامل برجلي. في ذلك اليوم كنت أرثدي زوجًا من الأحذية القماشية الصفراء، وبسبب استخدام قوة القدم المفرطة، دخلت قدمي اليسرى في ثلثي العجلة. قال الشرطي: «أتريد الموت؟» أوضحت له بسرعة قائلاً: «لست أريد الموت؛ ولكن العربة ليس بها فرامل، وجئت إلى هنا منذ بضعة أيام، ولا أفهم شيئاً». وجدني الشرطي مواطنًا ريفيًا صادقًا؛ لذلك لم يعاقبني، وساعدني على دفع العربة حتى جانب الطريق، وقبل المغادرة نصحتني قائلاً: «عد بسرعة وأصلح العربة، وركب بها فرامل ثم عد مرة أخرى.»

في صباح ذلك اليوم، تحملت ألم قدمي اليسرى، حتى وصلت إلى سوق الخضراوات لاول تشيانغ جن ببكين. دفعت العربة أربع لفات في سوق الخضراوات، وفي النهاية توقفت في الشارع الشمالي بغرب السوق، وقال لي المدير: «افتح القماش المشمع بالعربة وقم بالبيع أولاً. وعند الظهر عليك دفع خمسة يوانات مقابل رسوم الإدارة»؛ لذلك،

دفعت العربة وغادرت سوق الخضراوات، وبعد مغادرة السوق، لم أجد مكاناً أضع فيه العربة الممتلئة بالمخلل. كان أول مكان أتوقف فيه أمام مدخل منزل أحد الأشخاص؛ ولكن أصحاب المنزل كانوا يشكون من رائحة المخلل، وقاموا بإبعادي من أمامهم؛ وفي المرة الثانية وقفت في منطقة مفتوحة في الشارع لبيع المخللات، ولم أبع مرتين حتى جاء شخص يحثني قائلاً: «سرعة! بسرعة! هذه منطقتي عليك أن تغادر». لم يكن لدي خيار آخر، فاضطرت إلى الذهاب إلى سوق الخضراوات مرة أخرى، وفي وقت الظهيرة تقريباً، جاء المسؤول ويحمل في يديه قائمة تسليم الرسوم واتجه ناحيتي ثم قال: «أيها الشاب عليك دفع رسوم الإدارة».

عندما سمعت عبارة دفع الرسوم، ارتجف قلبي، ألا بهذا يريد حياتي؟ في الصباح بعت بمبلغ 20 يواناً فقط، حتى إنني لم أستطع تناول وعاء شعرية داوشياو، وجمعت البضائع وقررت ألا أبيع! وجهت العناد بداخلي وصعدت إلى العربة واتجهت نحو الغرب، عندما وصلت إلى مدخل زقاق في الناحية الغربية، التقيت شاباً طويل القامة قوي البنية، أضفى عليّ عبارة جميلة: «أريد اقتراض بعض المال». هو بذلك يقول مباشرة: إنه يسرق ويستولي على المال. أخبرته أنني جئت إلى بكين منذ بضعة أيام، وأني فقير جداً، ولم أبع اليوم سوى بمبلغ 20 يواناً، وأن ينظر إلى هذه العربة كل ما عليها هو مخلات، وليست شيئاً ثميناً يستحق المال. سمعني ذلك الشاب الطويل وأنا أقول: إنني فقير جداً، ربما رق قلبه أو رأى أنني حقاً لا أملك شيئاً يستحق الاستيلاء عليه، فذهب وكان يتمتم فمه قائلاً: «أنت محظوظ».

كان هناك نوعان من بسطة البيع، في صباح أبيع بمبلغ 80-90 يواناً، على الرغم من أن النقود قليلة؛ فإن الربح لم يكن قليلاً. وفي صباح آخر أبيع بمبلغ 90 يواناً، وهو أكثر من الراتب الذي كنت أتقاضاه من عملي في الموقع. كانت نفقاتي قليلة؛ حيث استأجرنا نحن الأشخاص الأربعة منزلاً، وكان يدفع كل فرد 50 يواناً شهرياً، ولم أنفق نقوداً لتناول وجبة الإفطار كل يوم، فكان هناك بائع يبيع كعك السمسم بداخل الفناء الذي استأجره شوقه بين، وفي المساء يتبقى ثلاث أو خمس كعكات، يقوم بإلقائها في سلة القمامة. كنت أستيقظ مبكراً حتى لا يراني أحد، وأضعها في جيبتي، لتناولها في وجبة الإفطار، وكل يوم أشرب الماء الساخن بداخل ذلك المنزل الصغير المستأجر، وأتناول قطع مخلل الخردل مع كعك السمسم لسد جوعي.

امتلاك كشك ثابت

إن بكين في قلبي جنة مقدسة، ومنزل ياو هو عشب صغير تحت جدار مدينة بكين، وعلى الرغم من ضعفه فإنه مليء بالحياة، كان العثور على كشك فارغ في سوق خضراوات شارع تشانغ تشون هو المكان الذي طالما حلمت به، الذي سيجعلني أمتلك رأس المال للعمل في هذه المدينة.

في عام 1997، ذات صباح في أواخر الخريف، جئت إلى المدينة للبحث عن مكان للكشك، في هذا الصباح ركبت العربة وتحركت ببطء متجهًا نحو المدينة، وكنت أنظر يمينًا ويسارًا بحثًا عن السوق، وأتذكر علامات الطريق؛ لنألا أفقد طريق العودة إلى المنزل، عندما كنت أتجول حتى وقت الظهر، رفعت رأسي ورأيت عدة رموز حمراء كبيرة: سوق خضراوات شارع تشانغ تشون.

كانت توجد وكالة أنباء شينخوا في الجهة الشمالية، بينما يقع مركز تسوق قووهوا في الجهة الغربية، وكانت الجهة الجنوبية منطقة سكنية كثيفة السكان، والكنز الروحي لممارسة التجارة، وبعد تحديدي للهدف، أخذت أتغلغل في المنطقة.

في النصف الأول من الشهر خلال عملي ببيع الخضار المخلل في سوق خضراوات شارع تشانغ تشون، كنت أدفع كل يوم العربة الممتلئة بالخضار المخلل وأنتقل من مكان إلى مكان، وأبيع ثم أنتقل إلى مكان آخر، دائمًا ما أقول: إن حياتي مريرة، وإن ميزاني يرافقه سوء الحظ، ذات ليلة بعد الانتهاء من جمع البضاعة كانت الساعة السابعة مساءً، وبدأ الليل يسود، ومن دون أن أنتبه سقط هذا الميزان للمرة الثانية بعدما سقط من قبل عندما كنت أتعلم قيادة العربة. كل يوم في وقت الظهر وبعد الظهر، كان يمر من أمامي مدير السوق العم ليو والأخت تسوي، وكانا يريانني غير رشيق وبطيء، والبضاعة على العربة لا تتدفق، وإنه من المحزن أن أدفع كل يوم العربة من هنا وهناك، فتناقشا معًا واتفقا على أن يمنحاني الكشك الموجود أمام صالون الحلاقة بأقصى غرب الطريق الشمالي لاستخدامه في الشتاء، كانت هناك سيدة مسنة تبيع مستلزمات الخياطة، قال العم ليو والأخت تسوي إنهما سوف يسمحا لي بالانتقال بعد انتهاء عيد الربيع بعدما يصبح الطقس دافئًا، منذ ذلك الحين تغير الوضع بشكل كبير.

كنت أبيع المخلل بالكشك الثالث من ناحية الغرب في الطريق الشمالي غرب سوق الخضراوات بشارع تشانغ تشون خلف مركز تسوق قووهوا، كان المعروف الذي فعله معي العم ليو والأخت تسوي محفورًا دائمًا في قلبي، كان هذا الكشك هو مورد الرزق لعائلتنا، وامتلاكنا هذا الكشك هو بمنزلة مكان للعيش في بكين.

على الرغم من أن الكشك كان يوجد بمكان «الكنز»؛ فإنه في فصل الشتاء يكون أبرد مكان في السوق كله؛ حتى في أبرد الأيام، لم أأخذ قسطًا من الراحة، كان الناس بالفناء يقولون جميعًا: إنني أريد المال ولا أريد حياتي. كنت أستغرق ليلتين في الأسبوع في عمل الملفوف الحامضي، وأذهب إلى سوق الخضار خلال النهار، وذات يوم هبت رياح شديدة، وانخفضت درجة الحرارة إلى حوالي 10 درجات تحت الصفر، وكان هناك أكثر من 10 محلات تمارس التجارة داخل الفناء الكبير، وكنت أذهب إلى سوق الخضراوات بمفردي وأواجه المعاناة والألم، وأشعر بالرضا عندما أبيع بمبلغ 70 يوانًا في اليوم، كنت أنظر إلى يدي المتجمدتين المتوهجتين الجافتين الخشنتين، ولكنني أعلم أن الاستقرار بمحطة بكين يحتاج إلى تحمل المصاعب والعمل الشاق.

عملت بسوق خضراوات شارع تشانغ تشون أكثر من شهر، وتحسنت تجارتي تدريجيًا، كانت هذه الغرفة الصغيرة الموجودة خلف الكشك هي غرفة استأجرها أربعة من رجال أمن مركز تسوق قووهوا، كان هؤلاء الإخوة الأربعة أشخاصًا طيبين القلب، فكانوا يرونني كل يوم متعبًا جدًا من سحب البضاعة على العربة ذهابًا وإيابًا، فسمحوا لي بتقريب البضاعة المتبقية في مكان صغير فارغ وراءهم كل يوم؛ لذلك كنت أذهب في الصباح الباكر إلى قرية يويه قه تشوانغ لإحضار البضائع، ولا أتأخر عن الذهاب إلى السوق لبيعها، دون مساعدة هؤلاء الأربعة لكان سحب تلك البضاعة ذهابًا وإيابًا كل يوم أمرًا شاقًا جدًا.

في شتاء عام 1997، كان الطقس باردًا جدًا، ومتوسط درجة الحرارة في النهار عدة درجات تحت الصفر. في ظل ذلك الطقس البارد جدًا، كنت متعبًا في السوق وأرغب في النوم، كان الكشك في مهبط الريح، وكانت درجة الحرارة أحيانًا تصل إلى 10 درجات تحت الصفر، كنت رجلًا كبيرًا يتجمد في السوق وليس بوسعي سوى البكاء، وخشيت أن يسخر الآخرون من صوت بكائي؛ كان هناك شخص أعرج في السوق، يدفع دائمًا العربة ثلاثية العجلات بجد وتعبد، وينصب بسطة لبيع

الملابس القديمة، وكان ينادي دائماً على بضاعته مجموعة مجموعة، وكل جملة يقولها مختلفة عن الأخرى؛ في الشهر الحادي عشر في التقويم القمري، ذات يوم عند حلول الظلام، رفع هذا الشخص الأعرج يديه عالية، ثم صفق وصاح بصوت عالٍ دون توقف: «تخطمت الأسعار! تخطمت الأسعار! وأغلق مصنعنا، أخفض البائع الأسعار، أوكازيون ومن يأتي متأخراً سيبكي ندمًا، تعال وانظر! تعال وانظر!». أفنعتني صراخه وكلامه، وصدقت كلامه الحلو المزخرف؛ لذا أنفقت 25 يوانًا لشراء سترة شبه مرقعة. تلك الليلة، بعدما أخذت السترة وعدت إلى المنزل، حملت السترة في يدي وألقيت نظرة عليها يمينًا ويسارًا، وأردت أن أحتفظ بها لأرتديها عند العودة إلى البلدة لقضاء عيد رأس السنة الجديدة، ويجب أن أتحمل البرد الآن، حتى يكون مظهري وجيهاً عند العودة في العيد.

لم يكن بيع الخضار المخلل أمرًا سهلاً، ذات ليلة جاء شاب وأمسك بلحيتي ثم قال: «يا بائع المخلل، لا تأتِ غداً، وإذا جئت مرة ثانية سأضربك». أرعيني حتى سال العرق من جسمي، وجمعت كل شيء بسرعة وعدت إلى المنزل؛ بعدما وصلت إلى المنزل، أخبرت ابن أخي ياو شينغ بانغ بما حدث، فأقنعتني أن أذهب غداً لأستمر في عملي، وقال: إننا لم نسرق ولم ننترع شيئاً من أحد، لا تخف منهم. كانت اللحظة الحاسمة هي تلك التي منحني فيها الشجاعة مرة أخرى.

في نهاية الشهر الحادي عشر في التقويم القمري عام 1997، بفضل مدير السوق العم ليو، أنفقت 175 يوانًا شهريًا مقابل استئجار كشك ثابت في سوق الخضراوات بشارع تشانغ تشون، وبمساعدة الأخت تسوي دفعت 75 يوانًا لعمل رخصة تجارية؛ كان بائع الخضار المخلل بشارع تشانغ تشون هو زميلي القروي، الذي كان يعمل معي في ويهاي؛ وقد عمل في بكين أكثر من عامين، ولم يستأجر كشكاً قط، وكان يهرب من دفع الرسوم ليوافر المال، ويهرب عندما يرى مدير السوق قادماً لجمع الرسوم؛ عندما رأني استأجرت كشكاً ثابتاً بسعر رخيص، وقمت بعمل رخصة تجارية، ذهب إلى كل مكان يطلب من الكثيرين تأجير كشك وعمل رخصة تجارية، وهو الذي أرسل شخصاً ليحبرني على المغادرة من هنا بسرعة؛ قال لي أخ: «هل لديك القدرة على الذهاب إلى السوق الصباحي بمنطقة شوانوو بالشرق». وبذكره هذا تذكرت فجأة السوق الكبير الموجود في منطقة شوانوو بالشرق الذي يبعد ميلاً واحداً عن هذا السوق، والتجارة هناك رائجة والناس يتحاشدون، فتولدت لدي فكرة جديدة.

بالنقود أو دونها، سأعود إلى المنزل للاحتفال بالسنة الجديدة

عدت من بكين ومعني النقود لتطوير واجهة هذا المنزل، ومنحني كلام الجيران تشجيعاً روحياً كبيراً، ومع عودة هونغ كونغ، قررت أن أبذل جهوداً حثيثة لتأمين أسرتي، إن مشهد الهبوط من الحافلة لا أنساه في حياتي، منحني الشجاعة والثقة لمواجهة المستقبل.

في اليوم السادس والعشرين من الشهر الثاني عشر في التقويم القمري عام 1997، استعدنا نحن أكثر من 10 أشخاص للعودة إلى ديارنا لقضاء عيد رأس السنة الصينية الجديدة، جئت إلى بكين لمدة نصف عام، واستطعت العودة إلى البيت في رأس السنة الصينية الجديدة ومعني 2700 يوان، كما سددت لابن أخي ياو شينغ بانغ 300 يوان ثمن العربية، وكنت قانعاً راضياً. هنا المال الذي ادخرته من عرقي، والمال الذي حُشر داخل فمي. وتركت في بكين أكثر من 10 جرات مخلل، وجرة كبيرة من الملفوف الحامض، وبضع مئات جين 2 من المخلل بالخردل، وقبل العودة إلى المنزل أنفقت 50 يوانًا، فذهبت إلى سوق لي تسي الصغير ببكين، لشراء بدلة جديدة على النمط الغربي تليق برئيس العمل، وكانت هذه أول بدلة اشتريتها لنفسني.

في اليوم السابق للعودة إلى المنزل، أمسكت مسحوق الغسيل من أمام ماسورة المياه، وحنيت ظهري واضعاً رأسي أسفل الصنبور وغسلتها جيداً، بعد الانتهاء من غسلها اقتضت دراجة من زميلي القروي، وركضت في اتجاه غرب طريق مالينداو الشمالي ببكين، وأنفقت يوانين لحلاقة الشعر، وفي المساء تغير جسمي كله من الداخل للخارج، وخلعت الحذاء القماشى الأصفر من قدمي، واستبدلت حذاءً أبيض من ماركة المحارب بالحذاء القماشى الأصفر، في ذلك اليوم كنت متحمساً طوال الليل ولم أغفل، وأخذت أفكر في الرزمة الكبيرة من الأوراق النقدية فئة 100 و 50 و 10 و 5 يوانات التي كسبتها من عمل يدي، وكان المجموع 2640 يوانًا، ونظرة السعادة على وجه زوجتي عندما أسلمها النقود، تستحق كل هذه المعاناة التي عانيتها خلال ستة أشهر.

في الساعة الواحدة صباح ذلك اليوم، استقلنا سيارة من محطة ليزي لحافلات المسافات الطويلة للعودة إلى مسقط الرأس. نحن العشرات من الناس نبيع المخللات في جميع أسواق بكين، على الرغم من وجودنا جميعاً في بكين، فإننا نادرًا ما نجتمع،

وهذه المرة عندما اجتمعنا معًا في الحافلة تولّد لدينا شعور «الزملاء يلتقون بعضهم البعض، وأعينهم مليئة بالدموع». كان الابن الأكبر لرئيس القرية شو قوه يو زميلي، قال لي: إنه في تلك الأيام التي هبت فيها عاصفة وانخفضت درجة الحرارة كان يبكي من البرد. فقلت له: «لم تكن تبكي وحدك، في أول يوم ذهبت إلى سوق خضراوات شارع تشانغ تشون، في المساء جمعت الكشك لأعود إلى المنزل، ضللت الطريق عند قوانغانمن تشياو، واستغرقت أكثر من 10 دقائق لإيجاد الطريق حتى وصلت إلى ليو لي تشياو، ومررت بعدة منعطفات حتى وصلت إلى المنزل».

في اليوم التالي بعد الساعة الثالثة ظهرًا، وصلنا إلى مسقط الرأس مدينة لانتشوان، ونشاركنا في ركوب حافلة زراعية صغيرة، وبعد أكثر من ساعة وصلنا إلى مدخل قريتنا شويينغ الكبيرة؛ ومن ثمّ مدخل أكواخ القش بالمنزل القديم، وجاء عدد من الجيران القدامى المتحمسين لرؤيتي، وكان الآخرون ينزلون من الحافلة وهم يحملون أشياء، وقال لي الجيران جملة واحدة فقط: «عدت من بكين». كنت آخر شخص يهبط من الحافلة، وعند نزولي كانت كل العيون تتجه نحوي، وكانت العممة هي أكثر من وجّه إليّ كلامًا، فنادتني بلقبتي قائلّة: «دا شي، إذا كانت والدتك على قيد الحياة، ورأت عائلتكم تحيا بشكل جيد هكذا، لن تصدق ذلك»، كما وجهت كلامها لأبي قائلّة: «هذا هو ياو روداو، عاش حياة مريرة جدًّا، وعندما جاءت زوجة ابنه فقط استطاع أن يأكل كعك البخار الساخن، ثم غادرت. انظروا إلى دا شي الذي منح عائلة ياو المجد والفخر، وانظروا إليه عندما كان عاملاً جديرًا بالثقة، ويُعتمد عليه كثيرًا في العمل بالتجارة في بكين».

لم أسأل من قبل أي سوق يذهب إليه أهل القرية، لأذهب للعمل معهم؛ ولكن ما كنت أتمناه فقط هو أن يحيا كل زميل حياة جيدة، لم تستول عائلتي على شبر واحد من الأراضي من قبل، وعند الاقتراض من الآخرين نُعيد ما اقترضناه كاملاً؛ منذ الصغر وأنا أحيا بحذر وانصياع، قبل عام 1991 كانت عائلة ياو عاجزة حتى عن توفير وجبة طعام واحدة، ولم تتمتع بالقوة لمواجهة الآخرين، استطعت إيجاد كشك في بكين بفضل مساعدة الناس الطيبين والجهود الدؤوبة التي بذلتها، وفي النهاية استخدمت طريقتي للحصول على مكان هناك أستقر فيه.

أيام نصب بسطة البيع

كان اليوم السابع من الشهر الأول في التقويم القمري عام 1998 هو بداية المضي في طريق تحقيق أحلامنا، لم يعد أخي هو الآخر يعمل في وبهاي، وغيّر عمله وذهب معي إلى بكين لبيع الخضار المخلل.

ذهبت أنا وأخي في اليوم السابع من الشهر الأول في التقويم القمري، وفقًا لعاداتنا في الريف، كان هذا هو وقت زيارة الأقارب والأصدقاء، وهناك قول مأثور: «لا تخرج من المنزل في اليوم السابع، ولا تُعدّ إليه في اليوم الثامن». عادة ما أختار الأيام المباركة الثالث، السادس، أو التاسع لمغادرة المنزل، «الخروج من المنزل وترك كل شيء على ما يرام». قررت أنا وأخي أن نغادر في اليوم السادس؛ ولكن لم نشتر تذاكر ذلك اليوم، فاضطررنا إلى التأخر يومًا، وهكذا أخذت أكثر من 2000 يوان كسبتها من عملي قبل عام، وأخذ أخي عدة مئات من اليوانات كسبها من عمله وجئنا إلى بكين.

أخذت أخي أولًا إلى المنزل الذي استأجرته في بكين، وبعدما قمنا بوضع الأمتعة أخذته ليتعرف على البيئة المحيطة، في اليوم التالي ركبت العربة ثلاثية العجلات، وركضت إلى منتصف مدينة بكين واشتريت سيارة ثلاثية العجلات مستعملة لفترة من الوقت من بائع الفاكهة بسوق الخضراوات بشارع تشانغ تشون مقابل 450 يوان، ثم عثرت على كشك بعد محاولات من البحث، وبعد ذلك لم تمر 3 أيام على قدوم أخي الكبير إلى بكين، حتى سمعت أن كل أهل القرية علموا بالأمر، وأخذ سكان القرية يتبادلون أطراف الحديث عن قدوم مثله إلى بكين وكذلك عن قدرتي على المجيء إلى بكين.

بغض النظر عن مقدار المال الذي نكسبه، على الأقل أصبح في حياتنا ضمان؛ أعتقد أنه لم يعد بإمكاننا النقاط الحطب وطهو الطعام، فمن الأفضل توفير الوقت للذهاب إلى منطقة موشي ده بطريق سانليهيي عند بوابة المدينة لنصب بسطة للبيع، والقدرة على كسب المزيد من المال، في ذلك الوقت كنت أفكر فقط في كسب المزيد من المال. نقلت المخلل المتبقي على العربة إلى المنزل، وذهبت إلى الشارع الشمالي بمنطقة تاي بينغ تشياو تحت دفء الشمس، واشترت أسطوانة غاز وموقدًا؛ وبعد شراء موقد الغاز أصبح الأمر أكثر سهولة، ولم نعد بحاجة إلى الذهاب أكثر من نصف ميل كل يوم لجمع الحطب وطهو الطعام.

في الحقيقة كان الطريق الدائري الشمالي الأول بمنطقة موشي ده الواقعة على طريق سانليهييه كنزًا لكسب المال؛ وفي أول مرة عدت إلى المنزل من سوق شوانومن بعدما أغلقت الكشك، كنت هنا أبيع بعض الأشياء، ويمكنني فقط استخدام كلمة «سعيد» لوصف ذلك الشعور، كان السكان هنا يشترون الأشياء، ولا يتفاوضون مع البائع على السعر؛ بل يشترونه بالسعر الذي يريده؛ والمشترون هناك أثرياء يهتمون بشراء الأشياء، وبعد شراء المخلل ينادونني: «أيها الشاب ساعدنا في كشط قشر المخلل».

ولكن الأوقات الجميلة لا تدوم طويلًا، في هذا المكان الذي كان مثل كنز بيعت خمس مرات، والتقيت الإدارة الحضرية، ذات يوم حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، رأيت من بعيد الإدارة الحضرية تقود سيارتين قادمتين من الاتجاه الشمالي، فأفز عني قدامهم؛ ومن ثم ركبت العربة ثلاثية العجلات وقُدتها إلى الأمام وأنا أصارع الموت، وفي الطريق كنت أسمع صوت المخلل وهو يتدحرج داخل العلب مثل قرع الطبول، وكان يطاير ماء المخلل في كل مكان في العربة، وبسبب قيادتي السريعة، لم تكن الخسائر قليلة هذه المرة، وكان المخلل المطبوخ والخيار المخلل هو الأكثر قيمة، منذ ذلك الحين لم أجرؤ على الذهاب ثانية إلى ذلك المكان الذي كنت أكسب من خلاله الكثير من المال، وما زلت أبحث عن كشك متكك بالقرب من تقاطع هونغليان شيلي وتايبينغ تشياو. وعندما كان يسود الظلام كل يوم أذهب إلى المسكن بموقع فم العنقاء (فينغ هوانغ زوي) لفرش بسطة البيع، وكنت أبيع بعشرين أو ثلاثين يوانًا كل ليلة، على الرغم من قلة المكسب فإنه أفضل من عدم العمل.

ذات ليلة ساد فيها الظلام، جاء شاب لشراء المخلل، كانت يده سخية جدًا، واختار بعض المخللات الغالية، ثم أعطاني عملة ورقية بقيمة مائة يوان، وأخذتها دون انتباه، وبعد العودة إلى المنزل، بينما كنت أفكر شعرت أن هناك شيئًا خطأ، فأدركت ظهري لأخي، ومشيت سرًا حتى وصلت أمام المصباح، ووجهت هذه العملة الورقية الكبيرة نحو المصباح، وفجأة شعر قلبي بخيبة أمل كبيرة وقلق، وأخذت أنظر إليها وأنا أقلبها وأحركها، كانت صورة الرئيس ماو غير واضحة على الإطلاق، فهي حقًا نقود مزيفة! هذه المائة يوان حصلت عليها بشق الأنفس مقابل ذهابي كل مرة إلى سوق يويقه تشوانغ للجملة وتساقط قطرات العرق على الأرض مع كل خطوة أخطوها. هكذا تعرضت للأذى؛ ولكن أعتقد أنني لا أستطيع أن أؤدي أحدًا؛ لذا مزقت هذه النقود المزيفة إلى قطع صغيرة. ولم أخبر أخي بذلك خشية أن يصيبه الحزن.

في تلك الفترة كانت تسير تجارتي بشكل جيد، ولم تُعق برودة الطقس والطريق الزلق خطواتي أنا وأخي للذهاب لبيع الخضار في سوق الخضراوات، في صباح أحد الأيام ركبت العربة، وعندما كنت أسير بالعربة الممتلئة بالمخللات الممتزجة مع الماء في شرق طريق قوانغانمن تشياو، سمعت فجأة صوت قرعة العجلة اليسرى، فالتفتت إلى الوراء بسرعة، وجدت العجلة اليسرى انقسمت إلى ثلاثة أجزاء على الفور، وحطم ثلثي المخلل على العربة الجزء السفلي من جسمي، ولم أشعر فجأة بقدمي اليمنى، فاعتقدت أنها النهاية، وأصبح المخلل الثقيل جدًا خليطًا كبيرًا، لم يكن أحد مستيقظًا في مثل هذا الصباح البارد، من الذي سينقذني.

في هذا الوقت جاء من الطريق الشمالي الأخ كانغ متجهًا نحوي، وكان يتاجر في القطع الأثرية القديمة في السوق الصباحي بمعبد باو قوه؛ أمسك خصري بيديه وسحبني من وسط كومة المخلل، كانت الملابس التي أرديها ممزقة والبقع تملؤها، إلى جانب معجون الفلفل الأحمر وحساء الملفوف الحامض اللزج، ببساطة كان المنظر مروعًا.

كان الأخ كانغ طيب القلب ويساعدني دائمًا، رافقني إلى قسم إصلاح السيارات لإعادة تركيب عجلة جديدة مقابل 45 يوانًا، رافقني معظم اليوم وعانينا من الجوع والبرد معًا، ولم يمارس تجارته بسببي؛ لذلك شعرت بالامتنان له من كل قلبي؛ كانت الخسارة هذه المرة كبيرة، خسارة في السوق صباحًا وخسارة المخلل، وقدمي اليمنى التي كُسرت وأصبحت أمشي متعرجًا، وعند العودة مررت بمنطقة معبد واننشوان ودفعت 50 يوانًا غرامة لفريق الدفاع المشترك.

أتذكر ذات مرة، ذهبت إلى سوق يويقه تشوانغ للجملة وملأت العربة ثلاثية العجلات بالمخللات، ولم يبق في جيبي سوى بضعة يوانات، لا تكفي لدفع رسوم الخروج، كانت تجمع الرسوم سيده عنيقة، ألقت الفجل الحار على الأرض وسقط الحساء معه؛ بسبب نقص يوان واحد، خلال هذا العام كنت أدفع رسوم الخروج من سوق يويقه تشوانغ للجملة وفقًا لعدد القطع، فكان على كل قطعة يوان، بينما كنت أدفع في سوق شيفادي على العربة الكبيرة المسطحة 3 يوانات بغض النظر عما تحمله، ما دام أن إطار العجلة لم ينفجر.

كان تقاطع غرب سوق هونغليان وتايبينغ تشياو هو المكان الذي نصبتُ فيه بسطة البيع للمرة الأخيرة منذ أن جئت إلى بكين لبيع المخللات، وهذه المرة تعرضت إلى ضربة لم تكن صغيرة، ذات يوم عند الظهر انتهيت من تناول الغداء وهرعت لقيادة العربة وحجز مكان للبسطة، وفي ظهر ذلك اليوم كانت التجارة راكدة، ولم أبع كثيرًا. وحينما كنت لا أجد ما أفعله، ظهر فجأة رجال من التجارة والصناعة ورجال من الشرطة والإدارة الحضرية ومكتب الصحة، فركضت سريعًا أنا وكل من كان ينصب بسطة للبيع لركوب العربات ثلاثية العجلات، وكان الفريق الكبير يلاحقنا بسرعة، لم يكن ذلك المشهد مألوفًا بالنسبة إليّ، واتجهت إلى الجنوب معتقدًا نفسي ذكيًا، وكنت كلما أتجه إلى الجنوب أكثر يصبح الطريق ضيقًا أكثر، وفي النهاية دخلت في طريق مسدود، أعتقد أن هذه المرة كانت مفاجئة، ولم أجروء على الالتفات للنظر إلى الوراء عند قيادتي للعربة، كان هذه المرة فحصًا كبيرًا، وقامت الإدارة الحضرية والدفاع المشترك ومكتب الصحة بمعاقبتي، وسألوني أن أدفع غرامة 50 يوانًا وإلا سئحجز العربة، وكان عليّ أن أقبل العقاب، ومنذ ذلك الحين لم أجروء على نصب بسطة للبيع مرة أخرى والقتال من أجله.

قدوم الأسرة كلها إلى بكين

خلال ذلك الوقت استنفدت كل طاقتي كل يوم؛ حيث أحضر البضاعة وأبيعها وأقوم بغسيل الملابس وطهو الطعام كل هذا أفعله بمفردي؛ اقترح ابن أخي أن أحضر زوجتي لرعاية حياتي اليومية، وبذلك أستطيع بيع الخضار وأنا مطمئن ومرتاح، شعرت أن كلامه منطقي، وفكرت في أن أحضر زوجتي إلى بكين.

كان يراني ابن أخي ياو شينغ بانغ أذهب إلى السوق وأحضر البضائع وأبيعها، وأعود إلى المنزل لطهو الطعام، وبعد تناول الطعام أكافح من أجل بيع البضائع، كنت أستنفد كل طاقتي وأهلك من التعب كل يوم، فقلت: إنه من الأفضل إحضار والدته قوه تشينغ (زوجتي) إلى بكين لمساعدتي في طهو الطعام وغسل الملابس ورعاية المنزل، ولن أكون متعبًا هكذا. شعرت أن هذا التفكير منطقي، وفكرت في أن أنتظر حتى الانتهاء من حصاد الخريف وإعطاء الأرض التي تبلغ مساحتها 3.8 مو3 لشخص آخر يقوم بزراعتها، وإحضار زوجتي إلى بكين.

في أواخر خريف عام 1998، بعثُ أنا وزوجتي نصف مو من السمسم مقابل 180 يوانًا لدفع مصاريف السفر إلى بكين، احتضنت ابني الثاني البالغ من العمر عامين، وأمسكت زوجتي بيد الابن الأكبر الذي كان يبلغ الرابعة من العمر، وركبنا من سوق أوومياو بمسقط رأسنا حافلة نقل صغيرة للاتجاه إلى محطة فويانغ للسكك الحديدية، وبعد أكثر من ساعة وصلنا نحن الأربعة إلى المحطة، وعند انتظارنا في قاعة الانتظار، انجذب الأطفال تمامًا إلى المشهد أمامهم، لا أعرف كم كان هنا أفضل من المنزل البسيط الذي أنفقنا 3200 يوان لبنائه نصفًا من الطوب والنصف الآخر من الطوب اللبني.

بدأت السماء تظلم تدريجيًا، وفجأة أخذ الابنان بيكيان، صاح الابن الأكبر قائلاً: «أبي لنعد إلى المنزل، أريد العودة إلى المنزل». رأيت الطفلان بيكيان مثل الكبار، حاولت أن أمنع عيني من زرف الدموع، على الرغم من المنزل القديم المتهالك؛ فإنه في النهاية هو المكان الذي تعيش فيه عائلتنا معًا. «الابن لا يرى أمه قبيحة»، قد يكون استخدامها هنا غير مناسب؛ ولكن كان هذا هو أكثر شعور حقيقي انتابني في ذلك الوقت.

إن مشهد حب الطفلين للمنزل جعلني أشتاق إلى أيامي مع أبي وعمي الثالث وأخي الكبير واعتمادنا على بعضنا البعض، في الشهر الثاني من السنة القمرية في الشتاء البارد لم يكن لدينا حطب لإشعاله، وكنا نتضام نحن الأربعة التماسًا للدفع، معًا نستطيع هزيمة برد الجسد بدفع قلوبنا.

في مساء ذلك اليوم في الساعة العاشرة وخمس دقائق، استقللنا نحن الأربعة قطار الفلاحين والعمال الأخضر الرخيص لتوفير بعض النفقات، وفي الطريق عانينا العطش والجوع، وكان الطفلان بيكيان بصوت عالٍ. وما لم أتوقعه أنه في منتصف الليل سرقت نفود تذاكر القطار ونفود بيع نصف مو السمسم كلها، في صباح اليوم التالي، عندما وصل القطار إلى مدينة باتشو بمقاطعة خبي، كان الابن الأكبر جائعًا ولا يتوقف عن البكاء، فتحسست أنا وزوجتي كل الجيوب بملايسي، ووجدت 5 يوانات واشترت له علبه من الوجبات السريعة الرخيصة.

في الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم، خرجنا من محطة سكة حديد غرب بكين مفلسين، وطلبت من زوجتي وأولادي الانتظار في الساحة الجنوبية بالمحطة، وأسرعت إلى المكان الذي أستاذره في تايبينغ تشياو، وبعد وصولي لم

أسترح قط، وركبت العربية ثلاثية العجلات وذهبت لإحضارهم، ركبت هذه العربية التي اشتريتها من ابن أخي يابو شينغ بينغ، وأسرعنا إلى المحطة، في طريق العودة ومع زوجتي وأولادي، لم أكن في عجلة من أمري، وكنت أقود على مهل، فعائلتي التي كانت تتركب العربية جعلت قلبي أقوى، رأيت الكثير من الناس تستقل سيارات أجرة، لم أغبطهم؛ لأن الحياة التي تحياها عائلتنا اليوم جعلتني راضيًا جدًا.

وعندما أوشكنا على الوصول، قلت لزوجتي: «انتظري حتى نذهب إلى مسكننا، ولا تتحدثي، لنرى هل سيعرف الطفلان أننا سنعيش هنا؟». استجمعت قواي وركبت العربية وتظاهرت بقيادتها نحو الأمام، وعندما مررنا أمام المنزل الذي استأجرناه، صاح الأطفال فجأة، وكان ابني الثاني هو الأسرع، وقف بسعادة وضرب ظهري وصاح قائلاً: «أبي، أبي. لقد وصلنا. لقد وصلنا».

في ذلك العام كان المكان الذي ينصب فيه أخي بسطة البيع هو سوق خلف مركز التسوق قووها بشارع تشانغ تشون. كان ينصب بسطة البيع في وقت متأخر كل صباح، ويجمعها في وقت متأخر كل مساء. في كل صباح كان الطفلان يرتديان أحذية رأس القطة التي صنعتها أمهما لهما، ويتوجهان نحو الجنوب للحاق بعربة عمهما ثلاثية العجلات، ويضعان أيديهما الصغيرة على نهاية العربة ومطاردتها من الأمام، وملاحقتها حتى الوصول إلى المحلات الصغيرة عند مفترق الطريق الجنوبي، وكان يسيل لعابهما في انتظار العم ليشتري لهما مصاصة، ثم يعودان والسعادة تغمرهما، لم يمتلك أخي مالا؛ ولكنه كان يحب الطفلين كثيرًا، وكان على استعداد لشراء أي شيء لهما.

بعد أيام قليلة من وصول زوجتي إلى بكين، كانت تأكل كعكة البخار بماو و5 فئات، وكنت أشعر بالحزن والألم، لم يكن هناك حل آخر، في ذلك الوقت كنا لا نزال مدينين ببضعة آلاف يوان تكاليف العلاج عند وفاة أبي. كانت كل وجبة نتناولها في الأساس هي قطع المخلل المقطعة بالسكين وبعض الكعك الجاف؛ عندما كان ابني الثاني يرضع، لم أمتلك المال لأوفر التغذية لزوجتي حتى تقوم بإرضاعه، «تناول قطعة واحدة من كعك البخار تجعل وجهك قرمزي اللون»، هذه الجملة تقولها زوجتي الآن لتسخر من كلامي بعد فراغنا من تناول الطعام.

التقاء شخص نبيل وتلقي المساعدة منه

في ذلك اليوم التقيت شخصًا نبيلًا ومهمًا في حياتي، يمد إلي يد المساعدة عندما أكون بحاجة إليها، أنا شخص أعترف بجميل وفضل من يساعدني، وكان شكري له بقلبي دائمًا، وكنت أمل أن يأتي اليوم الذي أرد فيه الجميل.

في اليوم الحادي عشر من الشهر الأول عام 1999، كانت سماء بكين مشمسة، وصلت إلى السوق الثاني سوق شوانومن الصباحي للعمل بجد، خلال ذلك الوقت كنت أبيع المخلل مع بعض الزنجبيل، وبدأت التجارة تتحسن تدريجيًا، في الصباح أنتهي من بيع المخللات الموجودة على العربة، وكان الريح كبيرًا، والسعر الذي أبيع به في المدينة أعلى من السعر الذي يبيع به زملائي في العديد من الأسواق بمنطقة فنغتاي، في ذلك الوقت كان دخلي تقريبًا أكثر من 100 يوان يوميًا.

ذات مرة صعدت إلى الجزء الأمامي من العربة ثلاثية العجلات، وكان زميلي القروي يتبعني، في أول يوم ذهب إلى سوق شوانومن انفجر إطار عربته، ودفعها من السوق إلى المنزل حتى أنهكه التعب وامتلاً جسمه كله بالعرق؛ في اليوم التالي، كان يبيع في الصباح عند التقاطع الشرقي، وبعد الانتهاء من جمع الكشك نركب معاً العربة ونعود، كان يغضب بشدة عندما يراني أبيع كثيرًا، وعندما ذهبنا إلى شرق جسر معبد تيانينغ، التوت العجلة اليسرى بعربته مرة أخرى، وبعد ذلك غضب ولم يذهب. في نهاية الشهر الثالث في التقويم القمري، كنت أتنافس مع زميلي القروي في التجارة، فكنت أبيع نصف كيلو جرام من مخلل سينشوان بسعر 1.5 يوانات، بينما كان لا يبيع على الرغم من أن سعر النصف كيلو جرام عنده 1.3 يوانات، واستمر هذا الوضع لأكثر من نصف شهر.

كان مدخل قسم البيع بالتجزئة لمخللات هواي ماو الموجود يمين محطة الغاز في الشارع الشرقي بسوق شوانومن هو مكاني المؤقت، بغض النظر عن مقدار المال، كان الانتهاء من بيع كل المخلل أمرًا يسعدني، وهنا أيضًا عانيت الكثير، في الصباح كنت أنقل كشك العربة مرات عديدة، وأخذت أفكر بهذه الطريقة متى سأستطيع كسب المال؟ في ظهر اليوم الخامس بعد الانتهاء من جمع الكشك، قال لي الأخ الذي كان يبيع الفاكهة بجواري: «انظر كم بيعت من المخلل وانتقالك بالعربة ذهابًا وإيابًا أمرٌ غير سهل، اذهب إلى الغرب وابحث عن أخ يدعى هوي، واطلب منه المساعدة».

في صيف عام 1999، في الشارع الجنوبي بسوق شوانومن في بكين، قال لي الأخ هوي جينغ شنغ: «يا بائع المخلل عليك أن تأتي صباح غد، لتبيع المخلل تحت شجرة صغيرا اليابان الكبيرة الموجودة عند باب منزلي». في تلك اللحظة علمت أنني التقيت شخصاً نبيلاً، وتذكرت مقولة: «نعمد على الوالدين في البيت، وعلى الأصدقاء في الخارج». أعتقد أنني جئت إلى بكين ليس فقط من أجل جني المال؛ ولكن أيضاً لتعلم كيف أكون إنساناً. بفضل مساعدة الأخ هوي جينغ شنغ، نصبت كشكا لبيع المخلل في الشارع الجنوبي بسوق شوانومن، واستقررت مرة أخرى.

بفضل مساعدة الأخ هوي جينغ شنغ، نصبت كشكا لبيع المخلل في الشارع الجنوبي بسوق شوانومن، ومن خلال بذل الجهود الدؤوبة تحسنت تجارتي تدريجياً، في ظهر ذلك اليوم، اشتريت سمكة الشبوط وعدت إلى المنزل سعيداً، لتحسين الحياة الأسرية، رأت زوجتي السمكة التي اشتريتها، فقالت لي: "يوجد ملابس ولا يوجد قبعة، عليك أن تحمل برميلاً بلاستيكيًا وتذهب إلى الجنوب لشراء زيت السلطة بمبلغ 10 يوانات"، ثم أضافت قائلة: «وبعد أن أنتهي من تقطيع قطع المخلل وتخليله، سوف أجهز هذه السمكة وأغسلها؛ ومن ثمّ تحميرها ظهر الغد».

في اليوم التالي، طوال فترة الصباح، بينما كنت أبيع المخلل، أفكر في جمع الكشك في وقت مبكر والعودة إلى المنزل لتناول السمك، وعند الظهر، جهزت علية المخلل، وكسدتها واستخدمت القماش لتغطيتها، وركبت العربة لأعود إلى المنزل. استغرقت أكثر من ساعة للذهاب من سوق شوانومن حتى الطريق الدائري الثالث الغربي، وكنت سعيداً أتشوق إلى الوصول للبيت، عندما وصلت إلى باب المنزل، وخطت قدمي الباب، رأيت ابني الثاني ياو ووي تحول إلى شخص كبير على وجهه كله وصدرة طبقة كبيرة من البثور، كان المنزل صغيراً جداً، ومساحته أقل من 7 أمتار مربعة حيث نسكن ونضع البضائع، ولم يوجد مكان لوضع مقلاة الزيت فكنت أضعها خلف الباب. في ذلك اليوم، قام ياو ووي الذي يبلغ أكثر من عامين بدفع الباب، واستلقى على مقلاة الزيت الساخنة، وفي لحظة أصيب وجهه كله وصدرة بحرق ليصبح كيشم منطقة خوتان بشينجيانغ. وهذه هي المرة الأولى التي تتحسن فيها معيشة أسرتنا بعد قدومها إلى بكين، والتي أصيب فيها وجه الطفل وأصبح بهذا الشكل. خيم الحزن على جميع أفراد الأسرة، وفي كل مرة أتذكر هذا الحادث، لا أتمالك دموعي؛ كانت النتيجة أننا لم نأكل السمك في ذلك اليوم، وركبت العربة وحملت ياو ووي إلى مستشفى الشارع الرئيس بشرق منطقة فنغتاي، وأنفقت أكثر من 400 يوان.

الوضع مستمر

في يوم ما سوف أتمكن من تحقيق النجاح والشهرة، وأول من سأقوم بشكره هو المعاناة والإحباطات التي تعرضت لها، فبسببها أصبحت أكثر قوة وشجاعة وثقة، وأكثر أملاً في تحقيق مستقبل أفضل.

منذ عام 1997 وحتى عام 2003، أرسلني مركز الاحتجاز أنا وأخي للعمل في شأه بمنطقة تشانغبيونغ ببكين 3 مرات؛ فقدت العربة ثلاثية العجلات 4 مشابك؛ حيث عبث فريق الدفاع بمنطقة معبد وانتشوان بالعربة عن قصد مرة؛ لأقوم بسحب البراز وسحق رماد الموقد قرابة ساعتين؛ في كل يوم أخرج في الصباح وأعود في المساء، ودفعت غرامة على الطريق حوالي 3000 يوان.

ذات مرة، كنت أنا وأخي في سوق الخضار بزقاق وي بينغ في منطقة شيتشنغ ببكين، كان رأس المال والمكسب من البيع في الصباح الواحد 300 يوان فقط، وكنا نتجمد من البرد، وبعد الانتهاء من جمع الكشك في وقت الظهر، بدأ التجار في السوق بركوب العربة واحداً تلو الآخر والتوجه إلى ممر عرضه أكثر من متر بالشارع الشرقي بسوق شوانومن، وكان الجريء منهم يمشي في المقدمة، والكل يمر بسلاسة، ولسوء الحظ قبض على اثنين جبناء من قبل الشرطة، ودفعوا غرامة 200 يوان.

في أحد أيام نهاية الشهر الثالث وبداية الشهر الرابع في التقويم القمري عام 1999، كنت أدفع العربة في سوق شوانومن لبيع قطع المخلل، وعند الظهر جمعت الكشك وأخذت العربة وعدت إلى المنزل بسرعة، وبينما كنت أمر على جسر قوانغنانم متجهاً ناحية الغرب تحت جسر شوبا كوتشواو، اصطدمت بشخص كان قد فرغ من العمل لتوه، في ذلك الوقت كان هناك شخصان يتجهان غرباً، سحبتهما فرامل اليد بعيرتي مقود دراجة أحدهما. وسقط هذا الرجل بعيداً مع انحدار عربتي، وسقطت صفارة النداء التي كانت معه وكُسرت، أراد الشخصان أن أدفع لهما تعويضاً، وعندما رأيت مثل هذا الشيء القيم قد كُسِر، شعرت أنني لن أستطيع تعويضه ولو بعمرتي، كان رأس المال والمكسب من بيع المخلل في الصباح 300 يوان، وبخضم رأس المال والطعام والسكن لن يتبقى من المال شيء.

طلب مني الرجلان الاتصال بالشرطة، في ذلك الوقت لم ألمس الهاتف، عندما كنت أعمل في الموقع من قبل وأود معاودة الاتصال بالمنزل، أطلب من الآخرين مساعدتي، أصر هذان الرجلان أن أدفع لهما تعويضًا، فلم يكن هناك حل آخر، فاضطرت إلى رهن العربة والبضائع والميزان الذي اشتريته عندهما، وركضت إلى المنزل لأحضر المال، أنا شخص فقير وسعيد، بغض النظر عن مقدار المال الذي أكسبه، كنت أدندن لحناً صغيراً عند صعود العربة ودخول باب المنزل، وكل يوم في اللحظة التي يُصدر فيها صوت صرير الفرامل وهي تحت قدمي، يقفز الطفلان نحوي لاستقبالي، في ذلك اليوم عدت إلى مكان سكني منقطع النفس فارغ اليدين، ورأتني زوجتي على غير العادة فسألتني: ماذا حدث؟ لماذا يبدو وجهك عابسًا؟ وأين عربتك؟ فقلت لها بفضاضة: «تعرضت لحادث أثناء عبور جسر قوانغانمن متجهًا ناحية الغرب تحت جسر شوبا كوتشياو». بعدما سمعت زوجتي هذا الكلام لم تغضب بل أخذت تواسيني قائلة: «هل مرت أسرتنا بأشياء وحوادث قليلة؟ لا شيء يحدث بإرادتك».

كان أسلوب زوجتي غير مفهوم بالنسبة إلى الكثير من أهل القرية، إذا حدث هذا الأمر داخل القرية، فبالتأكيد سيكون هناك من يقول: «لا بد أن زوجة دا شي تشاجرت معه في المنزل مشاجرة كبيرة وضربته ضربًا مبرحًا». عندما كانت الأم في منزل ياو تعرضت للاستقزاز والنزاع معهم، وعند رؤية الأب يقولون: إن الأم سيئة. وعند رؤية الأم يقولون: إن الأب سيئ. عندما وُلد ابني الأكبر كنت سعيدًا، وأردت أن أضع فيلمًا لأهل القرية ليسعدوا بمشاهدته، وبعد ذلك بسبب سوء الأحوال الجوية، قال سكان القرية: «غضبت زوجة دا شي وقفزت ثلاثة أقدام ارتفاعًا في المنزل، وصبت على دا شي سيلاً من الشنّام». في الحقيقة كان هذا كله من تلقفهم.

عندما كنت أعمل في ويهاي أحضرت عدة قطع من البلاط الخزفي من الموقع، وأردت هدم سطح الموقد القديم، وبناء آخر جديد، في صباح ذلك اليوم، كان ابني الأكبر قوه تشينغ يراقب ياو ووي الذي بدأ يمشي لتوه، ولم تساعدني زوجتي على عمل بلاط الفناء، فطلبت منها أن تأخذ الأبناء وتذهب إلى أقاربها. فهي لم تذهب لزيارتهم منذ عدة أشهر، ولا مشكلة من أن تقتطع وقتًا وتذهب إلى زيارتهم، فلتخمن ماذا قال أهل القرية؟ كانوا يقولون: إن دا شي لم يصنع الموقد الذي كانت تريده زوجته، فغضبت وذهبت لزيارة أقاربها، ومع ذلك، لم أغضب أنا وزوجتي بسبب هذا الأمر، وللتعبير عن مشاعرنا تجاه الآخرين استخدمنا المقولة القائلة: وضع «فن» 4 واحد في حوض الماء – استيعاب الأمر جيدًا واعتبرنا أن اهتمامهم بعائلتنا هو كلامهم الساخر الذي كانوا يتبادلونه مع بعضهم البعض.

في ظهر ذلك اليوم، ذهبت مع زوجتي وابن أخي ياو شينغ بانغ طيب القلب لاستعادة العربة، وبعد الوصول إلى المكان لم أر ظل هذين الرجلين، على الرغم من أن العربة ثلاثية العجلات قديمة، فإن قيمتها تستحق 300 يوان، والميزان الذي اشتريته جديدًا كان سعره 100 يوان، هذا بالإضافة إلى البضائع المجزأة، التي كانت قيمتها ألف يوان، لقد خسرت الكثير من المال؛ ولكن لم تزعجني زوجتي؛ بل أخذت تواسيني قائلة: «المال يذهب وتبقى سعادة الإنسان وهي أفضل من أي شيء، سنبدل بعد ذلك مجهودًا أكبر لاستعادة ما فقدناه». منحنى كلام زوجتي راحة كبيرة، وعندما كنت أفكر في هذا الكلام كل يوم يشعر قلبي بالدفء.

في خريف عام 1999، بفضل المعروف الذي قدّمه جاري القديم بالبلدة شو جيان، انتقلنا إلى بي تاي بينغ تشياو، وكان هناك مأوى جديد لنا عند تقاطع شارع دونغ قوانتو وايفنغ بنغ، وهو منزل متواضع مكون من غرفتين، وما لم يتوقعه أحد هو أن هذا المنزل المتواضع كان من المباني غير القانونية، ودائمًا ما يأتي رجال الشرطة وفريق الدفاع المشترك للقبض على الناس وفرض الغرامات.

بعد ظهر اليوم الذي انتقلت فيه عائلتنا لتوها إلى هذا الفناء، ركبت دراجتي من سوق الجملة شينفادي، واشترت بالجملة عدة حزم من المخمل بالخردل لأخللها ثم عدت إلى المنزل، وفي اليوم التالي استعددت للذهاب إلى السوق لبيعها؛ وفي الساعة الثانية تقريبًا كنت مشغولاً بوضع مخمل الخردل الذي اشتريته داخل جرة المخمل، وانشغلت بالترحيب بالزبائن ولم أول اهتمامًا للمحيطين، إلى أن سمعت صوت طرق الباب من الجانب الشرقي، فأدركت وجهي لأجد صفًا من الأحذية الجلدية السوداء تحت الباب الحديدي، فكان فريق الدفاع المشترك! كان كل سكان هذا الفناء الكبير عمالًا مهاجرين من جميع أنحاء البلاد، ولحظة أن سمعوا بقدوم فريق الدفاع المشترك، تراحموا كأسراب النحل وركضوا نحو الخارج مخاطرين بحياتهم.

وفجأة أصبح الفناء الكبير الذي كان هادئًا كمكان يسكنه مجانين ويسوده الهرج والمرج، كان الفناء ممتلئًا بالناس الذين قفزوا لأسفل هربًا من فريق الدفاع؛ أرعيني هذا المشهد المثير، وسرعان ما ذهبت إلى زوجتي ووضعت الأطفال فوق السرير

وأغلقت المنزل، ثم اندفعت نحو الخارج، واختبأت في مكان يبعد عن المنزل بعشرات الأمتار، وسمعت شخصاً يصيح قائلاً: «هناك طفل يبكي داخل تلك الغرفة بالناحية الغربية». وشخصاً آخر لا أعلم من هو صاح قائلاً: «سحبوهم جميعاً، يأخذون» من ليس لديه تصريحاً»، وبعد أكثر من عشر دقائق، خيم الهدوء مرة ثانية على هذا الفناء الكبير، وعندما التفت رأيت المنزل الذي نسكنه مفتوحاً، وبعد أن تخطيت عتبة الباب رأيت الطفلين يبيكان كالكبار.

أن تحيا، لا بد من أن تتعرض للمعاناة والشقاء؛ رأيت هذه الجملة من قبل: «يجب على الإنسان تعلم النظر إلى الأشياء من منظور مختلف حتى يتمكن من رؤية المشكلة»، نعم، إذا نظرت إلى كل المعاناة والشقاء اللذين تعرضت لهما من منظور آخر، لأصبح ذلك عاملاً إيجابياً لتعزيز نموي وتقدمي.

اتخاذ الصعوبات نقطة انطلاق

اقتبست هذه الجملة من كتاب: السكين لن يكون حاداً إلا بشحذه، والإنسان لن ينجح إلا بالكفاح وتحمل الصعاب. هذه الجملة جعلتني أفكر في أن الذين قاموا بأذيتي يستحقون الشكر أكثر من هؤلاء الذين قدموا لي الإرشاد والدعم، بغض النظر عن أهدافهم؛ لأنهم عندما يقومون بأذيتي هم بذلك يساعدونني؛ فقد جعلوني أنضج وأتقدم، وفي النهاية أمضي قدماً نحو النجاح.

كان يبعد المرحاض عن باب هاتين الغرفتين اللتين تسكنهما عائلتي ثلاثة أمتار، أما الجانب الجنوبي فكان ثلثه محاطاً بالقمامة، وفي الجزء الخلفي من المنزل يوجد المبنى الشاهق الذي كنّا نحسد عليه وهو مبنى مكاتب هوا شنغ. كنت أركب العربة ثلاثية العجلات وأنشغل طوال اليوم ولا أنتقل إلى المنزل الجديد سوى الساعة الثانية بعد الظهر، كنّا نسكن هنا مع العشرات من أهل القرية، وخلال العامين اللذين قضيناها هنا، حققت إنجازات عظيمة.

كان مسكن أصحاب المنازل السيد شو يونغ تشيانغ وشو يونغ هاي هو الفناء الكبير، كان يسكن هذين الفناءين عمال مهاجرون من جميع أنحاء البلاد، بما في ذلك عشرات الأسر من مسقط رأسي، كانت الظروف الاقتصادية لعائلتنا لا تقارن بهم، كان الكثير من الزملاء يتناولون على دعوة الضيوف، ويتبادلون الحديث قائلين: تعال تعال إلى منزلنا لنشرب كوبين. وفي كل مرة يلامس هذا الصوت أذني، كان ما يتقوه به فمي هو مواساة نفسي وليس حسداً، كانوا يمرون من أمامي عند دعوتهم للضيوف مرات لا حصر لها، وما كان بوسعي سوى التظاهر بعدم رؤيتهم؛ لأنني لا أستطيع دعوتهم وإقامة مأدبة لهم، ولم أستطع قول كلام أظاھر به، فخشيت أن أذهب وأشعرهم بالخجل، منذ أن ذكرت ذلك الموقف حتى الآن، قالت لي عمّة في قريتنا هذه الجملة: «دا شي، عندما تتزوج شياو هونغ، تعال إلى بيتي لمرافقة الضيوف». ونصححتني أن أتذكر ذلك الأمر؛ وبالفعل عندما حان وقت الزفاف، نسيت زوجتي الأمر، وكنت سعيداً جداً؛ كان الضيوف الذين دُعوا يتمتعون بالشهرة والمكانة.

في عام 1999، كنت أعمل في سوق شوانون من ليلاً ونهاراً، وأتحمل الصعاب حتى تكون العربة ثلاثية العجلات المسطحة سمائي، على الرغم من أنني أنتمي إلى برج الفأر، فإنني لست قصير النظر، وأفضل دليل على ذلك هو بيع الخضار في هذا السوق، بدأت عائلتنا تشرب عصيدة الأرز، وتتناول ثلاث وجبات ساخنة يومياً من هذا السوق.

في الشهر الرابع في التقويم القمري هذا العام، عندما حان وقت الربيع وبدأت الزهور تتفتح في بكين، بدأت تجارتنا في الانتعاش، لم يكن هذا المال الذي أكسبه من تجارتي يعادل الفكة المتبقية من المال الذي يكسبه التجار الأغنياء؛ ولكن مقارنة بالماضي هو فرق بين السماء والأرض، لم أكن أفضل من حيث الثراء، ولكني أستطيع تحطيم الرقم القياسي العالمي في الشقاء والمعاناة؛ كنت أذهب من الطريق الدائري الغربي الثالث إلى سوق زقاق وي بينغ خلف المسرح الوطني الكبير لبيع الخضار، معتمداً على قيادة العربة ثلاثية العجلات في قطع هذا الطريق الطويل؛ فضلاً عن ذلك السوق البعيد عند الأواني الخزفية بمنطقة تشونغون، ويمكنني القول: إنه لا أحد يستطيع ركوب العربة ثلاثية العجلات وقطع مثل هذا الطريق الطويل لبيع الخضار.

ذات يوم، عدت من سوق شوانون الذي كنت أبيع فيه المخللات، كانت حوالي الساعة الواحدة ظهراً، وركبت العربة ثلاثية العجلات وكنت منهكاً من التعب، والعرق يتدفق من جسدي، وعندما مشيت إلى مكان يبعد حوالي 30 متراً، سمعت صوت شخص يسبني؛ في صباح ذلك اليوم، كان يلعب ابناي قوه تشينغ وووي مع الأطفال داخل الفناء، وكان يشكو شأنها من ضجيجهم؛ ولكنه لم يجرؤ على قول ذلك للأطفال الآخرين؛ بل جاء لينتأجر مع أطفاله، وقال: إن كل هذا بسبب ابني قوه

تشيونغ. لا يعلم أفراد عائلة شانها كم مرة تشاجروا مع كبار وصغار عائلتي، كنت في كل مرة أظهار أنني لا أعرف، وعندما التقي أنا وهم في الأوقات العادية أبتسم وأرحب بهم.

في عام 2000، استقر كشك عائلتي في سوق المزارعين بزقاق وي بينغ، وكنت أركب العربة أنا وأخي من الطريق الدائري الغربي الثالث إلى وسط المدينة كل يوم ذهابًا وإيابًا، هذا التعب لم يشعر به زملاؤنا القرويون قط؛ وحتى الآن تنقلت بين 8 أسواق في بكين، ولم تكن العربة التي أستخدمها في التجارة تتحمل حتى تركيب محرك واحد؛ خلال أكثر من عشر سنوات في بكين انتقلت من منزل لآخر 9 مرات، وكنت أركب الدراجة القديمة ماركة «المسيرة الطويلة» عند البحث عن منزل.

ذات يوم بعد الانتهاء من تناول وجبة الغداء، ذهبت إلى وسط المدينة لأبحث عن سوق ومكان للكشك؛ اتجهت من ميدان تيانانمن حتى وصلت إلى الشارع الرئيس بينشيتزي، ثم مررت بشارع وانغ فو جينغ؛ ومن ثم توجهت إلى سوق طريق ياباو؛ في ذلك اليوم وصلت إلى المنزل في الساعة الواحدة صباحًا، جادت عليّ السماء بعاصفة وأمطار غزيرة، والمذهل أنني ذلك الشخص الذي لم تكن الحياة مألوفة بالنسبة إليّ، وأرتدي ملابس بالية، لم أجد مكانًا أحتمي فيه من المطر، فكنت أتجمد تقريبًا.

في ذلك العام كانت بكين في شهر يوليو بقعة ساخنة لا تُطاق، والأكثر حرارة من الطقس هو حماسي وشغفي لكسب المال، عندما كانت تجارتي في بكين تسير بسلاسة، تعرضت زوجتي لمرض مميت، في البداية كنت أخذ زوجتي على دراجتي ونذهب إلى عيادة صغيرة بسانلو جو بمنطقة فنغتاي، ثم انتقلنا إلى مكان تبلغ مساحته 7 مترات مربعة بمنطقة وانليويوان؛ وأخذت حقنة وريدية عدة مرات؛ في ذلك الوقت أخذت زوجتي إلى كل مكان شرقًا وغربًا للعلاج؛ ولكن كانت حالتها سيئة، وتزداد خطورة مرضها أكثر فأكثر.

كان بداخل الفناء الذي نسكن فيه زميلة من حاضرة فنغتاي، كانت ترانا مثل العميان الفوضويين، وقالت: "من الأفضل أن نذهبوا إلى مستشفى فنغتاي الكبرى بالناحية الغربية لفحص المرض، وعدم التأخر في العلاج". في ذلك اليوم بعد الانتهاء من تناول وجبة الغداء، ذهب أحد أقارب صاحب السكن إلى مستشفى فنغتاي أيضًا، وركبنا سيارة هذا الشخص الطبيب وذهبنا معًا إلى المستشفى، أنا شخص ليست لدي خبرة، وحتى الآن لا أزال مثل الأحمق لا أميز الاتجاهات في بكين؛ وصلنا إلى المستشفى في هذا اليوم، ولم أكن أعرف شيئًا، وبفضل مساعدة الأخ قريب صاحب السكن. بعد أكثر من ساعتين، جاءت نتيجة فحص زوجتي، صاح الطبيب قائلاً: "رقم المريضة لي رونغ". لحظة أن سمعت اسم زوجتي، سندت زوجتي المريضة الضعيفة قليلاً قليلاً إلى أن جلست أمام الطبيب، وعندما نظر الطبيب إلى نتيجة الفحص قال: "إنك تعاني من مرض التهاب الكلى". وحالما سمعتُ الطبيب يقول: التهاب الكلى. أحسست بالرعب، فقد سمعت من قبل في البلدة مقولة: إن الرجال يخشون من الإصابة بمرض الكبد والنساء يخشين من الإصابة بمرض الكلى. رأنا الطبيب عمالًا مهاجرين من مكان آخر، فسالنا: "هل لديكم مصدر دخل لدفع التكاليف؟". فأجبت قائلاً: "أعتمد على القيام بأعمال تجارية صغيرة لإطعام أسرتي، وليس لدي أي مهارة كبيرة". أخبرني الطبيب أن مرض زوجتي سوف يكلفني الكثير من المال، وأنها تحتاج إلى البقاء في المستشفى لمدة شهر. فشعرت أنا وزوجتي بالقلق؛ في ذلك الوقت كان يتوجب على زوجتي أخذ دواء "أقراص التهاب الكلى"، ولم يوجد بالمستشفى هذا الدواء، فركبت دراجتي المتهالكة وذهبت إلى العديد من الصيدليات لشراء هذا الدواء، وفي الليلة نفسها ذهبت إلى سوق الجملة شويتون ببكين لاقتراض بعض المال من زميلي، وبحقن زوجتي بالبنسلين استطاعت السيطرة على المرض، إذا لم يتم حقنها بهذا الدواء، لما استطعنا البقاء في بكين.

اتخذت من كل هذا نقطة انطلاق لتمهيد المضي في طريق الحياة، كنت أعتقد أن إثبات قدراتي أفضل من الغضب من الآخرين، وقيادة الأسرة كلها أفضل من تحول الوجه عنهم، هامت عائلتي بعيدًا؛ ولكن رؤية تقدمي شيئًا فشيئًا بعيني وتذكره في قلبي هو أمر جيد، فوقفت على أرض صلبة، وكنت دائمًا أخلق سماء خاصة بي.

قدوم الأقارب إلى بكين لأول مرة

بدأت بيع المخلل منذ فترة وجيزة، وفكرت في إحضار أقاربي إلى بكين، فعلت ذلك في محاولة لتحسين حياة أسرهم، وأن يتمتعوا بحياة سعيدة في وقت قريب؛ كنت أطلع كثيرًا إلى أن تعيش العائلة كلها معًا وتقضي أيامًا سعيدة.

في خريف عام 1999، قضت عائلتنا في بكين عامًا كاملاً، وكانت أسواق الخضراوات ثابتة؛ ولكن لم نشتر الأواني والمقالي بالمنزل. قبل يومين من الاحتفال بالعيد الوطني، علمت أنه فُتح سوق صباحي جديد بالقرب من حديقة داقوان يوان، في ذلك الوقت فكرت فجأة في الاتصال بأحد أقاربي، للقيام ببعض الأعمال التجارية الصغيرة في بكين. في تلك السنوات القليلة كان العمل بالتجارة أفضل من العمل كعامل في موقع؛ في السنوات التي عملت خلالها في الموقع، أكثر شيء لم يكن واضحاً بالنسبة إليّ عند تناول الطعام في المطعم هو عدم قول عبارة: «أريد الطعام في وعاء كبير»، والخضار كان لا يُقطع بالسكين بل يُفرم، والأطباق المقلية لم تكن مقلية بل مغلية. بعد غلي الوعاء الكبير، يضع الطباخ بعض الزيت عليه، وتطفو طبقة المرق على سطح الوعاء، ويبدو الزيت كثيراً جداً. في الواقع، لم يُستخدم كل شيء في مكانه الصحيح؛ فعند غلي الطعام لا يجب استخدام مجرفة الوعاء؛ بل نستخدم مجرفة كبيرة؛ كنت شخصاً مجداً في العمل بالموقع، وفي وقت الفراغ أذهب لمساعدة الطباخ، وكان يعطيني ملعقة صغيرة إضافية من حساء الخضار؛ كانت شهيتي للأكل كبيرة؛ لأنني عند الصغر لم أر قطرات الزيت، ولم يكن الطعام الذي أتناوله كافياً. كنت أتناول بقايا الطعام خلال هذين العامين في وبهاي، وكان سعر نصف الكيلو جرام من الأرز في هانغتشو 9.5 ماوت، وفي موقع طريق هونغمي بقرية تشي شين بشنغهاي، اشترت أنا وأخي وعاء من الرصاص ليكون وعاءً للطهو وحوضاً للغسيل، وكنت أنا وأخي نطهو المعكرونة في كل وجبة، وبدخل الزنجبيل الفاسد نضع بعض الملح لتناوله كطعام؛ في الحقيقة لم تكن الحياة في الموقع جيدة.

لذا اتصلت بقريبي، ليأتي إلى بكين في أقرب وقت ليحجز لنفسه مكاناً جيداً؛ وفعلت ذلك أملاً في أن تبذل العائلتان جهودهما معاً للتمتع بحياة أفضل؛ في ذلك الوقت لم أكن قادراً على إجراء اتصال هاتفي؛ لذلك طلبت المساعدة من شخص آخر؛ وبعدما جاء قريبي إلى بكين، أصبحنا نبيع المخلل معاً، وفي كل مرة نذهب معاً إلى شينفادي بقرية يويهقه تشوان لشراء البضاعة في الصباح ونعود في المساء.

عمل قريبي بالقرب من حديقة داقوان يوان ببكين أكثر من شهرين، وعلى الرغم من أنه لم يكسب الكثير من المال؛ فإنه استطاع الحفاظ على المستوى المعيشي لحياته؛ في ظهر أحد الأيام، انتهيت من جمع الكشك بسوق شارع تشانغ تشون، ثم ذهبت إلى كشك قريبي، فقال لي: من الأفضل أن نذهب بعد الظهر إلى ووكه سونغ، لنرى السوق الصباحي الجديد الذي فُتح هناك. وبعد ظهر ذلك اليوم ركبنا أنا وهو العربة ثلاثية العجلات واتجهنا نحو ووكه سونغ بسرعة، وبعد ذلك استطاع قريبي أن ينصب كشكاً هناك.

كانت تسير تجارة قريبي في ذلك السوق على ما يرام، بغض النظر عن مقدار المال الذي كان يكسبه، كانت حياة الأسرتين معاً أفضل من أي شيء؛ كل عيد يأتي إلى بيتي للاجتماع والاحتفال معاً؛ عمل قريبي في ذلك السوق لمدة عامين، في ذلك الوقت، خلال مهرجان عيد الربيع كل عام أكون موجوداً في سوق شوانومن وسوق زقاق وي بينغ؛ كان الإقبال على شراء المخلل في تلك الأيام قليلاً، وكنت أذهب إلى منطقة تساي هو بينغ لإحضار عدة براميل من السمك الهلامي وأشياء أخرى لبيعها، وجلب المزيد من السلع الأخرى لكسب المزيد من المال، ولم أنس إحضار قريبي في ذلك الوقت.

في شتاء عام 1999، سمعت أنه سيتم إلغاء سوق ووكه سونغ الذي كان يبيع فيه قريبي؛ في ذلك الوقت من حسن الحظ كان يوجد كشك جيد بجواري؛ في صباح ذلك اليوم ذهبت أبحث عن المسؤول لأتناقش معه في ذلك الأمر، حتى يأتي قريبي للعمل بجواري، لم أتوقع أنه سيلبي طلبتي، عندما انتقل قريبي إلى سوق ووكه سونغ كنت مشغولاً ولم أساعده؛ ولكن هذه المرة لا بد أن أساعده حتى النهاية؛ بعد أن رتّب شؤوننا بدأنا في نصب الكشك معاً، وتساقط المطر عدة مرات وأسرعنا لنقادي المطر، وأقرضته مظلة؛ اعتقد أنه كان يخشى أن تبطل البضاعة بفعل المطر؛ بينما كان المخلل الذي أبيعته بداخل جرة، ولو ابتلت الجرة فلن يكون هناك مشكلة؛ وحتى لو ابتلت أنا شخصياً فالأمر يسير، أنا لم أشهد سوء الأحوال الجوية من قبل؛ الناس غالباً ما يقولون: في يوم الثلوج نمح الآخرين الفحم للتدفئة، وهذا فعل جيد خير، أتذكر هذه المقولة دائماً.

اختبار الحب الأسري

انتقلنا من الفناء الأمامي إلى الفناء الخلفي، وسكنت أنا وقريبي معاً؛ كان يحب أولادي جداً، ويرعى العائلة بأكملها، ولكن لم يمر عام على الأيام السعيدة التي قضتها العائلتان، حتى مر الحب والمودة بيننا باختبار.

قبل قدوم الأقارب إلى بكين، بدأ سكان القرية في الحديث عنهم الواحد تلو الآخر: «سيذهب دا شي إلى بكين وينعم بحياة سعيدة، وبعد ذلك سوف نجتمع دائماً، ولن نتعارك كل يوم». بغض النظر عن أن ما يقولونه كان عن قصد أم لا، فقد جعلني أشعر بعدم الارتياح: لم يوجد في حياتنا دائماً أشخاص مملون يتناقشون في شؤون عائلتي؟

كانت تجارتنا تسير بشكل جيد، على الأقل كانت في الصدارة في هذا الفناء الكبير، وقبل ذلك كان هناك رجلان لقبهما ياو تعرضا للظلم من قبل أسرة شو، وكنت أنا الثالث؛ فكان هناك رجل يدعى شانهاوا، وبخنا عدة مرات وقال: إن عائلتنا ليس بها رجل جيد. وتعرضت أنا وهذان الرجلان للضرب منه؛ دائماً ما كنت أتعرض للظلم والإساءة في القرية، وعندما انتقلت إلى هنا تعرضت أيضاً للإساءة والتعذيب، كل هذا لم يكن شيئاً، أكثر ما لم أتحملة، هو أنهم كانوا يضللون قريبي بكلامهم المزخرف، فبدأت أشعر بجفاء بيننا، وفي النهاية كان معهم ضدي؛ كنّا نسكن جميعاً في مكان واسع، ونذهب في الصباح ونعود في المساء لتوفير الوقت، وكان استخدام السيارة كل مرة في تغريغ البضاعة أمراً مريحاً. وتجارتي التي مارستها عدة سنوات جعلت الغيرة تملأ قلوبهم؛ ولكنهم لم يعرفوا أنني أذوق المرارة التي لم يتذوقوها: من الطريق الدائري الثالث الغربي في بكين إلى غرب مركز التسوق شيدان، وهو المكان الذي لا يذهب إليه الناس العاديون، وكنت أقطع ذلك الطريق البعيد راكباً العربة وسط الرياح والأمطار وأذهب لبيع البضاعة، وكسب المال من عمل يدي.

في خريف عام 1999 حتى خريف عام 2001، سكناً عند تقاطع شارع دونغ قوانتو وايغونغ ينغ بمنطقة فنغتاى ببكين لمدة عامين، خلال هذين العامين عانت عائلتنا كثيراً؛ تلقت زوجتي ضربة بالجاروف من أشقاء شانهاوا، وخاف أخي الأعزب عندما قالوا: إنهم سيطعنون أفراد الأسرة الخمسة بالسكين. لم يكن هناك فرد في عائلتنا يُرضي أعينهم؛ كان أشقاء شانهاوا أشخاصاً يرهبون الضعيف ويخافون من القوي، ولا يقاتلون من هو يُرضي أعينهم؛ عندما كان ابني الأكبر قوه تشينغ في قرية شويينغ الكبيرة، مزقت زوجة شانهاوا البكماء وجهه من الضرب، كما ضربته بقضبة يدها على رأسه، وبعد فترة طويلة من قدوم قوه تشينغ إلى بكين، كان يقول دائماً: إن رأسه ليس في حالة جيدة.

في عام 2001، كانت تحيط الغيوم الداكنة بالمنزل كله، وبعد مرور أكثر من نصف عام لم يتحسن مرض التهاب الكلى الذي كانت تعاني منه زوجتي، وكان ذلك هو أكثر وقت أخشى فيه الغضب، فأنا شخص "كلما خشي لدغ القمل انجذب إلى جسمه". كانت ترقد زوجتي المريضة على السرير، بينما كانت زوجة قريبي بالخارج تصيح قائلة: "اليوم هو الأول من مايو، استنذع أمك لتساعدني ببديها الماهرتين". ذات يوم مرضت وكنت أخذ الحقنة لمدة أسبوع، وقالوا لي: "أن أنتقل إلى الجنود وأقاتل معهم". لم أنعم بالنوم طوال الليل، ولم أستطع تأخير عملي بالتجارة في النهار، حاولت في ذلك الوقت أن أبذل قصارى جهدي، كل هذا لأن تجارتي كانت تسير بشكل جيد، والغيرة تملأ قلوب الآخرين، حتى تحوّلت إلى عذاب بالنسبة إلينا. في ذلك الوقت كانت زوجة قريبي شريكة مع هؤلاء الناس، ألا يعادل ذلك صب الماء البارد على جسمي في الشتاء؟ ولحظة أن يروني يحدقون بأعينهم، وعندما يرون الزملاء الآخرين، يبتسمون على الفور؛ لماذا يفعلون هذا؟ لأن تجارتهم مزدهرة، فلا يحتاجون إليّ. في ذلك الصيف ازدهرت تجارتهم بشكل لا يُصدق، فكانوا يسحبون أكثر من 500 كيلو جرام من السلع يومياً، وتُباع كلها للبائعين بالجملة بعد وصولها إلى السوق بأكثر من عشر دقائق، وكان يعتمد الزوجان النوم تحت الشجرة الموجودة في الجنوب، وكان صوت الشخير مرتفعاً متعديناً إغضابي.

أنا شخص صادق لا أجيد قول الكلام المنمق، ولست ماهراً في قول الكلام المنطقي؛ على الرغم من أنني غيّ، فإنني أعلم أن الغضب هو أكثر شيء لا يستحق الاهتمام؛ نحن نمارس القليل من التجارة، ونقضي الأيام بكل سهولة، ولا نحقد على من يحيا أفضل منا؛ حوّل قريبي تجارته بعد ذلك إلى التجارة في الخضراوات، ونقلت المخلل المتبقي عنده مقابل المال، وقال: إنه يهديني صلصة الصويا المتبقية في البرميل البلاستيكي؛ ولكن بغض النظر عما قاله فأنا لم أكن أريدها، تدرك مدى فقر عائلتنا، ولكننا لا نحب الربح على حساب الآخرين.

في ظهر أحد الأيام، انتهت عائلته من جمع الكشك وعادوا إلى المنزل، بينما قمت بلف القماشة التي كانت على العربة ووضعها على الأرض، ثم وضع علبة المخلل على القماش، ودون وعي قمت برش حساء المخلل على كشكه. فقال: إنني متعمد فعل ذلك. وبعد وصول أبنائه إلى بكين، لم يتواصل معي قط، وبسبب هذه الأشياء الصغيرة لم أسلم من شره.

خلال ذلك الوقت كنت أعتقد دائماً أن الحزن والصعوبات ما هي إلا ممارسات حياتية؛ لذا أردت أن أشكرهم على ذلك؛ لأنهم ألهموني القدرة والإرادة، غالباً ما أفكر: ما القدرة التي تجعلني أوصل المثابرة؟ أعتقد أن الإيمان بأن تحيا العائلة حياة جيدة ركيزة أرتكز عليها، وعلى الرغم من كل المصاعب التي أواجهها في كل خطوة أخطوها، فإنني أمضي بكل ثبات.

الجين: نصف كيلو. 1-1 الجين: نصف كيلو. 2-1 المو: وحدة مساحة صينية تساوي 0.0667 هكتار. 3-1	4-1
---	-----

الفصل الرابع: أيام عصيبة، علينا الاجتهاد لتخطيها

غالبًا ما نرى الكثير من الناس الذين يرتدون ملابس جميلة زاهية يشكون من حياتهم الصعبة، وربما هم يعانون نوعًا آخر من المتاعب، ولكن أعتقد أنه ينبغي ألا تلهج ألسنتنا دائمًا بالشكوى، فإذا كانت الحياة قاسية اضحك لها، وعلينا أيضًا أن نؤمن إيمانًا راسخًا بقانون التغلب على الشدائد، فعند مواجهة الصعوبات اجعل المحنة ماضيًا يرحل واستقبل مستقبلك المشرق.

خسائر فادحة بسبب الاختباء من الإدارة الحضرية

منذ الصغر وحتى الكبر، لا أعرف كم الأشياء السيئة وسوء الحظ الذي رافقتني، كنّا نربي الفراخ في منزلنا ونعطي بيضها للآخرين، ولم تمر ساعتان على وصولي بكين حتى تصيب العرق خوفًا من فحص فريق الدفاع المشترك للتصريح المؤقت، وفي اليوم التالي كسر الميزان، وسُرقت أول 10 كيلو جرامات من الزنجبيل أحضرتها، وبدأت لعبة القط والفأر بيني وبين الإدارة الحضرية، وكل هذا يبدو قليلًا جدًا.

كان الباب الشرقي لحديقة شوانوو خلف سوق معبد باو قوه ببكين هو السوق الرابع الذي نصبت فيه الكشك، وهنا كنت أبيع المخلل في الصباح لمدة 3 أيام، ولعبت مع الإدارة الحضرية لعبة القط والفأر 7 مرات؛ وعلى الرغم من أنهم لم يفرضوا عقوبة عليّ، فإن الخسارة أكبر من العقوبة.

في اليوم الرابع بعد وصولي إلى بكين بدأت التعامل مع الإدارة الحضرية، ألقى فريق الدفاع المشترك القبض عليّ في المنزل، وركبت العربة ثلاثية العجلات في طريقي لدفع الغرامة للشرطة، وكانت أكثر مرة دفعت غرامة هي عندما دفعت أنا وأخي 200 يوان، كان فريق الدفاع بمنطقتي سانلوجو وشيتيه بينغ يفحص تصاريح الإقامة المؤقتة ليلاً ونهارًا، وحالما يرون عاملًا مهاجرًا يركب عربة ثلاثية العجلات يقبضون عليه، في ذلك الوقت عندما كنت أسمع عبارة «ثلاثية العجلات» لا أفكر بل أجهز بسرعة 50 يوانًا، فالمال الذي نكسبه من التجارة لم يكن أسرع من ألسنتهم، كان فريق الدفاع يطلب الاطلاع على بطاقة الهوية وتصريح إقامة مؤقتة وبطاقة صحية، وإذا كان لديك لوحة ترخيص عربة ثلاثية العجلات، يفحص ما إذا كنت تمتلك فاتورة شراء العربة، كنّا نسكن في شارع دونغ قوان تو، لا بدخل نطاق إدارة فريق الدفاع المشترك في منطقة سانلوجو، وكانوا يتلقون الرسوم الإدارية والصحية شهريًا.

في كل مرة أدفع غرامة، يتملكني الحزن بضعة أيام، فكل قرش كنت أكسبه من عملي من الصباح حتى الليل، وأبذل الجهد وأتحمل العمل الشاق من أجل كسب المال، كنت أحمل أكثر من 600 كيلو جرام من البضائع من قرية يويقه تشوانغ حتى شرق طريق تاي بينغ تشياو، وكان الصعود هو الأكثر مشقة، في كل مرة أعبر جسر المشاة ليولي تشياو، وكنت آتي وبكل خطوة أخطوها يتساقط العرق، كنت مترددًا حتى في شراء قطعة حلوى لأبنائي، حتى الفاكهة لم أتناولها، ذلك المال الذي كسبته لم يكن عقابًا كافيًا؛ قبل عام 2002، كان يتعرض العمال الفقراء المهاجرون من أماكن أخرى إلى بكين للعقاب والتوبيخ مرارًا من قبل فريق الدفاع بمنطقتي سانلوجو وشيتيه بينغ.

نحن لا نتردد في إنفاق المال لعمل تصريح إقامة مؤقت؛ ولكن في الحقيقة لم يكن عمل التصريح أمرًا سهلًا، وحتى تقوم زوجتي بعمل تصريح إقامة مؤقت، كنّا نسحب اللحاف في منتصف الليل والاصطفاف بضعة أيام وليال، فكان يتطلب ذلك بذل جهود جبارة.

بعد عام 2002، تحسّن هذا الوضع، وامتلكنا تصريح إقامة مؤقت، ولم أعد أدفع غرامة واحدة وأنا أقود العربة، ولكن في النصف الأول من عام 2002، بعد إلغاء سوق الخضراوات بزقاق وي بينغ، ما زلت أعيش النزاع وحرب العصابات مع الإدارة الحضرية.

كانت الحقيبة الفاسدة التي أحملها هي أدواتي عند نصب بسطة البيع وفرش الأرض عند التعامل مع فريق الإدارة الحضرية بمنطقة شيتشنغ، وكان منزل العمدة بجنوب الزقاق المقابل للسوق الذي ألغى هو ملجئي الذي اختبأت فيه 3 مرات. كان جدار الفناء المكسور الذي يبلغ ارتفاعه 2.5 متر بمنزل هذه العمدة العطوف هو المكان الذي أعود إليه أنا وكل بانعي البسطة في

كل مكان بعد الانتهاء من الاختباء والمعاناة، كنت أخشى من أن تقوم الإدارة الحضرية بتفتيش البضائع ومصادرتها، ولا تُحصى عدد المرات التي تسلفت فيها الجدار في الصباح.

في ظهر أحد الأيام، فقد زميلي من «خنان» الخضار الذي يملكه، كان يراني صادقاً ومن أصل متواضع، وأصر أنني من قمت بسرقة، وبعد يوم، علم أن زميله هو الذي سرقة، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يعتذر إليّ. لم أحاسبه لأن عدم الاعتذار هو خطؤه، ولا يجب أن أغضب بسبب الأخطاء التي يرتكبها الآخرون.

كان زقاق شي رونغ غشيان بمنطقة شينشنغ هو المكان الذي أشعروني بالحماسة والذعر، فكانت الحماسة من وجودنا أنا وأخي هنا مع الباعة الجائلين من جميع أنحاء البلاد، وبيع الخضار لكسب المال، أما الذعر فهو لوجود سيارة فريق الإدارة الحضرية التي كنت تتجول مثل المكوك ذهاباً وإياباً والتفتيش مرات لا حصر لها.

ذات مرة جاءت الإدارة الحضرية وقوات الدفاع المشترك والمكتب الصناعي والتجاري ومكتب الصحة، وأخذت أركض مخاطرًا بحياتي، ودخلت رأسي بمنزل صغير من القش به قوالب العسل في الناحية المقابلة تملكه الأخت جيا شنغ، في ظهر ذلك اليوم، كانت عيناى تحملق في الإدارة الحضرية الذين قاموا بنقل الزنجبيل والثوم إلى الخارج حزمة تلو الأخرى، وعندما رأيتهم يسحبونها بعيداً، تألم قلبي كأنه يتقطع بالسكين إرباً إرباً. وبعد حمل البضاعة أراد عدد من رجال الإدارة الحضرية من الأخت جيا شنغ أن تسلمني لهم، وقالوا: إنهم رأوا بائع خضار متوسط الطول مقصوص شعره دخل هذا الفناء، فقالت الأخت: هذا البيت قصير جداً، ألا يمكنه القفز على الحائط والهروب من خلاله؟». وبعد الاستماع إليها، صرفوا النظر عن مطاردتي.

لم تكن مصادرة الإدارة الحضرية للبضاعة هو أكثر ما يخيفني، فإذا فقدت البضاعة، سوف أبذل المزيد من الجهد لكسبها مرة أخرى، في الحقيقة لم أرغب في احتجازي بنشانغينغ للقيام بالأعمال القذرة والمتعبة مرة أخرى، خلال أسبوع داخل مركز احتجاز منطقة تشانغينغ، كنت أكل مخللاً طويلاً الشعيرات، وكانت العصيدة التي أتناولها ثلاث مرات يومياً أخف من بول الحصان، وكان ينام مئات الأشخاص في منزل بسيط وبدائي، على سرير خشبي كبير، والأكثر تعباً هو أن المسافة بين رأسي والمرحاض متر واحد فقط، وكنت أشم كل ليلة رائحة كريهة عند النوم.

في صباح أحد الأيام، كنت أبيع الخضار بكل سعادة، وفجأة رأيت الإدارة الحضرية قادمة من الشرق، ورجال الشرطة من الجنوب، ورجال الدفاع المشترك من الغرب، ولم يأت أحد من ناحية الشمال؛ لأن الجدار كان يسدها، لم تكن عيني ترى الأشياء جيداً، فاخترت أن أقفز من فوق الجدار هروباً، ورميت الميزان الذي اشتريته بـ 18 يواناً أمام قدم الأخت التي تباع اللحم، ثم سحبت السلة من خلفها وأنا أهرب، وتبعثر الزنجبيل والثوم.

في يوم أحد كنت أبيع الخضار بحديقة شوانوو، وأتطلع إلى القيام بتجارة أفضل قليلاً، والبيع بأكثر من 100 يوان، لم أتوقع أن الإدارة الحضرية لا يفرق معها أي يوم نكون، وجاءوا بالسيارة في وقت مبكر، فجمعت البضاعة سريعاً بشكل عشوائي، وركبت العربة وركضت سريعاً، كنت أفود العربة بسرعة، وتناثر المخلل على الأرض، وكان الثوم الحلو والمخلل المطبوخ هما الأعلى، وعندما وصلت إلى الحارة بالناحية الجنوبية عند البوابة الشرقية بحديقة شوانوو، كانت المنعطفات قوية جداً، وتناثر هذان النوعان من المخلل على الأرض. الحزن يجلب حزناً؛ ولكن لن ألقى اللوم على الآخرين ثانية، منذ أن تذوقت حلاوة كسب المال من بيع الخضار، أصبح عليّ الاستعداد للعمل بجد وتعويض الخسائر، كانت تلك الخسائر بمنزلة دافع لتحفيز نفسي لمواصلة الكفاح، الإنسان الذي لم يعانِ من الانتكاسات لن يفهم قيمة النجاح.

معاناة الألم والمرارة والظلم

خلال عامي 2003 و2004، وفقاً لمقولة بلدتي آنهوي، «الزراعة جيدة في عامي الخروف والحصان»، ولكني خلال هذين العامين تذوقت أفراح الحياة وأحزانها، ونحفت بعض الشيء.

في ربيع عام 2003، أصبح دخل عائلتنا فجأة غير مضمون، وألغى سوق شوانومن الذي كنت أعمل به، وكذلك سوق شارع تشانغ تشون حيث كان يعمل أخي، وبعد ذلك نصب أخي كشكا في الزقاق وراء وكالة أنباء شينخوا بشارع رقم 57 غرب شوانومن، وفي البداية خسر مئات اليوانات، بينما استأجرت كشكاً في سوق شوانوني عند تقاطع شارع شين ونهوا في الجانب الجنوبي من سوق شيدان، وقمت ببيع المخللات لمدة شهر، ولم أعانِ التعب فقط؛ ولكن أيضاً خسرت المال، بغض

النظر عن الكمية التي بيعت في ذلك الوقت، كنت أذهب كل يوم مع شروق الشمس؛ لأبيع في اليوم بمبلغ 20 يواناً، وواظبت على فعل ذلك كل يوم.

في بداية الشهر الثالث في التقويم القمري، في الساعة الرابعة فجراً، ركبنا الدراجة ثلاثية العجلات الممتلئة بالمخللات، وعندما وصلت إلى جسر معبد واننشوان، التقيت أشخاصاً من فريق الدفاع وجهاً لوجه، سألوني إذا كان لدي بطاقة هوية وتصريح إقامة مؤقت، أخرجت البطاقة والتصريح لهم، فطلبوا مني الحصول على رسوم الإدارة، عندما أردت التباطؤ لفترة من الوقت، استولى أولئك الرجال الأربعة فجأة على أكثر من 120 يواناً كانت في جيبتي، وألقوا الأوراق والبطاقات التي كنت أحملها في كل مكان، واتفق أنهم في الأساس لصوص انتحلوا شخصيات فريق الدفاع.

في 2 من مايو عام 2003، أعيد فتح السوق الصباحي بزقاق وي بينغ بمنطقة شينتشونغ، بعد بضعة أشهر، أصبح لدي أنا وأخي كشك ثابت في السوق، وكان التجار والمسؤولون في السوق يجلبون لنا المتاعب، فرأوا أن موقعنا جيد، وكان الكشك مقسم إلى كشكين أي ضعف ما يمتلك الآخرون، وبدأت الغيرة تسكن قلوبهم، في الواقع كان هذان الكشكان يعتمدان تمامًا على الحظ، انتقلنا بين الكثير من الأسواق، ولم نستول قط على سنتيمتر واحد من مكان غيرنا، وفي كل مرة يرانا جارنا التاجر صادقين يسيء إلينا ويظلمنا، ويتمتم فمه أننا استولينا على مكانه، وذات مرة، شعرت بالغضب فقلت: «الجميع يفهم من استولى على مكان من». وبعدما سمع ذلك، استولى على سنتيمترين بجانبنا.

خلال أيام بيع الخضار، تعرضنا للكثير من الظلم، ذات مرة، عندما كنت في الموقع الموجود بالجانب الشمالي الشرقي للمبنى تشوانغشونغ بمنطقة شوانوو، أعطيتهم المخللات والتوفو الدموي، ونُصب عليّ في أكثر من 400 يوان، وذات مرة، عندما كنت أبيع في سوق زقاق وي بينغ، كانت تدين لي امرأة بثمن 5 كيلو جرامات من الزنجبيل، وقالت: إنها ستدفعها غداً. ولكنها لم تأت، وذات مرة أخرى، قال لي شخص: إنه يريد شراء 100 كيلو جرام من المخلل، فظننت أنه يحتاجها لتجارة كبيرة، لم أعمل في الصباح وركبت العربة متجهاً إلى قرية يويقه تشوانغ لإحضار أكثر من 100 كيلو جرام من المخلل، وبعد عودتي اختفى هذا الشخص ولم أجد له أثراً.

هناك قول مأثور: «عندما ترى شخصاً ينعم بحياة مشرقة، فأنت لم تر مقدار الأذى والمعاناة اللذين تعرض لهما». نحن نعمل في تجارة صغيرة، ونعتمد على قوتنا وجهدنا لكسب المال، وعندما نتحسن التجارة قليلاً، يغار الزملاء ويحققون علينا، ويستخدمون طريقة خاصة لاضطهادنا وإحراجنا، ولم يفكروا في أن المعاناة التي تعرضت لها عائلتنا لم يتعرض لها أحد؛ ولكن كنّا نوفر دائماً إذا استطعنا التوفير، ونبذل جهودنا للحفاظ على حياة أفراد الأسرة.

كان هناك العشرات من التجار في هذا السوق، فباستثنائي أنا وأخي، كان الجميع يقودون عربات ثلاثية العجلات، وكل منهم ضخم وطويل القامة قوي البنيان، فكان الواحد منهم يعادل شخصين أو ثلاثة أشخاص مثلي، في يوم انتهاء موعد نصب الكشك، قال التجار في السوق: إنهم يريدون بيع الكشكين في مزاد. فصفت وجهي حتى تورمت لفترة من الوقت، في ذلك الوقت لم يكن لدينا الكثير من المال، حتى لو لم نقبل ببيع الكشكين في مزاد، لم يتبق معنا سوى 1000 يوان تقريباً بعد دفع رسوم الكشك، بدأ المزاد، وافتتح المزاد بـ 220 يواناً في الشهر، وبدأ المئات من الناس في المنافسة، وانتهى المزاد على يواناً في الشهر، في هذا المزاد الشرس، لم أترجع، وكنت أتابع العروض من البداية للنهاية، إلى أن استولوا على هذين 950 الكشكين في نهاية المطاف، كنت أمتلك الكشك؛ ولكن رسوم الكشك الباهظة وضعتنا تحت ضغط كبير.

في صيف عام 2003، كان موسم تساقط الأمطار، وكانت الأيام المشمسة قليلة والأيام الممطرة كثيرة طوال شهر يوليو، كان السماء كانت تحسبها جيداً، فكانت تمطر دائماً في الصباح وبعد الظهر، وتنتظر حتى أفرغ من جمع الكشك، ثم تبدأ الشمس في الظهور، في ظهر أحد الأيام بمنتصف شهر يوليو، انتهيت أنا وأخي من جمع الكشك، وركبت العربة وعند عبور إشارة مرور شوانومن، ظهر أمامنا ضابط شرطة؛ كان طوله حوالي 180 مترًا، وأوقف صوت "الصرير" الدراجة النارية أمامنا، هبط من على الدراجة ووقف وقفة الانتباه وأدّى التحية، ثم قال: "منوع وجود العربات الزراعية ثلاثية العجلات في الطريق الدائري الثاني، أرجو تقبل العقوبة. توسلت إليه قائلاً: "أخي، من فضلك ساعدني، لم أبع شيئاً صباح اليوم بسبب تساقط الأمطار، هل يمكن تقليل الغرامة؟". فقال لي: "هل ستدفع 100 يوان غرامة أم تترك العربة؟". بالتأكيد لا يمكن احتجاز العربة، فاضطرت أنا وأخي أن يدفع كل منا 100 يوان غرامة.

عام 2003 العصيب

كان لدي اعتقاد دائم أن عائلتنا لا يمكن للفقر أن يقهرها، والأكثر هو أن أرفع رأسي أمام كلمة «الفقر». أعتقد أن الفقر ليس أمرًا مخزيًا؛ بل هو واحد من أفضل الجامعات، من الآن فصاعدًا سوف أستغل كل دقيقة وثانية لأحقق المجد وأجلب الفخر لأسرتي.

في عام 2003، كان لا يزال الفقر هو الإيقاع الرئيس لعائلتنا، وكنت عندما أعجز عن النوم في وقت متأخر من الليل، أفكر في أن كل صعوبة نواجهها قد تكون بشيرًا لقدم غد أفضل لعائلة ياو، قبل عيد الربيع عام 2003، في اليوم الحادي عشر من الشهر الثاني عشر في التقويم القمري، مرضت جدة الأولاد فجأة بمرض سرطان المريء الخطر، وهرعنا إلى البلد بين عشية وضحاها، في اليوم السادس من الشهر الأول في التقويم القمري، بدأ الأطفال في الذهاب إلى المدرسة، وخشيت تأخير دراستهم، وكذلك كنت أخشى عدم إيجاد تذاكر قطار، فاضطررنا نحن الثلاثة إلى ركوب شاحنة حمل البضائع التي يمتلكها أحد الجيران للذهاب إلى بكين.

قبضت الشرطة على سيارتنا أثناء مرورها بمدينة هاندان بمقاطعة خبي، وقال الشرطي: «نقل الأشخاص أمر خطر». وحجزونا لفترة طويلة، وغرّمنا عدة مئات من اليوانات.

في ظهر اليوم الثامن من الشهر الأول، ذهبت أنا وياو وويي إلى سوق هونغليان لشراء الفاكهة، ليأخذها معه في اليوم التالي وهو ذاهب إلى المدرسة، وعندما مررنا بتقاطع ثم أردنا أن ننعطف، قابلنا سيارة أجرة تسير بسرعة، لم يكن هناك وقت لتفاديها، فاصطدمت بنا، سقط ياو وويي على الأرض ولم يحدث له شيء، وبعد سقوطه نهض ثانية؛ وأصيبت أصابع يدي اليمنى وتورمت واحمرت، كما أصيب الجزء الخلفي من اليد بجرحين كبيرين، وسقطت أظفار أصابع اليد اليمنى بعد ستة أشهر، واصطدم الباب الشرقي للسيارة بدراجتي وترك علامة سوداء كبيرة، كما تحطمت المرأة. وبعد إبلاغ الشرطة، قالت الشرطة: إنها مسؤوليتنا، وعلينا أن ندفع 280 يوانًا تعويضًا لسائق السيارة الأجرة. لم يكن لدي الكثير من المال، فقام سائق السيارة الأجرة بسحبنا أنا وابني إلى البوابة الشرقية لحديقة وانتشوان سه – السكن الذي انتقلنا إليه للمرة السابعة لإعطائه يوانًا. 280

ذلك الحادث لم يُخفّننا ولم ننشكُ إلى أحد، ولن يسكن الحزن القلب بسبب دفع تعويض للآخرين، نؤمن أن «الابتسامة لا تكلف شيئًا»، وعند مواجهة الشدائد، لا بد من تجاوزها.

بعد ظهر اليوم الثاني، أرسلت ياو وويي إلى مدرسة معبد شاولين للدفاع على النفس بقاوشان الموجودة بياو يوي فو بمنطقة فانغشان، في ذلك الوقت كان الأكثر شيوعًا عند الرجال هو وضع الموبايل في الحزام، فانتهزت فرصة التخفيضات لشراء موبايل موتورولا. كانت هذه المرة الأولى التي أقوم بشراء أشياء ثمينة، في ذلك اليوم أغلقت القميص بإحكام؛ خشية من أن يظهر الموبايل وأفقده، وكانت النتيجة أنه سُرق، وفي المساء ركبنا الحافلة رقم 917 وعندما وصلنا إلى تشانغ شين اكتشفت أنني فقدت الموبايل، وخشيت أن يؤثر ذلك على دراسة ياو وويي؛ لذلك أخبرته في نهاية هذا العام أن والده فقد الموبايل.

في عام 2003 عانى 1.3 مليار مواطن صيني من القلق؛ حيث جعل «مرض السارس» الناس يشعرون بالذعر، في أواخر شهر أبريل بلغ مرض السارس ذروته، كان يقول لي بعضهم: أنت رجل ريفي غير حذر في كلامك؛ لماذا تقول هذا الكلام؟ ولأن قريتنا كانت كبيرة، ركض المئات من الناس الموجودين في بكين إلى القرية، ولم يبق في بكين سوى أسرتنا؛ لذلك قال أهل القرية: إننا نريد كسب المال ولا نبالي بحياتنا.

كان ياو وويي قد اضطر للذهاب إلى مدرسة فانغشان بسبب انتشار مرض السارس، حيث تعلم فنون الدفاع عن النفس التي تبعد 100 ميل، في تلك الأيام كنت أنا وزوجتي نموت من القلق، ولا ننام طوال الليل، نود أن نذهب إلى المدرسة لنحضره؛ ولكن لم تسمح المدرسة بذلك؛ لأن المنطقة كانت منعزلة في ذلك الوقت، وكانت المنطقة التي نسكن بها هي الأكثر تضررًا، في تلك الأيام كنّا حريصين مثل نملة فوق مقلاة ساخنة.

بعد ظهر يوم 20 من أبريل عام 2003، ركبت عربتي وذهبت إلى سوق الجملة شينفادي لإحضار البضاعة، لم أتوقع أن جميع السلع في سوق الجملة يتهاافت عليها الناس، وأن أسعارها ارتفعت عدة أضعاف، ومع ذلك كان الناس يتزاحمون عليها، كان سعر كبسولة إزالة السموم وتخفيف الحرارة التي تُباع في الصيدلية يرتفع على طول الطريق، وكانت أقنعة التعقيم في الصيدلية والسوبير ماركت تُباع في أكوام، وكانت زوجتي تصطف عدة مرات لشراء بضعة منها.

مركز احتجاج تشانغينغ

في نهاية عام 2003، تم حظر سوق زقاق وي بيينغ بمنطقة شيتشنغ، كان عام 2004 هو العام الأكثر حزنًا بعد أن جاءت عائلتنا إلى بكين، وكان حظر السوق يعادل افتقارنا إلى مصدر دخل اقتصادي ثابت، ومن الصعب أن تعتمد الأسرة كلها على نصب كشك لكسب لقمة العيش.

في صباح اليوم الحادي عشر من الشهر الأول في التقويم القمري عام 2004، استأجرت كشكًا مؤقتًا غرب سوق شوانومن القديم، كنت أبيع المخلل، وانتظر حتى أدفع 100 يوان رهناً، وأخبرني المسؤول أنه لا يُباع شيء هنا سوى الخضراوات، طلبت من أخي أن يساعدني في رعاية الكشك، وذهبت لأبيع جذور اللوتس والفلفل المتبقي بأسعار مخفضة، هذا الصباح كنت مثل ذبابة دون رأس لا تعرف وجهتها، أردت أن أذهب إلى منطقتي دونغ تشنغ وهايديان لألقي نظرة، خلال بحثي يمينًا ويسارًا عن كشك، وقع حادث عندما ركبت العربة وهممت بمغادرة السوق، التقيت مجموعة من فريق الدفاع بمنطقة شيتشنغ الذين يراعون شؤون العمال المهاجرين.

أشار إليّ أحد أعضاء فريق الدفاع ذو قامة طويلة لأذهب إليه، ووسط الذعر لم أستمع إلى صوت الفرامل، وانشغلت في استخدام قدمي للتحكم في فرامل العربة، سألني هذا العضو ما إذا كان لدي بطاقة هوية وتصريح إقامة مؤقتة، ولم أستمع سوى النظر إليه قلقًا؛ لأن كل الوثائق كانت في جيب ثوب العمل؛ فقلت له: «يا أخي هل يمكنني وضع دراجتي هنا، والذهاب إلى جنوب هذا الطريق السريع لإحضارها؟». قال عدة أشخاص بالخلف: «من أين أتيت بكل هذا الهراء، عليك البقاء هنا، السيارة قادمة لتأخذك».

بعد نصف ساعة جاءت سيارة الشرطة من المدخل الجنوبي، وطلب مني عدد من أعضاء الدفاع المشترك صعود السيارة، وبداخل السيارة كان قلبي في حالة اضطراب، ماذا سأفعل في الحياة القادمة؟ على الرغم من صغر جسمي وقبح شكلي، فإنني بمنزلة العمود الفقري للبيت، لم أخش المصاعب، وكنت أشعر بالحزن لفقد الدراجة التي اشتريتها بـ 35 يوانًا، وأدركت رأسي وأخرجته من النافذة، والدموع تسيل من عيني، فكم من المخلل بيعت من أجل شراء هذه الدراجة.

لم أميز الاتجاهات في بكين، وبعد الشعور بالضيق والملل لمدة 10 دقائق داخل السيارة، لم أعثر على الاتجاه الشمالي، بعد وصولي إلى مركز الشرطة، جعلوني أضع يدي على رأسي، وبعد دخول الغرفة قاموا بتصويري وأخذ بصماتي، في ذلك اليوم قضيت في مركز الشرطة 6 ساعات، كانت أطول 6 ساعات في حياتي. كنت كالبقرة العجوز التي سقطت في البئر، وتملكني إحساس بالعجز، عندما ساد الظلام، فكرت هل سيسمحون لي بالعودة إلى المنزل؟ فأنا لست الراهب تانغ سنغ، ولا يمكنني طهو اللحم على البخار لتناولته.

بعد فترة من الوقت، جاءت سيارة شرطة من الخارج، ودخل ضابط شرطة إلى الغرفة وقال لنا: "أخرجوا من هنا واصعدوا إلى السيارة". وعندما سمعت عبارة "اصعدوا إلى السيارة"، شعرت بالسعادة الغامرة، وفكرت أنني سألتقي عائلتي في الحال؛ لذلك كنت أول من خرج من الغرفة، فأنا لم أعد إلى منزلي منذ وقت طويل، ولا أعرف كيف ستلومني زوجتي على ذلك.

عندما كنت أصطف لأخذ الصور والبصمات، سمعت دون قصد السائق يقول: "يستغرق الذهاب إلى شاهه بمنطقة تشانغينغ أكثر من ساعتين ذهابًا وإيابًا". شعرت بالخوف في ذلك الوقت، كان يشم العديد من التجار في سوقنا الرائحة الغريبة الحامضية والكريهة بمركز احتجاج شاهه بمنطقة تشانغينغ. يا إلهي، تذكرت أجدادي، وأمي التي توفيت وأنا في عمر العاشرة، وأبي الذي كان يعاني من شبه التأخر العقلي؛ الذي تُوفّي بعدما تزوجت بعامين، وعمي الثالث الذي غادر عالمنا، فإذا أرسلت إلى مسقط رأسي، من سيأتي لتخليصي.

وبعد أكثر من ساعة، أخذتني سيارة الشرطة إلى مركز احتجاج شاهه بمنطقة تشانغينغ، وكان المئات من العمال المهاجرين من كل مكان متكديسين في غرفة خشبية، وبقيت هناك طوال الليل، ولم أجرؤ على غلق عيني للنوم، كان لديهم زملاء قرويون هنا، بينما كنت أنا الوحيد من أنهوي، وكان العديد من الرجال المستبدين والطغاة القادمين من شمال شرق الصين وسط تلك المئات من الناس، يبيعون الأشياء في الداخل، ولم يجرؤ أحد على عدم الشراء، كنت أرى عيونهم تحديق أكثر من عيون البقر، فأحبس غضبي خوفًا من ملاحظتي.

العمل الشاق بمزرعة شاهه

في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم، وقفنا نحن العمال المهاجرين في مركز الاحتجاز في صف واحد متحاذين؛ استعدادًا للانتقال إلى شاهه لحفر الأراضي الزراعية، ولم تغادر حتى جاءت حافلتا البحر الأصفر داندونغ تحملان أعضاءً جددًا.

من الصعب أن أظل مستيقظًا حتى صباح اليوم التالي، بعد الساعة السادسة بدأ الطهارة في مركز الاحتجاز طهو الطعام، اصطف المئات من العمال في انتظار أن يقدم لهم الطهارة الطعام، وعندما نقول الطعام فهو في الواقع طبق من عصيدة الذرة، ويأخذ كل شخص قطعة من المخلل غريب الشكل.

كانت الحافلة الزراعية تبعد أكثر وأكثر في اتجاه الشمال، وكان قلبي يؤلمني تمامًا كالم طعنة السكين، ولا أعرف إلى أين يأخذونني، وبعد فترة من الوقت، تحرّكت الحافلة داخل أحد الجبال القاحلة، وكان هناك فناء كبير يبلغ ارتفاع أسواره 3 أمتار، وعلى بابه مكتوب عبارة «مزرعة شاهه».

أدخلونا في مركز الاحتجاز إلى منزل كبير متواضع، وأول «مشروع» ترك لدي انطباعًا عميقًا، في الشهر الثاني عشر في التقويم القمري، بدأ الجليد بالنهر في الذوبان، وخلع كل واحد منّا ملابسه ولم يترك سوى الملابس الداخلية، وعندما بحثوا عني كانت أول مرة في حياتي أتصرف بذكاء، انتهزت وقت خلع الملابس، وأخذت 200 يوان من جيبتي سرًا وأدخلتها في ثقب ياقة الجزء العلوي من الملابس القطنية القديمة.

في المساء يسكن أكثر من 200 شخص في منزل متواضع على شكل أنبوب كبير، قضى العمال المهاجرون من جميع أنحاء البلاد 6 ليالٍ هنا، وكان يتشارك 5 أو 6 أشخاص في لحاف واحد، كنت في كثير من الأحيان لا أستطيع سحب اللحاف، وعند النوم لم أجرو على إغلاق عيني، وكنت أعطي صدري بيدي كل ليلة، وكان رأسي يبعد عن دلو النفايات مترًا واحدًا فقط.

كان مكان الإدارة العسكرية هنا، كل صباح كان علي ارتداء الملابس وطي اللحاف في 3 دقائق فقط، وعند تناول الطعام، رأيت الطباخ يغطي كعك البخار بالغطاء نفسه الذي يستخدمه الناس في المساء، وفي كل وجبة يأخذ كل فرد كعكة البخار ومغرفة من عصيدة الذرة الخفيف الذي يعكس ظل الإنسان، وكان وعاء المخلل الكبير به قطع غريبة الشكل ومختلفة الحجم، لم تكن مثل قطع المخلل التي أبيعها منظمة ونظيفة، وبعضها تكسوها طبقة من الغشاء الأبيض، وبعضها عليه قطع من الطين، ومن كان يجرو على قول: إنه يريد تغيير المخلل يأخر ليس به طبقة من الغشاء الأبيض أو قطع من الطين، لا يأكل هذه الوجبة؛ فاضطرت إلى ابتلاع الغضب؛ لم أكن محظوظًا؛ لأن الوعاء الذي أخذته كان مكسورًا، لا يحتفظ بالعصيدة، وكان بطني يفرقع جوعًا دون توقف؛ وعلى الرغم من تغيير الطعام مرة كل بضعة أيام؛ فإن الدهون كانت كما هي لم تُنثّش، قضيت في مركز الاحتجاز 6 أيام، وخسرت الكثير من الوزن.

في مهرجان الفوانيس في اليوم الخامس عشر من الشهر الأول في التقويم القمري، كانت السماء ليلاً مشرقة بشكل غير عادي بسبب الألعاب النارية، كنت أطلع إلى جمال السماء من خلال النافذة الحديدية الملحومة الكبيرة التي لم يكن بها زجاج، وأفكر في أفراد أسرتي، ولم أستطع مقاومة دموعي التي كانت تتدفق دون توقف.

في الساعة الثانية والنصف بعد ظهر اليوم السابع عشر من الشهر الأول في التقويم القمري الصيني، كان وقت عودتي إلى المنزل من مكان احتجاز شاهه بمنطقة تشانغبينغ، في تلك اللحظة التي صوّرتُ وأخذت بصماتي، لا أجد كلمة تصف مدى تسارع نبضات قلبي، وعندما تخطيت جدار الفناء العالي الذي يبلغ طوله أكثر من 3 أمتار، شعرت بأنني أتنفس بسلاسة غير طبيعية.

بعدما خرجت ركضت لمدة 20 دقيقة ولم أشعر بالتعب، إلى أن وصلت إلى محطة الحافلات، وعدت إلى المنزل فجأة وأنا متعب وعطشان وجوعان، ركبت الحافلة رقم 819، ورمقت بطرف عيني نحو الخارج، فرأيت عبارة كبيرة "مدرسة شاولين لفنون الدفاع عن النفس ببيكين" مكتوبة على الجدار الشرقي للطريق، وأسفلها قائمة بأرقام الهواتف، فكرت على الفور أنه ربما يكون ذلك مفيدًا لياو ووي، فكتبتها بسرعة، لم يكن معي قلم حينها، ولم أستطع سوى أن أقرأه بفمي وأكرره عدّة مرات، حتى وصلت إلى ليو لي تشياو بيلي. في هذه المرة كان احتجازي شرًا جلب خيرًا، فجلب لياو ووي حظًا سعيدًا.

في الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم وصلت إلى ليو لي تشياو ببلي، وبعدما هبطت من الحافلة لم يكن معي سوى ماوين من العملة المعدنية، فكرت في العودة سيرًا على الأقدام؛ ولكن في الواقع كان جسدي ضعيفًا؛ لأنني لم أكل طعامًا كافيًا يمدني بالقوة لمدة 6 أيام، فاضطررت إلى ركوب عربة ثلاثية العجلات، وقلت للسائق سأعطيك أجرة السيارة عندما أصل إلى المنزل.

في أقل من ربع ساعة وصلت إلى منزلي المستأجر عند البوابة الشرقية بمنطقة معبد وانتشوان، وقلت للسائق: "انتظر قليلاً، ليس معي نقود، سأذهب إلى المنزل وأحضرها"، كنت ضعيفًا لم أتناول الطعام لمدة 6 أيام، وطرقت الباب بيدي الاثنتين وصحت بقوة قائلاً: "يا أم قوه تشينغ افتحي الباب بسرعة، أنا عدت. افتحي الباب بسرعة، أنا عدت". في ذلك الوقت كانت تعد لي زوجتي خبزًا على البخار، عندما فتحت الباب كان بيدها طحين، وركضت وهي في حالة من القلق وأحضرت النقود من الداخل وأعطتها السائق، وشكرته مرارًا.

أخيرًا جُمع شمل عائلتنا، قالت زوجتي: "لقد عدت، أنا لم أكل ولم أُنم جيدًا خلال هذه الأيام، وكان ابننا يقف في تقاطع الطريق الشمالي ينتظر كل صباح ومساءً، ويبكي ويصرخ قائلاً: "أبي عاد، أبي عاد". عانقت الطفل بذراعي، وفي يقول: "ابني المطيع، عاد والدك". وأضافت الزوجة أنه في مساء اليوم الحادي عشر من الشهر الأول في التقويم القمري، اعتقدت "أنك ذهبت إلى خارج المدينة للبحث عن كشك، وقلت للطفل: "عد إلى المنزل، لا نريد والدك"، فبكى الطفل بصوت عالٍ ثم قال: "أنت لا تريدين أبي؛ ولكن أنا أريده".

واصلت زوجتي كلامها قائلة: "تعلم أنني خلال الأيام الستة التي تغيبت فيها كنت أذهب إلى معبد بابيون قوان للصلاة، وذهبت مع مالك السكن إلى إيفنغ ينغ للتعبّد، وكان العاملون بالمعبد يسألونني: هل أنت بخير؟ وبعد عدة أيام عدت إلى بيتك، إنك لم ترتكب جريمة ولم تسئ إلى أحد". كما واصلت كلامها قائلة: إنه لم يقطع أحد قلبها، ولم يرون ما في قلبي من قلق، لقد بحث أخي والجيران بمسقط رأسي في كل مراكز الاحتجاز فنغتاي وشوانوو وشيتشينغ، ولم يعرفوا أخباري. قالت زوجتي: كنت أشعر أنك ستعود اليوم، وقمت بحفر بعض من نبات كيس الراعي في الناحية الجنوبية من منزلنا على وجه الخصوص "لعمل الزلابية لتأكلها". في الساعة العاشرة والنصف من مساء ذلك اليوم، تناولت زلابية نبات كيس الراعي الساخنة، عندما كانت تقدم الطعام على المائدة، كنت كالذئب الجائع الذي رأى قطعة كبيرة من لحم البقر المتبل، وبغض النظر عن كونها ساخنة أو باردة، لم يبتعد فمي عن الطبق حتى انتهيت من أكلها، وخدي الساخن أصبح به فقاعة كبيرة لا أشعر بألمها، كان الطعام شهيقًا حقًا. بعد ظهر ذلك اليوم ركضت بضعة أميال، حتى تورمت الساقان، واستغرقت أكثر من أسبوع لتعود إلى وضعها الطبيعي.

أشياء لا تروق لي

أنا رجل أحرق غير بارع في الحديث، ولكنني كنت شاكراً دائماً لكل الأشياء السيئة التي تحدث في الحياة، لأنني أعتقد اعتقاداً راسخاً أن النكسات تجعلني أكثر نضجاً، وأنا أيضاً أعلم أولادي أن يكونوا شاكرين للنكسات والمصاعب التي تواجههم في حياتهم، فالإنسان لا يمكنه البقاء في مكانه الأصلي، وعليه بذل الجهود للتقدم إلى الأمام.

ولكانت مكان الفرق الثلاثة بقرية معبد وانتشوان بمنطقة فنغتاي في بكين، هو المكان الذي استأجرناه للمرة السابعة، وهذه المرة كنت مجبراً؛ حيث تعرضت للضغط من قبل الناس في الفناء، وكانوا يرغبون بشدة في اختفاء عائلتي على الفور حتى يشعروا بالرضا، في النهاية اخترت الانتقال إلى مكان آخر، حتى لا أزعجهم. استغرق الأمر يومين حتى وجدنا سكناً جديداً بعد ظهر اليوم الثاني، في ذلك اليوم كانت حالة زوجتي المرضية غير جيدة، ولا تزال تأخذ الدواء ثلاث مرات يومياً، أخذت أنا وأخي الطفلين، بينما كانت زوجتي تتركب العربة بسبب سوء صحتها.

انتقلت عائلتي إلى مكان الفرق الثلاثة بقرية معبد وانتشوان، واستقرت هناك بشكل مؤقت، وكنت أخرج في الصباح لبيع المخمل وكسب بعض المال، وبعد مرور أسبوع من انتقالنا، كنت أشعر دائماً بالألم في المعدة، وأحياناً يؤلمني ظهري ولا أستطيع الوقوف، قالت لي زوجتي: «أنت مريض فلا تجهد نفسك ولا تتحمل الألم، فالجميع هنا يعتمد عليك، ألن تنتهي هذه العائلة بسقوطك». في صباح اليوم التالي، ذهبت مع زوجتي إلى مستشفى فنغتاي لإجراء الفحص الطبي، وظهرت النتيجة بعد الظهر، وقال الطبيب: «أنت تحتاج إلى الراحة وعدم الغضب، وسوف تتعافى قريباً». وفي الساعة السابعة مساءً، أحضر

أخي البضاعة من شينفادي، وبعدما سمع بمرضي بكى ثم قال: «إذا لم تستطع العمل، كيف ستعيش عائلتنا، وأين سأذهب وحدي؟».

بعد ظهر أحد الأيام خرجت للمشي لأنفس عن صدري، وتجولت حول الأكاديمية الوطنية للفنون المسرحية الصينية، خشيت زوجتي من أن يكون حدث لي شيء، فسحبت الابن الأكبر في يدها اليسرى، والابن الصغير في اليد اليمنى وخرجت تبحث عني، حتى ساد الظلام ولم تعثر عليّ. قالت الزوجة للطفلين: "نحن لا نريد والدك، فقد بحثنا وقتاً طويلاً ولم نجده". أسرع أحد الطفلين قائلاً: "أنت لا تريدين أبي، لكنني أريده؛ في كل مرة كان يركب أبي العربية ويذهب إلى سوق الجملة لإحضار البضاعة، كنت أركب معه، كما أنه اشترى لي حذاء القطعة الملونة".

عندما كان الطريق من بوابة جنوب بكين المؤدي إلى داشينغ لم يُرصف بعد، بعد هطول أمطار الخريف، ركبت العربية وأحضرت عائلتي وذهبتنا إلى شينفادي، لإحضار الملفوف لعمل المخلل، لم أكن أتوقع أن الملفوف غالي جداً، فلم أجرؤ على الدخول واضطرت إلى العودة بالعربة فارغة، وعند العودة كنت أسير في الاتجاه الممنوع في الطريق الجانبى عند قرية ماجيالو، وكان أمامي بركة كبيرة لم أنتبه إليها، انزلقت عجلة العربة اليسرى في البركة، وسقط أفراد أسرتي كلهم في البركة القذرة.

في صيف عام 2004، تركت عنواني ورقم هاتفي في بكين لأسرة عمي، كما دعوت ابن عمي للمجيء إلى بكين، وعندما جاء ابن عمي إلى بكين، لم يكن لديه مكان يعيش فيه، فأسكنته في منزلنا في البداية، خلال الأشهر الثلاثة التي عاشها في بيتي، كنت أنتقل في أنحاء بكين لمساعدته في العثور على كشك، في ظهر أحد الأيام بمنتصف الشهر السادس في التقويم القمري، ركبت العربة ثلاثية العجلات لأعود إلى المنزل، كانت تؤلمني فروة رأسي التي لوحتها الشمس، وفجأة شعرت أن العجلة اليمنى للعربة دهست شيئاً ما، ورأيت رجلاً ضخماً يبلغ طوله 180 سم يقف على يميني، في ذلك الوقت كان قد مر 8 سنوات على امتلاكي لهذه العربة، اعتمدت على مهارتي في تغطية عين من عيني ولم أسحقه، وأجبرت بأنه «سلوك ابتزازي»، قام بهذا السلوك الابتزازي؛ لأنه لم يكن معه نقود لشرب كوبين في فترة الظهيرة. وفي النهاية دفعت له تعويضاً قيمته 100 يوان، وبينما كنت أخرج النقود على مضض أواسي نفسي قائلاً: نخسر المال لنتجنب الكوارث، فالمال لعنة، وإذا فقدته تستطيع كسبه مرة أخرى.

الاشتياق إلى الدفء

لم أعرف عدد الناس الذين كانوا يحتقروني من قبل، ومقدار الإهانة التي تعرضت لها، ولم أجرؤ على المقاومة؛ بل كنت مطيعاً طوال الوقت؛ عندما كنت أتعرض للإهانة، أخذ قراراً سراً، وهو أن أجتهد لتحقيق المجد والفخر لعائلة يائو، وفي يوم ما سوف أجعلهم يعجزون عن إيجاد سبب لإهانتني.

كان عدد أفراد منزل يائو القديم خلال سبعينيات القرن الماضي 5 أفراد بوجود عمي الثالث، وبعدما تزوجت الأم وجاءت إلى منزل يائو لم تعيش يوماً هنيئاً، في اليوم الثامن والعشرين من الشهر الأول في التقويم القمري عام 1982، بعد وفاة أمي، تبقى من الأسرة المكونة من 4 أفراد فردان أعزبان.

كان أبي ذا ظهر أحذب كالجبل، ويعاني من شبه التأخر العقلي، وكان يذهب إلى بيوت الآخرين لمشاهدة التلفزيون، وكان الكبار والأطفال هناك يطردونه، ويقولون له بطريقة مثيرة للاشمئزاز: «أبها الرجل المسن كيف جئت إلى هنا مرة ثانية؟». ذهبت مرة إلى منزل أحد الأشخاص لمشاهدة التلفزيون، وساعدتهم في حمل التلفزيون 4 أميال حتى وصلت إلى سوق أوومياو لشحن البطارية حتى يعمل، عندما كنت طفلاً حلمت بالوقت الذي تستطيع فيه عائلتي شراء مذياع وسأكون راضياً.

تعتمد حياة عائلتنا اليوم على الجهود الدؤوبة من كل أفرادها، نعتمد دائماً على أفكارنا الخاصة أفضل من طلب المساعدة من الآخرين، في نهاية الشهر الحادي عشر في التقويم القمري عام 1993، سحبت أسرتي خط إضاءة يسير، واشترت تلفازاً أبيض وأسود 17 بوصة ماركه الفقرة.

في صيف عام 1995، تزوجت ابنة جارنا القديم في الفناء الخلفي، التي كنت أنادبها بشقيقتي الثانية، في ذلك الوقت بغض النظر عن تزوجت الفتاة، وعن المسافة التي بين العائلتين، كان جهاز العروس يُحمل كله على الأكتاف أو على اليدين أو

على الظهر، تزوجت شقيقتي الثانية في منزل أسرة ثرية، في ذلك اليوم أرسلت الدعوات للأسرة في القرية لحمل جهاز عرسها، كان والدي هو الجيل الأكبر في العائلة، وطبقاً للمنطق ينبغي أن تبدأ بإرسال الدعوة إلى الجيل الأكبر، ثم يأتي الترتيب في الجيل نفسه حسب العمر، ولكنها عندما أرسلت الدعوة تجاهلتي أنا وأبي وأرسلت الدعوة إلى الآخرين، أعلم أنها خشت أن نكون وصمة عار بالنسبة إليها أمام أهلها، في منتصف الليل كانت عائلتنا كلها نائمة، وفجأة سمعت شخصاً يطرق الباب، وعندما فتحته وجدت شقيقتي الثانية ومعها دعوات لنا، أتريد بهذه الطريقة أن تُبكينا أم تُضحكنا؟ عندما كان شقيقها الصغير يعمل في موقع بناء السفن بويهائي، قُطعت 3 أصابع من يده اليسرى بالمنشار الكهربائي، في ذلك الوقت كنت أعمل في تشييد سقيفة مؤقتة بجبل تايشان وعندما علمت بذلك حزنت كثيراً؛ حتى إنني لم أتناول الطعام، وتغيبت يوماً عن العمل واشتريت له شيئاً وذهبت لرؤيته، وعندما كان يبني منزله أعطيته 20 يواناً هدية، كانت تقتفر عائلتي للمال؛ ولكن أكثر ما كانت تقتفر إليه هو الرعاية والحب والدفء من الآخرين.

في ظهر يوم 10 من أغسطس عام 2008، بعدما انتهيت من البيع في السوق ركبت دراجتي المتهالكة وتجولت إلى أن وصلت إلى سوق الفجر غرب جامعة العاصمة الطبية، كانت الخضراوات بهذا السوق رخيصة والموازين دقيقة، وبينما كنت أبحث عن الخضراوات في السوق، التقيت صدفة جاري الذي كان يبيع الخضار في هذا السوق من قبل، وهو بائع المعكرونة القديم، وكان ابنه أيضاً يتعلم فنون الدفاع عن النفس.

تحدثت مع هذا الجار القديم بضع كلمات، وأشار إلى بائع الزنجبيل شانها قائلًا: "إن عائلتك هي أكثر ما يحتقر بائع الزنجبيل هذا، فهو يقول: إنه ليس هناك تطلعات لمستقبل ياو ووي، وأنه يعرف جيدًا عدة أجيال من عائلتك. فقلت له: لا تحقر أحدًا. فقد تأرجح البندول وتبدلت أحوالهم، وأصبح أطفالهم أذكاء ويتعلمون ويحققون نتائج جيدة. الفقير لا يظل فقيرًا طوال العمر والغني لا يظل غنيًا؛ يستطيع الإنسان العمل بجد لكسب المال، هذه قدرات يتمتع بها الإنسان، وعليك ألا تكون غيورًا ولا تستخدم الكلام للضغط على الآخرين". وبعد ذلك أهديت إلى الجار القديم بائع المعكرونة تقويم مكتب، وفي كل مرة كنت أذهب إلى هذا السوق لشراء الخضار، أثرثر معه قليلًا أمام الكشك.

جئت إلى بكين منذ أكثر من 10 سنوات، ولم أجروء على أخذ قسط من الراحة، خلال عيد تشينغ مينغ عام 2009، أردتُ فجأة أن أخذ عطلة لمدة يوم واحد؛ أخذتُ أسرتي وذهبتا للتنزه في إستاند عش الطائر؛ قال الابن الثاني ياو ووي: "أبي، فلنذهب إلى مكان آخر، لقد ذهبنا إلى إستاند عش الطائر 9 مرات". فقلت له: "تعلمت رياضة اللوشو لمدة 9 أشهر، وشاركت في 34 مسابقة، وقمت بأدائها 55 مرة، عليك أن تذهب إلى هناك مرات كثيرة، لتمتع والدك فرصة رؤية العالم الكبير من خلالك". كنّا في شهر أبريل وزهور الربيع تتفتح في بكين؛ هذه المرة قضت عائلتنا يومًا سعيدًا.

ارفع رأسك

إذا حلمت بأن تصبح بجعة بيضاء جميلة، حتى لو كان حظك سيئًا وولدت وسط مجموعة من البط، فما دامت الأحلام تطوقك، ويسكنك الإيمان القوي، من المؤكد أنك تستطيع أن تصبح بجعة بيضاء، وإذا كنت ببضة بجعة، واندمجت مع البط وأنت راضٍ، سوف تصبح في النهاية بطة قبيحة.

كان يوم 18 من أغسطس عام 2012 هو اليوم الذي قامت فيه أسرتنا بأكملها ببيع الأعشاب البرية لكسب المال، في ظهر كل يوم نتناول وجبة الشعيرية الجافة، وكان وضع بعض من نبات القطيفة البري في الوعاء يعد غذاءً فخماً.

كان في يوم 15 من يوليو تُحصَل رسوم الأكشاك في سوقنا، وفي كل مرة كانت عائلتنا آخر من يدفع الرسوم، وتم استعجالنا عدة مرات؛ وذلك فقط بسبب قلة المال وضيق الحال؛ حيث كنّا ندفع الرسوم الدراسية لأطفالنا في نهاية أغسطس من كل عام؛ لذلك في يوم 18 من أغسطس بدأنا في زراعة الأعشاب البرية لبيعها وكسب لقمة العيش، وكما يقول المثل: «الإنسان يعيش وفقًا لظروف الحياة الموجودة». وقد استخدمنا الموارد المحلية المطلوبة، واعتمدنا على زراعة الأعشاب البرية لبيعها وكسب المال؛ في صباح اليوم الثاني، قمنا ببيع أعشاب برية بمبلغ 18 يوانًا، وفي اليوم الثالث بمبلغ 38 يوانًا، وما بعنا في الصيف كان يكفي لدفع إيجار منزلنا؛ كانت الأعشاب البرية التي زرعتها ملء الجيب، وكان يحملها ياو ووي ويعود إلى البيت مرة تلو الأخرى، حتى أطلقنا عليه «حمال»، كانت يد ابنتي ياو شين شين طرية، وعندما زرعت قليلًا تأذت يداها، وأخذت عصا ووضعت في الأمام ثعبانًا من داخل العش، في كل مرة نزرع الأعشاب البرية، لا تعرف عائلتنا بأكملها كم النتوء الحمراء المتورمة الناتجة عن لدغات البعوض.

بعد ظهر أحد الأيام، ذهبت زوجتي لزراعة الأعشاب البرية سابقاً، وبعد نصف ساعة حملتُ كيساً من القماش وذهبتُ لأزرع معها، عندما وصلتُ قالت لي: «كنتُ سأفقد حياتي». عندما سمعتها ذعرتُ، وسألتها ماذا حدث، فقالت: «لقد سقطتُ تقريباً في البئر». أحنّني كلامها، ليس لألمها فقط ولكن أيضاً للتحسر على الحياة الصعبة التي نعيشها، ولكن بيد أن الوقت الأصعب هو الوقت الذي نكون فيه أقرب إلى النجاح، لا بد أن نتغلب على الأزمات.

عند ظهر كل يوم كانت تأخذ زوجتي الأولاد وتذهب لزراعة الأعشاب البرية الأكثر نضارة، ويطهو الشعرية الجافة في المنزل، وتنتظرنني حتى أعود إلى المنزل لتناول الطعام، هذه هي الحياة الحقيقية لأسرة أكثر بساطة، كتبت عن هذه الأيام العصبية، لأخبر ابني أنه مهما واجهتك المصاعب والمشاق، لا بد أن تتذكر جيداً أن «ترفع رأسك»، وأن تحيا بكرامة، دائماً ما أخبر ابني: «الافتقار إلى المال ليس أمراً مخيفاً؛ ولكن الأكثر رعباً هو أن تحيا دون كرامة».

عندما جئت إلى بكين، كان لدي اعتقاد راسخ أنه بتحمل العمل الشاق وبذل الجهود الدؤوبة أستطيع تربية الابن حتى يصبح لبنة نافعة، وشخصاً مفيداً للبلاد؛ وهنا أقول أمراً: بعدما ذكرت قصتي، سألني الصحفي أثناء إجراء مقابلة معي، كيف يمكنك الربط بين تربية أبنائك وبين الدولة؟ فقلت: إنه بعدما يصبح الطفل رجلاً نافعاً، سوف يقوم بأشياء تخدم وطنه، فقد فاز ابني ياو ووي بجائزة أجنبية عن مشاركته في فيلم، أليس هذا إنجازاً للدولة؟ ثم سألني الصحفي قائلاً: «يقول الجميع: إن بكين عاصمة كبيرة، ومركز للتبادل السياسي والثقافي والاقتصادي، وجنة يحلم بها الجميع، ألم تكن بكين جنة تحلم بها؟». فأجبت: بالطبع تُعد بكين مكاناً متحضراً، وأحياناً أسمع الناس في الشارع يتحدثون عن ذلك». وأوشك على إنهاء المقابلة، وقال: «أشكرك، إلى اللقاء». لقد اكتسبت الكثير من المعرفة في بكين، وكنت أشاهد التلفاز في المنزل ليلاً، وأرى الرئيس ورئيس الوزراء، وأشعر أننا أيضاً في بكين وقریبون منهم.

في ليلة 13 من يوليو عام 2001، كانت عائلتنا مثل مئات الملايين من الشعب الصيني، تغمرنا الحماسة والسعادة ويطوقنا شعور مثل شعورنا بقضاء السنة الجديدة، وبعد ذلك كنت أذهب لمشاهدة هذا، وأعود للقيام بذلك، فكنت دؤوباً جداً؛ كانت الألعاب النارية تغمر الفناء الصغير الذي نسكن فيه، وأضاءت الفناء كله، حتى إذا سقطت إبرة على الأرض تستطيع رؤيتها؛ في هذا اليوم نجحت بكين في استضافة الأولمبياد، وفي هذا اليوم أيضاً عبرت جسر معبد تيانينغ، ورأيت على الطريق إعلاناً عن قبول مدرسة ليانغ شيانغ للوشو بمنطقة فانغشان طلاباً جددًا، فقررتُ أن أسجل لياو ووي، كما كان مكتوب بأعلى الإعلان تستطيع أن تصبح نجماً في الوشو». كان ذلك اليوم سعيداً حقاً.

قال لي الصحفي ليو خلال المقابلة: في يوم نجاح دورة الألعاب الأولمبية في بكين، كان متحمساً جداً؛ ولكن لم يُسمح بإطلاق الألعاب النارية والمفرقات داخل المدينة؛ لذا كان يشعل الألعاب النارية بداخل حمامه الخاص، ونتيجة لذلك سقطت شرارة المفرقات على قدمه، وتركزت فقاعة من أثر الحرق. ضحكت عندما سمعت كلامه، ثم قلتُ له: «إنه أمر مبهج». يحب ابني ياو ووي التحرك منذ صغره، وكان الجيران يقولون: إن لم يتعلم هذا الطفل رياضة الوشو سيكون أمراً محزناً. وأنا أيضاً أعتقد ذلك، لا بد أن يتعلم رياضة الوشو؛ الوشو أيضاً تُضاف إلى الألعاب الأولمبية، أليست هذه أشياء سعيدة تتوالى الواحد تلو الآخر».

في إحدى الليالي، ركبت الدراجة وذهبت لاستقبال أخي الذي كان يحضر البضائع من سوق شينغادي، وعندما وصلت إلى منتصف الطريق، تذكرت فجأة أن ياو ووي سيأخذ العطلة الشتوية، وسرعان ما أخرجت الهاتف من جيب المعطف البالي، واتصلت بمدير قسم السينما والتلفزيون بمدرسة شاولين للوشو ببكين قوه شي مي، لأسأله هل تُتاح فرصة الرقص للنجوم في عيد الربيع هذا العام؛ فقال المدير قوه: إذا وجدت فرصة سيشارك ياو ووي بكل تأكيد.

في تمام الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم 3 من سبتمبر عام 2012، جاء المراسل الصحفي بوكالة شينخوا فرع بكين وانغ تشن أمام الكشك، ثم قال: إنه يخشى إزعاجي لأنني كنت أقوم بالكتابة، فوقف بجانبني ينظر إليّ في صمت لفترة من الوقت، وانتهاز فرصة أنني فرغت من الكتابة، وبعد أن انتهيت من تحصيل المال من عدة زبائن، جاء وتحديث إليّ، أتذكر فقط في ذلك الوقت أن شاباً وسيقاً طويل القامة ابتسم لي ثم قال: «أخي ياو، أسف لإزعاجك، أنا صحفي بوكالة شينخوا، أريد أن أذهب إلى منزلك لإجراء مقابلة صحفية». ثم سألني متى سأنتهي من عملي، فأخبرته أنني أنتهي من العمل في الساعة الثانية عشرة. فقال الصحفي وانغ: «بعدما تفرغ من جمع الكشك والانتهاء من العمل انتظرنني، هناك صحفيان يريدان الذهاب معك إلى المنزل».

بعدما انتهيت من جمع الكشك، نقلت السلّة عند أخي بالفناء الشمالي وطلبت منه أن يسحبها، وعندما عدت رأيت صحفيين أمام الكشك كانا في انتظارى، سألتني أحدهما: "كيف سذهب إلى منزلك؟ كيف تأتي عادة إلى السوق؟". فأجبته قائلاً: "أحضر أنا وأخي البضاعة كل يوم على عربة ثلاثية العجلات مسطحة، أخي في المقدمة يقود العربة، وأنا أدفعها من الخلف". عندما ركبنا السيارة الأجرة قال أحد الصحفيين: "أنت زميل قروي". عندما سمعتُ كلمة "زميل قروي"، امتزجت كل أنواع المشاعر داخل قلبي، وتناولنا الحديث عن مقاطعة أنهوي حتى مدينة لينتشوان، وكذلك تحدّثتُ عن تجربة خروجي هذه السنوات؛ سمع ذلك الصحفي أنني أقوم بأعمال تجارية صغيرة وأثبت قدمي في بكين، وكذلك أعدّ للوطن جيلاً شاباً واعداً، فكان متأثراً جداً، وقال: "أنت تعتمد على بيع الزنجبيل لتربية ابنك ياو ووي وتدريبه للحصول على العديد من الجوائز، كما أن الطفلين الآخرين متفوقان أيضاً، نحن أهل أنهوي فخورون بك".

لم يفهم أخي الكبير الذي كان يتولى مهمة التنظيف نشاط الكتابة الذي أقوم به في سوق الخضراوات تيانتاو، وقال لي: "أنت شخص مختل عقلياً". لم يكن هو الشخص الوحيد الذي قال هذا الكلام، في الواقع أنا من وجهة نظر الآخرين هذا الإنسان الذي تلقى تعليمه حتى الصف الرابع الابتدائي فقط، ولا يعرف حتى بضع كلمات، ويكتب في الأيام الباردة، إذا لم أكن شخصاً مختلاً عقلياً، فماذا أكون؟

قرأت من قبل في كتاب هذه الجملة: "تحمل المشاق والمتاعب هو مؤقّ ومنسّط"، وهذا يعني أنه إذا واجه الإنسان منذ صغره كل أنواع الصدمات ورافقه الحظ السيئ، فما دام استطاع الاستمرار، فإنه يستطيع دائماً تحقيق إنجازات كبيرة في المستقبل؛ لأنه عندما يعاني ينبغي له تحفيز نفسه لإيجاد سبل لمواجهة الصعوبات، وبالتالي زيادة الطاقة الروحية والقدرة على تحقيق السعادة في الحياة.

ربما نجد بعض الناس تكره مواجهة الصعوبات، وتشكو: "لماذا أواجه دائماً المعاناة والألم؟ ولكن عند التفكير قليلاً نجد أننا نركز على المعاناة لأن الحياة قصيرة، فمن خلال هذه المعاناة نخوض تجارب هي الأكثر قسوة في حياتنا.

شكراً لكل مَنْ ساعدني

هذا الكتاب كتبه عامل مهاجر لأهديه إلى الأطفال العاملين مثلي، سجلت خلال الكلمات تجربتي في الخروج للعمل وإحضار أسرتي إلى بكين، وأود أيضاً أن أشكر الأشخاص الثلاثة أصحاب الفضل عليّ، وأريد أن أثبت لمن ساعدني أنني لا أضيع الوقت، ولم أخيب آمالهم؛ أنا إنسان يُقدّر الحياة، وزوجتي امرأة فاضلة، نتبادل الحب والاحترام فيما بيننا، وأبنائي يتميزون بالحيوية والطف والطاعة، ويجلبون لي راحة لا نهاية لها.

أنا رجل ريفي غير متعلم لا أجيد الحديث، اعتمدتُ على كلماتي غير الناضجة لشكر الناس والامتنان للحياة.

أول شخص له فضل عليّ أود شكره هو الأخ ياو تشي بين، الذي أقرضني 50 يواناً تكاليف السفر للعمل بويهاي بمقاطعة شاندونغ، مما جعلني أكسب 7.5 يوانات يومياً، في العمل الأول حصلت على 2620 يواناً، وكان هذا «مجد» لم تحظ به عائلة ياو من قبل، وفي عام 1997، اقترضتُ من الأخ ياو تشي بين مرة أخرى 1200 يوان، وتولدت بداخلي رغبة قوية لتغيير مصير الأسرة، وجئتُ إلى بكين لكسب لقمة العيش، وفي منتصف الشهر التاسع في التقويم القمري عام 1993، أصيب أبي فجأة بمرض خطر، وأخرج هاتفه واتصل بي في الموقع بويهاي ليخبرني أنه أخذ أبي لرؤية الطبيب، وأنه سيدفع رسوم المستشفى؛ قال للطبيب: «افحصه، وإذا لم يدفع ابنه النفقات الطبية بعد عودته سوف أقوم أنا بدفعها». ما زلت أتذكر قبل المجيء إلى بكين أنني اقترضتُ منه رأس المال لممارسة التجارة، قال أخي وزوجته في صوت واحد: «اذهب إلى بكين، ولا تتردد في أن تقول كم تحتاج من المال!». كانوا يقولون مثل هذا الكلام لشخص مثلي تعرّض للظلم والاحتقار من الناس كما لو كنت نملة، وهذا الفضل محفور في ذاكرتي دائماً.

الشخص الثاني صاحب الفضل عليّ هو الأخ ياو تشي دي، الذي عرّفني زوجتي وأصبح لدي أسرة كاملة. أما الشخص الثالث هو ابن أخي ياو شينغ بانغ، الذي أحضرني إلى بكين، وساعدني حتى تمكنت من استخدام العربة ثلاثية العجلات لشق الطريق في بكين والسعي وراء لقمة العيش.

بالإضافة إلى هؤلاء الأشخاص الثلاثة، هناك شخصان يتميزان بقلبيهما الطيبان بقرية سونغ جياوا اللذان قدما لأطفالي الكثير من الملابس، كما أهدوني مسجل ماركة الضوء الأحمر، وكان هذا أول جهاز أمتلكه؛ وهناك أيضًا المعلمون الأربعة الذين علموني أعمال الآجر والقرميد، وكانوا يعطونني الفول السوداني والفاكهة والمنتجات البحرية وغيرها من المأكولات عند الانتهاء من العمل كل عام؛ كل هذه الأفضال لا أنساها.

جئت إلى بكين منذ 16 عامًا، في أول 5 سنوات كنت أبيع المخللات، بعد ذلك غيرت نشاطي التجاري لأبيع الزنجبيل، كان الأخ هوي يساعدني دائمًا في الكشك بيكين، وكذلك مالك السكن ذو القلب الطيب؛ ومن دون مساعدتهما، لما استطعت أن أعيش حياة سعيدة مع كل أفراد عائلتي اليوم. عندما كنت في ويهاي، في كل مرة كان يتناول زملائي الطعام لا بد من تناول البيرة، بينما كنت أستخدم علبة الطعام لشرب الماء الساخن، وأنفقوا أكثر من يوانين لشراء زجاجة شامبو للشعر ماركة زهرة النحل، بينما أنفقت يوانًا ونصفًا لشراء مسحوق غسيل كبير، لغسل الملابس وغسل الشعر. في كل مرة كانوا يذهبون إلى العمل في المدينة، في الشتاء يخشون البرد وفي الصيف يخشون الحرارة والشمس؛ لذا كانوا يعودون إلى منازلهم في وقت مبكر، بينما كنت أضم في يدي ماوين وأقف في المحطة لانتظار الحافلة. ذات مرة كنت أعمل في تشي جيا بويهاي، فوجدوني صادقًا وأودي واجبي، لم يسمحوا لي بالمغادرة إلا بعد الانتهاء من تناول الطعام، وقالوا لي: «ماذا أكلت في المطعم؟ الوقت ما زال مبكرًا؛ ماذا ستفعل عند العودة إلى المنزل؟ تناول الطعام في المنزل ثم اذهب». كما أعطوني 20 يوانًا لأستقل سيارة، التقيت الكثير من أصحاب القلوب الطيبة مثلهم.

الفصل الخامس: لأجلكم، سأذوق المرارة بكل سعادة مرة أخرى

حب الأطفال هو مسؤولية الوالدين وواجبهما، فبغض النظر عن مدى المرارة والمعاناة وسوء الحظ والصعوبات والظلم الذي نتعرض له في الحياة، فلحظة التفكير في شكل الأطفال المتعب ووجوههم الحساسة والذكية، يختفي معظم تعب اليوم، الثمن الصعب الذي نقدمه نراه في أعين أولادنا، ونستشعر شكرهم لنا من أعماق قلوبهم، هذا أكثر ما يشعرنني بالفخر والرضا.

إرسال الابن الثاني لتعلم الووشو «فنون الدفاع عن النفس»

كانت فكرة إرسال الابن الثاني لتعلم الووشو فكرتي، عندما كانت أمي على قيد الحياة قالت لي: إن عدم زرع المحاصيل وتأجيل زرعها هو تأخر فصل واحد؛ ولكن تأجيل الالتحاق بالدراسة هو تأخر العمر كله. كان كلام أمي مصدر إلهامي.

في بداية الشهر السادس في التقويم القمري عام 2001، وصل الطفلان إلى سن الالتحاق بالمدرسة، فكرت في أنني توقفت عن التعليم بسبب عدم القدرة على دفع الرسوم الدراسية، فقررت أن أقوم بكل شيء ممكن في هذه الحياة ليلتحق أطفالي بالدراسة، في تلك السنة كان يبلغ ابني الكبير قوه تشينغ 6 سنوات، عندما كان في منزلنا القديم، تلقى على رأسه عدة لكمات من قبل امرأة بكماء؛ لذلك كلفت ابنة أخي بأن تحضره إلى بكين، فلم أستطع أن أراه يتعرض للضرب والظلم بلا حول ولا قوة. لم تشتر ابنة أخي تذاكر القطار، وحملت على كتفها الأمتعة، وسحبته في يدها. عندما وصلا إلى بكين كان الطقس حاراً، وجعلت ابنة أخي ابني الكبير ينام في مقعد صلب بالقطار 12 ساعة ونصفاً، بينما كانت تقف هي طوال هذا الوقت، حتى تورمت ساقاها، ألمّ تعان كل هذه المعاناة من أجل ابني؟ لن أنسى لها أبداً هذا المعروف.

تركت عائلتنا موطنها الأصلي وجاءت إلى بكين، لن تكون الحياة سهلة بعد ذلك؛ لذلك استعدنا لهذه النقطة جيداً. أجهدت ذهني أنا وزوجتي في التفكير، من أجل إيجاد مدرسة أرخص ليذهب إليها أطفالنا، إلى أن وجدنا أول مدرسة يمكنهم الالتحاق بها وهي مدرسة معبد وانتشون الابتدائية التي كانت قريبة من سكننا.

كنت في حيرة من أمري عند البحث عن مدرسة لابني، كان ابني الثاني ياو ووي يبلغ عدة أشهر من العمر، وعند بكائه كان يتدحرج من رأس السرير إلى نهايته، منذ ذلك الحين شعرت أنه يصلح للمضي في طريق تعلم الووشو، فقلت لزوجتي هذه الفكرة؛ ولكن لقيت معارضتها على الفور، قائلة: «تريد أن ترسل الطفل إلى مدرسة الووشو ليتعلمه لمدة عام أو عامين ثم يعود، إنك بذلك تضحك علينا الأهل بالبلدة». عندما علمت أن التسجيل أوشك على الانتهاء، كنت قلقاً كمنلة على مقلاة ساخنة.

وبعد الظهر قامت زوجتي بقلب المكان رأساً على عقب حتى وجدت سجل الإقامة الدائمة وتصريح الإقامة المؤقتة، وأخذت الطفلين للتسجيل في مدرسة معبد وانتشوان الابتدائية، قال مدير مكتب تسجيل قبول الطلاب بالمدرسة: إنه يجب دفع 200 يوان رسوماً لكل طفل؛ أي 400 يوان للطفلين، وكان مبلغ 400 يوان أحصل عليه من ركوب العربة ونصب الكشك عدّة أيام.

في ذلك اليوم فكرت لليلة، كنت أشعر أن ابني الثاني ياو ووي شخص جيد ومناسب لتعلم الووشو؛ لذلك قررت أن أرسله لتعلم الووشو ولن أؤجل تعليمه.

لم يتفهم أهل القرية ذلك، فهم يعتقدون أن تعلم الووشو ليس له مستقبل، وأنه في النهاية سيعود إلى المنزل لزراعة الأرض، عندما قضى ياو ووي أكثر من 4 أشهر كشف عن مواهبه الرياضية، وكان وهو صغير يبكي على السرير المسطح الذي اشتريته مقابل 50 يواناً، ويتقلب من الشرق حتى غرب السرير، ثم يعود من الغرب إلى الشرق مرة أخرى، منذ ذلك الحين تولدت لدي فكرة التقديم لتعلم رياضة الووشو بعدما يكبر، فكما يقول المثل: «في عمر الثالثة يبدو كبيراً، وفي السابعة يبدو رجلاً»، عندما بلغ ياو ووي الثالثة من عمره، كان يلعب المصارعة مع أطفال أكبر منه، وقال: إنه يستطيع التغلب على الطرف الآخر، ولا يعتمد على استخدام القوة الغاشمة، وكانت استجابته سريعة، وعندما يدخل مع الأطفال الآخرين في سباق، كان يجري أكثر منهم دورة ذهاباً وإياباً.

عندما كنت أسكن أنا وأسرتي عند تقاطع شارع دونغ قوانتو وايفنغ ينغ بمنطقة فونغتاي، كانت في الناحية المقابلة قاعدة بكين للتدريب الأمني، في كل صباح ومساء كان يرى ياو وويي الكثير من الرجال يصيحون بأصوات همهمة وهم يتدربون، والذراعان والساقان يتحركان معاً، فكان التدرّب في سنٍّ صغيرة أمراً رائعاً، قال مالك السكن وأحد زملاء: "إن ياو وويي لبنة نافعة، وإرساله لتعلم رياضة الووشو بمدرسة معبد شاولين في المستقبل هو أمر جيد". وقال بعضهم الآخر: "إذا أراد ياو وويي تعلم رياضة الووشو فلا بد أن يجتهد في تعلمها، حتى يطورها وينميها في المستقبل، ويستطيع أيضاً فتح مدرسة لتعليم فنون الدفاع عن النفس في مسقط رأسنا".

في يوم التحاق ياو وويي بمدرسة تعلم الووشو، حدث تغير في قلبي تدريجياً، وكنت أفكر فيما أستطيع تركه لطفلي؛ لذلك كنت أبيع الزنجبيل، وفي الوقت نفسه أسجل كل شيء متعلق بطفلي، كم عدد الليالي التي لم أُنم فيها، كنت أخذ القاموس وأستخدم الرموز الطولية البسيطة التي كتبتها، لأسجل بكل حب أحوال الطفل وحياته بمدرسة شاولين لفنون الدفاع عن النفس في بكين.

مدرسة ياو يويفو للوشو بمنطقة فانغشان

في خريف عام 2001، كان ياو وويي يبلغ الخامسة من العمر، عندما كان هذا الطفل بين ذراعي والدته مدلاً، في ذلك العام قلت لنفسي: إذا عانيتُ الفقر ثانية لن يكون هناك تقصيراً في تعليم أبنائي، فقررت إرسال الطفل إلى الالتحاق بالدراسة في مكان قريب، بعدما وصل ياو وويي إلى بكين، حتى الآن انتقل مع والدته من مكان لآخر في بكين 8 مرات، كانت مدرسة معبد شاولين للوشو بقاوشان الموجودة بياو يويفو بمنطقة فانغشان أول حلم لياو وويي لعرض الملاكمة الصينية.

وبعد ظهر يوم 26 من أغسطس عام 2001، ذهبت أنا وأسرتي المكونة من أربعة أفراد إلى محطة ليولي تشياو سيراً على الأقدام لنستقل الحافلة رقم 917 للذهاب إلى مدرسة ياو يويفو للوشو بمنطقة فانغشان، كان وقت ما بعد الظهر في ذلك اليوم هو الأكثر نشاطاً لتدريب الكونغ فو في الصيف، في هذا اليوم أخذت أنا وزوجتي الطفلين للاستفسار، ورأيت في عين ولي الأمر الكثير من الأطفال يتدربون الكونغ فو، وكان بعضهم يبكي بصوت عالٍ من ألم الضغط على الساق وأسفل الظهر عند ممارسة المهارات الأساسية، ولا تتوقف الدموع عن الانهمار؛ لذلك ترددت أنا وزوجتي لفترة طويلة، ودفعت أكثر من 4 آلاف يوان مقابل الرسوم الدراسية للطفل، وكذلك 200 يوان تأميناً لمدرسة معبد وانتشوان، كيف يمكنني القيام بذلك، إذا قلت: إنني لن أدع ابني الثاني يتعلم الووشو، كيف يمكنني سحب الحطب من تحت وعاء الطهو؟

في هذا الوقت بدأ الظلام يسود تدريجياً، حاول ياو وويي بكل وسيلة ممكنة حتى لا نتركه هناك، ولم يكن في وسعي سوى أن أبقى أمه معه، وعدت أنا وابني الأكبر إلى المنزل أولاً.

في تلك الليلة لم أعلم كم الدموع التي تساقطت، وفي صباح اليوم الثاني ركبت العربة وذهبت إلى السوق وعينايتي متورمتان، ذهبت لممارسة التجارة هناك، وأخذت أبكي على قطع المخلل، فأنا الذي قاربت على الثلاثين من العمر كنت أبكي في سوق الخضراوات زقاق وي بينغ بشيدان. اتصلت بزوجتي وأنا في السوق لأسألها على حال ياو وويي، قالت زوجتي: «سحب ساقي ولم يدعني أذهب، ولم أُنم في الليل لأنه يطوق ظهري دائماً». استمعت إليها وقلبي يتمزق من الحزن، وقلت لها: «نحن لا نريد هذه الآلاف من الحيوانات، عودي أنت وابننا». وبعد أكثر من نصف ساعة، اتصلت زوجتي مرة أخرى وقالت لي: ياو وويي سوف يبقى في المدرسة». خدعت زوجتي الطفل وقالت له: «اذهب إلى الغرفة وأحضر ورق التواليت لأمك». «وانتهزت زوجتي هذه الفرصة وركضت بسرعة نحو البوابة التي كانت تبعد عدة أمتار. أخذ طفلي البالغ من العمر 5 سنوات يبكي حتى يتمزق حلقه وكان يصرخ قائلاً: «أمي، عودي يا أمي». وعندما سمعتها كان يتقطع كبدي من الحزن، ولم تجف دموعي لأكثر من أسبوع.

سمعت العديد من البائعين في السوق يقولون: إن نتيجة دراسة الطفل تعتمد بشكل كامل على الطفل نفسه. ولكنني لا أعتقد ذلك؛ بل أعتقد أن تعليم الآباء لأبنائهم يحتل نسبة كبيرة؛ أظهر ياو وويي مواهبه الرياضية في سنٍّ مبكرة؛ لذلك كنت أدربه في هذا الاتجاه، وهو أيضاً احترام لطبيعة الطفل.

تدرّب ياو وويي على الكونغ فو لأكثر من شهر في مدرسة الووشو، وكان مدير المدرسة راضياً عنه، قال المدير: إن هذا الطفل يتدرب باجتهاد على الكونغ فو، وفي المستقبل سيكون قادراً على استيعاب الووشو دون أي مشكلة. منحني كلام المدير تشجيعاً كبيراً، بعدما التحق ياو وويي بمدرسة الووشو، في بعض الأحيان كنّا نراه مرة كل شهرين أو ثلاثة أشهر. لم يكن

وضعنا الاقتصادي جيداً، في كل مرة أذهب لرؤيته كنت أهرول لألحق بالسيارة، وأذهب سيراً على الأقدام من مكان سكننا بالفرق الخمسة بمعبد وانتشوان إلى محطة حافلات ليولي تشياو، وأحياناً كنت أشتري له بطيخة أو بضعة أكياس من الحليب الحامض، وكان يسعد الطفل بذلك فترة طويلة.

منذ أن التحق ياو وويي بمدرسة الووشو، أصبح مركز اهتمام العائلة كلها، فكانت الأسرة تدخر أكثر وأكثر، كنت أعيش مع عدد من زملاء القرية، ولأول مرة في حياتي أكون كريماً جداً وأشتري سترة بسعر 195 يواناً؛ ولكن وبخني زميلي، وقال: إنه يستطيع شراء ثوب أفضل من ذلك مقابل 20 يواناً من السوق الصباحي موشي يوان.

بعدما حضر ياو وويي التدريب أكثر من شهر رفع شعار الأول، كنت أراه أنا وزوجتي يظهر على الساحة، والسعادة تملأ وجهينا، كان يلعب بساقه أعلى وأسرع وأكثر ثباتاً من الأطفال الآخرين، وبعدما عدت أنا وزوجتي ظلت السعادة تملؤنا لعدة أيام.

في 23 من يونيو عام 2002، شارك ياو وويي بعد تدريبه 9 أشهر في مسابقة الووشو «كأس هاو تيان» مجموعة الرجال والأطفال بمنطقة فانغشان، وحصل على المركز السادس، وكذلك حصل على شهادة صغيرة. عندما التحق بالصف الثاني كان يحضر دروس التربية البدنية، وكان طلاب ثلاثة فصول يجرون معاً، وحقق ياو وويي المركز الأول، وفي الفصل الدراسي الثاني حصل على لقب «نجم رياضي».

في 20 من أكتوبر عام 2003، حصل ياو وويي البالغ من عمر 7 سنوات على المركز الأول في مسابقة ملاكمة شينغي الوطنية في بكين مجموعة الرجال والأطفال وحقق 8.35 نقطة، وحاز الميدالية الذهبية، قال عضو من مجموعة كبار السن يبلغ من العمر 65 عاماً من خنان مسقط رأس الووشو: "أيها الشاب أنت ماهر، أنا لم ألمس الميدالية الذهبية في حياتي".

في ربيع عام 2003، وسّع الطريق بجانب مدرسة الووشو، وكانت تحتاج المباني المحيطة إلى الهدم، ونُقل فصل ياو وويي إلى المكتب الرياضي بمنطقة فانغشان للتدريب على الكونغ فو، اجتهد ياو وويي في التدريب بالصف، ولقي ثناءً من المعلم لي ليان جيه وبطل الووشو الصيني الشهير الكبير وو بن، عندما ذهب وو بن إلى المكتب الرياضي بمنطقة فانغشان مرة ثانية، تعرّفه ياو وويي حالما لمح به بعينه وصاح قائلاً: "أهلاً بالجد وو بن". منذ أن التحق ياو وويي بمدرسة الووشو ارتفعت روحنا المعنوية، وبدأ جسدي يتعافى تدريجياً، كان التحاق ابني بمدرسة الووشو هو أكثر ما أثار هممتنا لممارسة التجارة، وبذل الجهود لكسب المزيد من المال لدفع الرسوم الدراسية للأبناء، على الرغم من أن بيع المخللات هو عمل تجاري صغير، ومن الصعب كسب المال، فإنني كنت أفكر في أن يتمكن الطفل من تعلم الكونغ فو جيداً، فكان ذلك دافعاً للأسرة.

كان هدم مدرسة معبد شاولين للووشو بقاوشان الموجودة بياو يويفو بمنطقة فانغشان، فرصة ليدرس ياو وويي دروس الووشو والدروس الثقافية، لم تجمع هذه المدرسة بين الفنون الثقافية والعسكرية معاً، فكان يعود إلى الجبل للتدرب على الكونغ فو من الساعة الخامسة صباحاً حتى السادسة مساءً، وفي الأوقات الأخرى يذهب إلى مدرسة أخرى لتلقي الدروس الثقافية، على الرغم من أن هذا الوضع لم يكن مريحاً، فإن ياو وويي حقق نتائج جيدة في ظل متطلبات المعلم الصارمة، وكان أفراد الأسرة كلهم سعداء. قالت زوجة معلم ياو وويي: إنه من الأفضل تحويل الطفل إلى مدرسة تجمع بين الفنون الثقافية والعسكرية؛ لأن هذا الطفل موهوب، ولا يجب أن نضيع موهبته؛ بل لا بد من استغلالها وتنميتها. بعد اتخاذي هذا القرار، كنت أكل كل يوم المعكرونة النباتية وأشرب الماء البارد، حتى أتمكن من إرسال ياو وويي إلى مدرسة تجمع بين الفنون الثقافية والعسكرية من الدرجة الأولى في الصين.

كان يعود ياو وويي إلى المنزل مرتين في الشهر، وفي بعض الأحيان يكون الوقت أطول من ذلك، في كل مرة يعود كنت أخبره بكل صبر حال أسرتنا من قبل، ترسخت جذور عائلتنا في بكين، حتى تمكنت من إرسال ابني إلى المدرسة، أريد أن أشكر مدير السوق الأخ هوي ومالك السكن العم شو، فهما اللذين قدما لي الملابس التي كنت أرديها أنا وأخي، كل هذا ذكرته في مذكراتي.

الملابس الرخيصة

بسبب اضطراب حالتي المادية في الحياة اليومية، لم أتردد في شراء سكاكر الفواكه ليتناولها طفلي، ولكنني سمعت أن هناك شخصاً يريد القدوم إلى منزلنا لإجراء مقابلة، فنظرتُ إلى الملابس التي أرتديها وجدتها في الواقع لا تتناسب الموقف؛ لذلك اشتريت لأول مرة بعض الملابس لنفسني، وعلى الرغم من حزني لإنفاق المال، فإنني كنت أعتقد أنها تستحق الشراء.

في 29 من أبريل عام 2012، شارك ياو وويي في عرض مدرسة شاولين للوشو في بكين، وقام بأداء عرض سيف شاولين أمام العديد من المشاهدين، وفي اليومين التاليين أجرى مقابلة صحفية.

لم تكن تجارتي تسير على ما يرام في الآونة الأخيرة؛ لذلك لم يكن وضعي المالي جيداً، ولم يكن معي نقود إضافية لشراء سروال، وفي صباح يوم 10 من مايو عام 2012، اضطررت إلى ارتداء سروال لم يجف بعد للذهاب إلى السوق.

كان اليوم السابق يوماً مشمساً، واعتقدت أن الطقس جيداً، فخلعت السروال وغسلته، قضى هذا السروال معي أكثر من عام، ولكن ما لم أتوقعه هو أن الطقس الجيد تحول فجأة وتساقط المطر في النصف الأول من الليل.

الساعة الرابعة والنصف صباحاً كان موعد استيقاظي الذي لم يتغير، ولم يكن ذلك اليوم استثناءً، فتحت عياني ثم فتحت الباب، كانت لا تزال السماء تمطر رذاذاً في الخارج، وابتل ذلك السروال البالي الذي كنت أرتديه دائماً، ماذا سأفعل؟ فعدم ممارسة التجارة في السوق يوماً واحداً، يعادل ألف بالعربية ثلاثة أيام، وبالتخلي عن الخروج يوماً واحداً لا تتوافق النفقات مع الدخل، أعتقد دائماً أن كل شيء لا يمكن أن يكون كما أرغب تماماً. وبغض النظر عما يحدث، كان هذا اختباراً، ومن دون الضغط لن يكون هناك دافع لي، وإذا تعذر التغلب على هذه المشكلة، ماذا سأفعل إذا واجهت صعوبات كبيرة بعد ذلك؟ لذا في ذلك الصباح قررت أن أرتدي ذلك السروال الذي لم يجف وزهبت لبيع الخضراوات في السوق، ذلك الشعور البارد الرطب لن أنساه حتى الآن، بذكر هذا السروال أتذكر قصته.

بعد ظهر يوم 10 من يناير عام 2010، رأيت المدير المعين حديثاً قوه في قسم السينما والتلفزيون بمدرسة شاولين للوشو في بكين، قال لي المدير قوه: «تحسنت فصول السينما والتلفزيون بالمدرسة، ويحتاج أعضاء فصول السينما والتلفزيون إلى توافق وتغيير كبيرين، والطلاب الذين ينفقون الكثير من المال للتعبئة السينمائية والتلفزيونية يُصنفون بأنهم متدربون بطاقة ألماس، بينما يُصنف الطلاب الذين يمتلكون القليل من المال أو ليس لديهم مال، بأنهم متدربون الكارت الذهبي والنحاسي والحديدي». كان هناك قاعدة أخرى بمدرسة شاولين للوشو في بكين، تنص على أنه إذا قام المتدرب بالتعبئة بقيمة 50 ألف يوان، تكون كل المسابقات المحلية مجاًناً، أتمنى أن يتقدم ابني للأمام، هناك الكثير من الأماكن التي تحتاج إلى المال، ولا بد أن يتقدم ابني أيضاً ويحقق المجد، وأنا كأب لا أستطيع أن أعرقل تقدمه.

في هذا اليوم قال المدير قوه: إنه يريد الذهاب إلى منزلنا لإجراء مقابلة، فشعرت أنه حدث كبير، عادة لا أتردد في شراء سكاكر الفواكه لأطفالي؛ ولكن بعدما سمعت أن مدير مدرسة شاولين للوشو ببكين يريد إجراء مقابلة مع أسرتنا الفقيرة، بدأت في الاستعداد لهذه المقابلة، كنت أتجول دائماً في جنوب بكين، وانتظر السلع المخفضة في عدد من محلات السوبر ماركت؛ لأنه عادة ما تكون السلع هناك غالية جداً، وأخيراً جاء اليوم الذي أنتظره، واشتريت سترة مبطنة من القطن مجددة مقابل 35 يواناً وسروالاً بسعر 19.9 يوانات من متجر صغير بجنوب طريق باي تشي فانغ تشياو دونغ ببكين، وعند شراء هذه الأشياء شعرت أنها من لحمي ودمي؛ ولكن من أجل ابني اشتريت هذه الملابس وأنا أعرض على أسناني.

كان هذا السروال المبلل هو الذي اشتريته في ذلك الوقت، وكان هذا هو الثوب الوحيد الذي أرتديه، ولم يكن لدي أي سراويل أخرى؛ وبحلول الظهر ظهرت الشمس ووقفت تحتها، وأنفقت وقتاً طويلاً حتى يجف هذا السروال الذي اشتريته بعدة يوانات.

قصة ارتداء حذاء صغير

كنت أتابع السلع الرخيصة لذلك اشتريت زوجاً من الأحذية صغيرة الحجم، وعند ارتدائه كان العرق يتراكم، كان ارتداء هذا الحذاء في القدم يحتاج إلى جهد كبير، فيحتاج أولاً إلى سحب رباط الحذاء ثم أوجه أطراف أصابعي باتجاه الأرض؛ وأقوم بدفعها بقوة عدة مرات، وسحبها للأسفل حتى أتمكن من ارتداء الحذاء.

لطالما أتذكر أن عدة أجيال من عائلة ياو كانوا شخصيات صادقة مشهورة في قريتنا شويينغ الكبيرة التي كان يعيش فيها أسلافنا، أنا لست بارعًا في الحديث، ولكنني صادقًا، حتى لو تعرضت للإهانة والظلم كنت أتحمّل الإهانة على مضض، وأبتلع الألم، عندما كنت صغيرًا، كنت جبانًا أخاف من أي شيء؛ لذلك كنت أعرض دائمًا للإهانة والظلم من الآخرين، ولم أجروا على إخبار عائلتي، في ذلك الوقت كانت أسرتنا فقيرة جدًا، وكل صيف كان ينذر بقدوم أيام صعبة، ولم يكن الكوخ البسيط المسقوف بالقش واقياً من الرياح والأمطار، جعل المطر الثلجي الغزير الأسرة الفقيرة تعاني من كارثة تلو الأخرى، وجعل الكوخ القش أكثر تهالكًا.

قبل سن العاشرة، لم أستطع شراء حذاء جديد؛ بسبب فقر عائلتي؛ لذا كنت دائماً ارتدي أحذية قديمة، عند الصغر كان أبي يساعد الآخرين على القيام بالأعمال في فصل الشتاء خلال الأيام الباردة، حتى يستطيع شراء زوج من الأحذية المبطنة بالقطن، وحتى الآن الملابس التي أرتديها كنت أقتصد من أجل شرائها، والحذاء الذي أرتديه ممزق؛ ولكن ما دام يمكنني ارتدائه فلا أستطيع الاستغناء عنه ورميه، هذا العام أبلغ من العمر 40 عاماً، عشت ما يقرب من نصف حياتي، كنت دائماً لا أتجاوز الحد ولا أفعل شيئاً يستحق الانتباه أو أقوم بعمل كبير. وما أعرفه هو أن أجدادي أيضاً لم يفعلوا أي شيء يستحق التباهي.

كانت بكين هذا العام أكثر دفئاً من السابق، والطقس جميل جداً، والحذاء الذي أرتديه الآن أهدته لي الأخت التي استأجرتُ منها المنزل، وعلى الرغم من أنه ماركة نايك، فإنه تمزق بعد فترة طويلة، وبحلول شهر مايو وصلت درجة الحرارة إلى درجة تقريباً، في ظهر كل يوم أنتهي من جمع الكشك، ولحظة دخولي باب المنزل، تقول والدة ياو وويي: «عندما تدفع 30 الباب وتصل إلى هذا الفناء، أشم رائحة غريبة من بعيد».

قالت لي والدة ياو وويي هذا الكلام عدة مرات، مما دفعني لشراء حذاء جديد، وانتظرت موعد اجتماع أولياء الأمور بمدرسة الطفل لأرتديه، في الربيع والصيف من كل عام عند ذهابي إلى اجتماع أولياء الأمور كنت أرتدي زوجاً من الصنادل الجلدية، اشتريته من مول ميرري مارت الموجود بجنوب الطريق الشرقي باي تشي فانغ تشياو بيكين، وكان بداخل ذلك المتجر الخاص ملصقات بعلامة صفراء مكتوب عليها 19.9 يوانات. اشتريت هذا الحذاء الجلدي خصوصاً لأرتديه عند الذهاب إلى اجتماع أولياء الأمور. كان هذا الحذاء في نظر بعض الناس يجب إلقاؤه في سلة المهملات، ولكنني لم أستغن عنه بل كنت أرتديه، وحتى عندما كنت أرتديه في الاجتماع؛ بسبب الفتحة التي كانت تشبه فتحة الفم الموجودة في القدم اليسرى، في كل مرة كنت أبعد حوالي 10 أمتار عن المدرسة، أبدأ في المشي على أطراف أصابع القدم، وبعد الانتهاء من اجتماع أولياء الأمور، عندما كنت أمشي، أسمع صوت طقطقة تحت قدمي. عندما كنت أرسل الطفل إلى المدرسة في ظل الطقس الممطر مرات عديدة، أرتدي الحذاء القماشي الأصفر، ويزداد فجأة معدل نظري إلى الورا بسبب ارتدائي هذا الحذاء.

كل يوم بعد الانتهاء من جمع الكشك، كان عليّ المرور بمكانين، الأول هو معبد باو قوه، والثاني هو البوابة الجنوبية لحديقة شوانوو. منذ شهر مارس كنت أفكر دائماً في شراء زوج من الأحذية الرياضية الصفراء. كان يوجد متجر على الجانب الشرقي من البوابة الجنوبية لمعبد باو قوه به سلع بسعر 9.9 يوانات، وبسبب ضيق ظروفي المادية، ذهبت إلى هذا المتجر لرؤيتها عدة مرات، ولم أكن مستعداً لشراء حذاء بسعر خاص من هذا المتجر. في كل مرة أذهب إلى هناك أسأل المديرة هل يمكن تخفيض سعر هذا الحذاء ذي المقاس غير المتوفر، تقول المديرة: «إذا كنت ترغب في شراء حذاء أكبر رقمين، أقل سعر هو يوانات»، لم أجروا على قول أي شيء، وإلا سنقول: إنها سوف تخسر إذا أعطيتني بهذا السعر.. إلخ. وتقول تلك الكلمات 19.9 الجارحة الساخرة: «اذهب، اذهب، اذهب وانظر أي المحلات أرخص واذهب إليه». عندما قالت هذه الكلمات لم أبال؛ لأنه حتى لو كان فلساً واحداً أقتصده وأقسمه إلى نصفين، فأنا أتقهم جيداً الوضع بالبيت، ولم يكن هناك شيء يستحق إغصابها.

هذا زوج من الأحذية الصغيرة مقاس 41، اشتريته أخيراً مقابل 9.9 يوانات، وبعد شرائه كنت ألمسه مراراً ذهاباً وإياباً، ثم أخذت النبيذ الأبيض «جينغ دو إرقوتو» الذي كان يتناوله أخي دائماً، وأسقطت قطرات بداخل الحذاء، وبذلك يمكنني التخلص من رائحة القدم الكريهة، في كل مرة أرتدي هذا الحذاء الصغير كان العرق يتراكم، وأحتاج إلى جهد كبير لارتدائه، فكنت أسحب أولاً رباط الحذاء ثم أوجه أطراف أصابعي باتجاه الأرض وأقوم بدقها بقوة عدة مرات، وسحبها للأسفل حتى أتمكن من ارتداء الحذاء.

في اليوم الأول بعد عودتي إلى المنزل، خلعت الحذاء لألقي نظرة، ورأيت الأصابع الخمسة حُشرت معاً؛ بسبب هذا الحذاء الصغير وكادت تنفجر من الألم، في ذلك الوقت فقط أدركت أن السلعة الرخيصة لا تكون جيدة، وأن السلع الجيدة ليست

رخصة، ومع ذلك كنت أريده؛ لأن لحظة الألم هذه تتبهنني بثقل المسؤولية التي على عاتقي، ولا أستطيع البحث عن الراحة والمتعة.

في الصباح التالي حوالي الساعة 6 صباحًا، وصلت إلى سوق الخضراوات، ومررت بعدة أكشاك مجاورة لأخبرهم بأمر شراء الحذاء، وتتهددت قائلاً: «لا عجب في أن يقول الناس دائماً: إن السلع الرخصة ليست جيدة، والسلع الجيدة ليست رخصة». فمزح معي عدة أشخاص بجواري قائلين: «أيها الرجل الجيد، أنت تجرؤ على ارتداء الأحذية الصغيرة». وصاح زميلي صاحب الكشك المجاور شياو تشاو بصوت عالٍ قائلاً: «فلينظر الجميع، اليوم يرتدي بائع الزنجبيل حذاءً صغيراً». دفعني جميع من حولي إلى الضحك والمزاح، وكان رد فعلي بعد فترة طويلة، فجملة «يرتدي حذاءً صغيراً» هي في الأصل سب وإهانة.

وفي ظهر اليوم الثالث، لم أتحمّل ألم قدمي، ولم يمر على ارتداء الحذاء بضعة أيام حتى تمزق نعله، وأصبح وجه الحذاء متفككاً، ولم أستطع ارتدائه في النهاية، وقمت ببيعه خردة، تعلمت من هذا الأمر أن الإنسان لا يمكنه الحصول على الأشياء الرخصة، وإلا سيخسر نفسه.

قصة التقاط الأشياء الصغيرة الرخصة

عندما كان يراني الكثير من الناس يقولون: إن ملابسي بالية، وعندما حقق ابني بعض الإنجازات، كان يُقال كل شيء، ولكن أعتقد أنه بغض النظر عن مدح الجميع وثنائهم على طفلي، فإنهم كانوا يحتقرونني لارتدائي ملابس بالية، علينا جميعاً أن نعيش أقوىاء شامخين، وليس من أجل الحفاظ على ماء الوجه نغير بعض الأشياء، ولا بد من الإيمان بالقوة والنتيجة النهائية؛ لأن هذا هو أفضل دليل.

كان شهر أبريل في بكين هو فصل تتفتح فيه الزهور وتشرق فيه الشمس، على الرغم من أن التجارة لم تكن جيدة؛ فإن وصول شخصين دفع الضباب بعيداً عن عائلتنا بأكملها، وهما المراسل ليو ليانفين من وكالة أنباء شينخوا، ومراسلة بجريدة الاقتصاد الصينية.

أجريت مقابلاتي في سوق الخضراوات قوانغان تيانتاو ببكين، سألني المراسل ليو ليانفين: «هل يمكنك التحدث عن حياة عائلتك بعبارات يسيرة؟». في ذلك الوقت كنت متوتراً جداً، وتفوّه فمي بعبارة واحدة: «نحن مثل الأبقار الذي يأكل نبات القبطيس، ولا يشكو من ألم البطن ومعاناتها»، ثم بدأت أسرد تجربة عائلتي: استقلت أسرتي القطار الأخضر، وجاءت إلى بكين وسط أصوات الطرق والصفيير، وفي الطريق إلى بكين، لم يستغن أفراد أسرتنا سواء الكبار أو الأطفال عن الطعام والشراب، وكنت أحتضن مبلغ 180 يواناً الذي كسبته زوجتي؛ حيث كانت تأخذ الطفل معها وتزرع السمسم وتبيعه وجمعت هذه النقود؛ ولكنها سُرقَت في القطار، ولم يترك لنا اللص فلساً واحداً، في ذلك الصباح كانت عائلتي بأكملها مفلسة، وعانى الكبار والأطفال من التعب والجوع، قد لا يصدق بعض الناس ذلك؛ ولكن كل هذا حقيقي.

في ظهر أحد الأيام، انتهيت من جمع الكشك وركبت دراجتي متجهاً إلى المنزل، قالت لي زوجتي: «أصبح الطقس دافئاً، بعد الظهر سنذهب إلى مول تيانلانوي شمال محطة ليزي، لنشتري سروالاً لك». كما أضافت: «نشتري سروالاً جيداً لترتيبه عند ذهابك إلى اجتماع أولياء الأمور».

على الرغم من أن أطفالنا الثلاثة لم يكونوا الأفضل في المدرسة؛ فإنهم كانوا أذكىاء ولم أقلق عليهم قط، إذا نظرت إلى وجوههم، لن تجد أي مكان رائع أو مذهل، وكذلك ستجد أباهم يرتدي ملابس بالية، ولكنني أعتقد أنه سواء أأثنى الجميع على طفالي، أم احتقروني لارتدائي ملابس بالية، فإنه علينا جميعاً أن نعيش أقوىاء مرفوعي الرأس، وأن نجعل النتيجة النهائية والقوة هما اللذين يتحدثان عنّا.

في ذلك اليوم الساعة الثالثة والنصف ظهراً، لم يكن الطقس جيداً، ركبت الدراجة ومعني زوجتي، وأنا أأندن لحناً، ووصلنا إلى مول تيانلانوي بمحطة ليزي، ودفعت الدراجة تحت شجرة صفيرا اليابان على جانب الطريق، ونظرت إلى الاتجاهات الأربعة، كان بهذا المكان دراجات كهربائية ونارية، وكانت دراجتي المتهاكة تشبه شيئاً صغيراً جداً، يبدو غير متوقع، في ذلك الوقت كنت أفكر في تغيرات العصر السريعة، في الصغر كان كل ما أستخدمه هو موقد محفور في الأرض، وبعد ذلك

استخدمنا المصباح الكهربائي والتليفون الأرضي والهاتف النقال، والآن أصبح الهاتف النقال غير حديث، واستبدل بغيره من منتجات التكنولوجيا الفائقة، والآن نادرًا ما أرى الدراجات النارية التي يخرج منها الدخان في الشوارع؛ بل أرى الدراجات الكهربائية التي تُشحن بالكهرباء تملأ كل مكان، حتى ابني الكبير يركب الدراجة الكهربائية عند ذهابه إلى المدرسة.

في تلك الليلة كنت أتجول أنا وزوجتي في كل مكان وسط أصوات البائعين والحشود، حتى الساعة الخامسة مساءً، ولكننا لم نشتر السروال، تجولنا في المحلات لنقارن الأسعار حتى لا نخسر مالاً، كنت أرغب دائماً في إيجاد سروال مناسب بسعر معقول، وشاهدت جميع الأكشاك واشتريت لزوجتي زوجين من الأحذية مقاسها غير متوفر، كان زوج من الأحذية هو آخر زوج متبقٍ، وتناقشنا في السعر حتى اشتريته مقابل 10 يوانات. كانت السراويل التي رأيتها غير واسعة وغير ضيقة، ولم أجد سروالاً مناسباً، كما قلت من قبل: «الملابس الجميلة عندما أرنديها تبدو قبيحة جداً».

في الساعة الخامسة والنصف كنت أسير أنا وزوجتي تحت المطر الغزير وابتلت ملابسنا من أجل شراء سروال أرخص.

التسمم الغذائي

عندما خرجنا من الريف كنت أعلم وأنا في سن مبكرة جداً: «مَنْ يعلم أن حبات الطعام بالطبق، هي من عرق الفلاحين»؛ لذلك في كل مرة أرمي الطعام المتبقي أشعر بالأسف الشديد، ولكن بسبب تعرضي للتسمم الغذائي مرتين، شعرت أن الصحة الجيدة هي رأس مال الثروة؛ لذا يا بني عليك الحفاظ على صحتك؛ لأنك إذا كنت تتمتع بصحة جيدة سيكون لديك فرصة الكفاح من أجل الحصول على أشياء أخرى.

بعد ظهر يوم 15 من مايو عام 2012، ذهبت إلى سوق الخضراوات هونغ ليان ببكين، لشراء بعض الشعيرية والأرز ودقيق الشوفان بسعر رخيص، بعد ظهر ذلك اليوم عندما ركبت دراجتي المتهاكة وهممت بالخروج من بوابة سوق هونغ ليان، شعرت بالغثبان قليلاً وأردت أن أتقيأ، وعندما وصلت إلى المنزل كان الوضع أصعب، وأدركت أنه قد يكون تسمماً غذائياً، في ذلك الوقت حوالي الساعة السادسة مساءً، كان عليّ أن أذهب إلى سوق شينفاي لاستقبال أخي الذي كان يحضر البضاعة.

ولكن لم يكن هناك حل، فلم يكن أحد بالمنزل، وكان عليّ أن أذهب بمفردي، دفعت الدراجة المتهاكة نحو الجنوب، ولم أمش بضع خطوات حتى شعرت بألم رهيب، وبصقت في منطقة فارغة، ونظرت إلى ما بصقته، عرفت أنه بقايا الطعام الموجود على نافذة المنزل المتعفن بفعل الشمس، فأصببت بتسمم غذائي، في طريقي إلى سوق شيفادي، قبل أن أخرج من دوار الطريق يوتشوان بينغ، تقيأت بالفعل 4 مرات. كانت هذه المرة الثانية التي أتعرض فيها للتسمم الغذائي. في المرة السابقة عندما كنت في قرية تشوفو الجنوبية بويهاي، وكان مدير الحسابات بمطعم الموقع يحب دائماً شراء بعض الأشياء الرخيصة، ذات مرة اشترى بعضاً من سمك النعاب الأصفر النتن الرخيص، ونتيجة لذلك تعرض جميع العاملين في الموقع للتسمم الغذائي، وهذه المرة كاد التسمم يؤدي بحياتي.

بعد ظهر ذلك اليوم سندت ببدي إلى الدراجة، وكان نصف جسمي منحنيًا على الدراجة حتى وصلت إلى حدود قرية ماجيالو، لمحت أخي وقلت له: "يا أخي؛ إنني أعاني من الألم، وليس لدي أي قوة حتى لدفع الدراجة". رأى أخي وجهي شاحباً، وقال لي: "العربة ثلاثية العجلات ممثلة بالبضاعة، ولا يوجد مكان تنتظر فيه، ولا مكان لوضع دراجتك، ومن الأفضل أن تسحب حبلًا من عربتي بيد، وتمسك دراجتك باليد الأخرى، وأنا سأسحبك إلى المنزل".

في هذا الطريق لم أستطع رفع رأسي من شدة الألم، وتقيأت عدة مرات، حتى بصقت الماء الأصفر الذي كان موجوداً داخل بطني، وعندما مشيت إلى عيادة صغيرة فتحها زميل قروي من خنان بجوار محطة سكة حديد وانليو يوان، قال لي أخي: "دع الطبيب يفحصك، وخذ بعض الأدوية، وأنا سأرسل هذه الأشياء أولاً ثم أعود".

عندما دخلت إلى باب العيادة، قالت لي فتاة صغيرة: "لماذا يبدو وجهك شاحباً هكذا؟ كل يوم كنت تعبر من بابنا هذا وجهك كان متورداً". فقلت لها: "أشعر اليوم بأنني لست بصحة جيدة، من فضلك أريد فحصي". بعدما سمعت الفتاة كلامي قالت لي: أي جزء يؤلمك؟ وأعطتني مجموعة من الأدوية، وأنفقت أكثر من 20 يواناً، وكاد التسمم هذه المرة يؤدي بحياتي؛ في ذلك الوقت أدركت كم هو مهم جداً أن يتمتع الإنسان بصحة جيدة.

الكتابة بجدية

أقدر كل أصدقائي وأقاربي الذين كانوا بجانبني عند مواجهة العقبات، وأعتقد أن هذه هي أعظم الهدايا التي وهبها الله لي، أتمنى أن يكافأ الأشخاص الجيدون؛ لذلك أدعو الله أن يبارك هؤلاء الأشخاص الطيبين، وأن يرزقهم الصحة الجيدة والعافية والسلام.

من 19 من مايو إلى 22 من مايو عام 2012، في هذه الأيام الأربعة، استعرضت التغييرات التي مررت بها منذ أن قدمت للعمل في بكين، وفي كل مكان كنت أذهب إليه، التقى الأشخاص الطيبين الذين يُقدِّمون لي يد العون؛ أعتبر نفسي شخصاً متواضعاً لا يستحق الذكر؛ عندما كنت أكتب لم يفهم الكثير من الناس حولي هذا الفعل تماماً. ومن لا يعرفني يقول: إنني مختل عقلياً. وبعضهم كان يقول: إنني أتعمد التهويل والتعقيد. وبعضهم الآخر يقول: «لا شيء جديد فيما تكتبه، ولن يراه أحد». على الرغم من أن الغرباء قالوا كل ما يُقال؛ فإنني كنت دائماً متمسكاً بمعتقداتي، وكلما كانوا أكثر تعارضاً كانوا أقل فهماً، وكلما واصلت الكتابة أكثر، اتخذت من ذلك قوة دافعة إلى الأمام.

بعد ظهر هذا اليوم حجزت لأول مرة «الجريدة القانونية المسائية»؛ حجزت هذه الجريدة لأن الدعاية الخاصة بها كانت جيدة جداً في بكين؛ خلال اجتماع أولياء الأمور، منحتني بعض الدعاية للتعليم التي كانت في المدرسة الإلهام، وبعد الظهر كانت الجريدة التي أرسلها ساعي البريد أقل في عدد الصفحات، وفي اليوم التالي أرسل جريدة بالخطأ، ونسيت أن أرسلها إليه في اليومين التاليين؛ أعتقد أن هذا الساعي كان مبتدئاً، فالمبتدئ في أي مهنة من الصعب أن يتجنب حدوث مثل هذه الأخطاء.

خلال هذه الأيام في كل مرة ألتقي ساعي البريد الذي أرسل لي الجريدة، كانت الابتسامة تملأ وجهي؛ وقبل مغادرته أقول له: «سر ببطء». أعتقد أن السلوك الإنساني هو أصعب شيء في العالم، أليس هناك كلمة تقول: إن «الأغنياء حتى لو كانوا يعيشون في الجبال يزورهم الأقارب، بينما الفقراء لا أحد يهتم بزيارتهم حتى لو كانوا يعيشون في وسط المدينة». خلال 16 عاماً في بكين، تلقيت مكالمة هاتفية من ابن أخي من البلدة، في ربيع عام 2010 تلقيت أول مكالمة هاتفية منه، كل عام أجري اتصالاً بالأهل في مسقط الرأس، اتصل بمنزل تلو الآخر؛ ولكن لم يقل لي أحد قط: «لا يزال لديك عم في بكين».

عندما جئت إلى بكين كانت الحياة صعبة للغاية، في اليوم الأول سُرقَت بضاعة تزن 20 كيلو جراماً من الزنجبيل، وفي اليوم الثاني كسر الميزان الذي اشتريته بمبلغ 25 يواناً، وفي اليوم الثالث تعرضت للسرقة من أشخاص سيئين؛ خلال عامين منذ قدومي إلى بكين كنت أرغب في تحسين نتائج الحياة؛ ولكن تعرّض ابني ياو ووي للحرق في جسمه؛ وتعرضت للطرد عندما كنت أبيع المخلات بسوق تشانغ تشون، وكنت أبيع الخضار في سوق شوانومن لمدة شهرين، وتعرضت للضغط من قبل زملائي؛ في ذلك العام كنت أبيع «التوفو الدموي»، الذي يُسمّى في مسقط رأسنا بدم الخنزير؛ في ذلك الوقت كان حجم علبة التوفو الكبيرة من 25 إلى 30 كيلو جراماً؛ ولكن كان ثمن العلبة الواحدة 10 يوانات؛ وأخذتها لأبيعها في السوق، كنت أبيع النصف كيلو بيوان. كانت التجارة تسير على ما يرام؛ ولكن لم يمض ثلاثة أيام حتى قام زميلي الذي كان يبيع المخلات في محل بالشارع الخلفي للسوق بإخبار المسؤول، ثم قام المسؤول بمصادرة جميع الأشياء الموجودة في الكشك؛ أعتقد أن هذه الانتكاسات جعلتني أكثر شجاعة؛ لذا أردت أن أكتب كل هذه الأحداث ليتذكرها أولادي، وأن أشكر هؤلاء الذين جعلوني أعاني الحزن والأسى.

حوالي الساعة السابعة كل صباح، كان الوقت المحدد لبدء العمل ببيع الخضار بسوق قوانغان تيانتاو ببكين، في هذا الوقت كنت أفرش سجادة حمراء على طاولة الخضار أولاً، هذه السجادة التقطتها من صندوق القمامة وغسلتها جيداً، وبعد فرشها أضع الزنجبيل الموجود بداخل السلة فوقها؛ هذا هو أول شيء أفعله كل صباح، يوماً بعد يوم.

من الساعة 9 إلى 10 صباحاً، يكون أفضل وقت لرواج حركة التجارة، كان اللوح الرغوي المكون من أربع طبقات الموجود أمام عيني هو مكتبي؛ وبجانبه قاموس شينخوا طبعة 2004 المنقحة، الذي كان يستخدمه ابني الكبير ياو قوه تشينغ؛ وكان لهذا القاموس الصغير دور كبير في كتابتي؛ وكان معي أيضاً سائل التصحيح الذي لا غنى عنه في كتابتي.

كانت هناك ورقتان فوق كشك الخضار، الأولى مكتوب عليها 12 رمزاً كبيراً «مذكرات أب عامل مهاجر يعمل في بكين»؛ ولكن لم يهتم أحد بهذه الورقة؛ والورقة الثانية مكتوب عليها 16 رمزاً كبيراً «قصة تحفيزية لطفل عادي بعد

التسعينيات». الورقة الأولى مكتوب عليها ذهاب أسرتي إلى بكين والعمل بها، والورقة الثانية عليها بعض الأشياء الخاصة بابني الثاني ياو ووي. في كل صباح يتبادل الكثير من الناس الحديث أمام الورقة الثانية. في ذلك الوقت أكون مشغولاً جداً في بيع البضاعة واجتذاب الزبائن؛ سألتني إحدى الأخوات المتحمسات قائلة: «أنت تبيع الزنجبيل، من تحفز؟ إنك تخذع الناس». فقلتُ ورأسي مرفوع: «هي قصة تحفيزية لابني». ولكن هذه الأخت كانت تعتقد أنني أخدع الناس.

في الحقيقة لم يكن الحظ سعيداً جداً في ذلك اليوم، عندما ذهبت الأخت المتحمسة، جاءت عمّة أخرى، وبعدها اشتريت هذه العمّة الزنجبيل الذي أبيعه وذهبت، وحالما التفتت، سقطت حزمتي الكرفس اللتين اشتريتهما على الكشك، أردت أن أنقلهما إلى اليسار، لم أتوقع أن هذه العمّة ستراني وأنا أفعل ذلك عند عودتها، وقالت: إنني سرقت الكرفس. ألا أكون بذلك حسن النية ويراني الآخرون سيئاً، والمعقول أصبح غير معقول؟

كنت ألتقي الكثير من الناس عند بيع الخضار، وكانت وجهات نظرهم تختلف مع وجهة نظري؛ ولكن مهما قالوا فأنا أتقبل كل شيء بهدوء، أنا الآن سعيد جداً، ولا أريد أن أفكر في تلك الأشياء المزعجة، فأنا أعيش ببساطة، وأتقبل كل ما وهبتي الحياة؛ لذلك لا أشعر بالتعب؛ أومن أن حياة الناس سعداء هو أمر مهم جداً، وإذا جعل الإنسان الأشياء تتشابه مع بعضها البعض، سوف يعيش متعباً جداً.

لا تراجع أمام الضربات، ولا خضوع أمام الصعوبات، ولا استسلام أمام الفشل»، هذا هو كلام ياو ووي المفضل بالنسبة «إلي، الذي كان يحفزني للتقدم نحو الأمام، أعتقد أن هذا الكلام يساعدني على الصمود في مواجهة الضربات العديدة.

في يوم رأس السنة عام 2012، كانت العائلة مشغولة في طهو الزلابية في ظل جو صاخب، في هذا الوقت سمعت صوت خطي داخل الفناء، ففكرت كيف يأتي أحد لزيارتنا في يوم رأس السنة؟ فنظرت من النافذة، اتضح أنه زميل قروي من سوق هونغليان ببكين، كان ذلك الشخص يهتم بي؛ لذلك خرجت بسرعة لاستقباله.

عندما رأيته زميلي قال لي: «لماذا لم تعد إلى مسقط رأسك؟» فقلت له: «ألم تعد أنت أيضاً؟ أبي وأمي ليسا على قيد الحياة، وأسرتي كلها في بكين؛ لذلك من الطبيعي ألا أعود إلى مسقط رأسي. أما أنت لماذا لم تعد؟» فتنهد زميلي طويلاً ثم قال: «أوه، لا تذكرني، لقد تشاجرت مع أسرتي، لذلك لم أعد؛ في الشهر الثاني عشر في التقويم القمري، أجريت اتصالاً هاتفياً بعائلتي، وسألت زوجتي ماذا تريد أن أحضر لها عند عودتي إلى المنزل. فقالت: إنها لا تريد سوى المال، وأن الناس في القرية قاموا بتجديد منازلهم، بينما منزلنا لا يزال قديماً، وأنني في بكين منذ سنوات عديدة، والمال الذي أعطيه أسرتي يكفي فقط نفقات المعيشة، ثم وبختني وقالت: لا تعد إذا كنت لا تمتلك مالا. فلم أعد حفاظاً على كرامتي، لأرى كيف ستقضي السنة الجديدة».

عندما سمعت زميلي يشكو شعرت بالحسرة والأسف، رجل في الثلاثينيات من عمره، كيف يغضب من زوجته، فنصحته قائلاً: «إن وجود زوجتك بالمنزل ورعايتها لأطفالك ليس أمراً سهلاً، والأطفال يحتاجون إلى المال للدراسة، كما أن زوجتك تساعدك على رعاية والديك، عليك أن ترسل المزيد من المال لعائلتك كل شهر بعد ذلك؛ أنت تعيش في بكين بمفردك، وفر ما تستطيع توفيره». تنهد زميلي وخفض رأسه، ثم سألني مرة أخرى: كيف حال تجارتك هذا العام؟ الوضع في مسقط رأسنا الآن جيد، وكل شيء مكلف، وبناء المنزل وتجديده أصبح مكلفاً، والزواج أصبح أكثر تكلفة. مثلنا نحن العمال المهاجرون نعمل في بكين، بالتأكيد لا نستطيع شراء منزل في بكين، وأنت لديك طفلان، وتبذل كل جهدك حتى تبني لهما منزلاً. وبعد ذلك سوف يتزوج أولادك، هل تعرف كم يتكلف مهر العروس الآن في قريتنا؟ عشرات الآلاف، بالإضافة إلى حفل الزفاف والمادية وبناء منزل جديد، وأنت لديك طفلان، أعتقد أنك لن تستطيع توفير 500 ألف؛ لذا لن أتحدث عن الزواج». عندما سمعت هذه الكلمات التي قالها زميلي، لم يكن لدي أي رغبة في التحدث إليه، وتبادلنا التحيات والعبارات الودية، ثم عاد إلى منزله.

بعدما رحل زميلي، أخذت أفكر وحدي؛ شعرت أن كلامه معقول، خلال هذه السنوات العديدة ارتفع الاقتصاد الصيني بأكمله، وبالتأكيد شهد مسقط رأسنا تغيرات ضخمة، ماذا سيفعل أبنائي بعد ذلك؟ كيف يمكنني كسب 500 ألف يوان؟ على الرغم من أن هذا الخبر الذي قاله زميلي جعلني أتلقي ضربة قوية؛ فإنه عليّ أن أتحمّل الضربات القاصمة بعد ذلك، لأنني عمود هذه الأسرة، أريد إطعام أفراد أسرتي، وتعليم أطفالي؛ لذلك كنت أؤاسي نفسي، فتعليم الأطفال أمر كبير، وبعد تعليمهم سيحققون بالتأكيد إنجازات جيدة، وما سيحدث بعد ذلك سوف يجعلهم يجتهدون ويعملون بجد؛ على الرغم من أنني أؤاسي نفسي دائماً؛ فإن هناك مقولة جيدة: «تربية الابن مائة عام، والقلق عليه 99 عاماً»¹، ومهما كبر الطفل، يظل طفلاً في نظر

والديه، ودائمًا ما يريدون أن يجعلون مسارهم في المستقبل أكثر سلاسة، والمضي بشكل أفضل؛ لذلك لم يكن بوسعي سوى أن أكون أكثر صلابة وقسوة، لمساعدتهم لادخار بعض المال.

أذهب كل يوم في وقت مبكر لإحضار البضاعة بالجملة، ثم أذهب إلى سوق الخضراوات لبيعها؛ ادخرت في حياتي ما لن أستطيع ادخاره ثانية، فقد قمت ببيع الخضار لسنوات عديدة، ولم أشتري قط زجاجة مياه معدنية؛ ولأن مهنة بيع الخضار تحتاج دائمًا إلى الكلام؛ لذلك أشعر بالعطش، وعندما أخرج من المنزل كل يوم، أحضر كوبًا من الماء الساخن؛ ولكن أحيانًا أنسى بسبب استعجالي، وعندما أنسى إحضار الماء يكون الأمر شاقًا حقًا؛ نعلم جميعًا أن الإنسان إذا لم يأكل لمدة يومين يمكنه البقاء على قيد الحياة؛ ولكنه إذا لم يتناول الماء لمدة يومين، بالتأكيد سيموت من العطش، ولكن كان هناك أشخاص طيبون في السوق، فعندما كان يرى بائعو الخضار حولي في السوق شفتي الجافة، يبادرون بتقديم الماء.

كانت الملابس التي أرديها أنا وزوجتي مرقعة، والخضراوات التي أكلها يعطيها لي الآخرون في السوق، وتكون الجزء الفاسد من الخضراوات، وأحضر هذه الخضراوات إلى المنزل، وتنتقي زوجتي منها الجيد وتغسلها وتقطعها، حتى تحصل على بعض الطعام الذي يمكن تناوله؛ على الرغم من أننا لم نأكل جيدًا؛ فإنني لا أستطيع أن أجعل الأطفال يتناولون هذا الطعام؛ لأنهم كانوا جميعًا في مرحلة النمو، لا أستطيع أن يفقد الأطفال التغذية المناسبة بسببي، وخاصة ابني الثاني ياو ووي؛ في كل عطلة كان يعود إلى المنزل، أشتري نصف كيلو جرام من اللحم من السوق، وتقوم زوجتي بإعداد عدد أكبر من الأطباق، لتغذية جسم الطفل.

على الرغم من أن عائلتي كانت تحيا حياة فقيرة جدًا، فإننا كنّا نعيش بكل جدية، خلال سنوات عديدة من المعاناة والشقاء، شعرت أيضًا بالكثير من السعادة وعشت أحداثًا سعيدة، على سبيل المثال في كل مرة كان يحصل طفل من أطفالي على شهادة، أو منحة دراسية، وأول مرة قالت ابنتي: “أبأ، ماما”. كل هذه أشياء سعيدة، كانت تدعمني في كل وقت من أجل الاستمرار، وفي كل مرة أكون مرهقًا عقليًا وجسديًا، أفكر فقط في هذه الأشياء، كنت أشعر أنني أملك طاقة لا نهاية لها، ولا يزال بإمكانني الكفاح 500 عام من أجل أطفالي.

الفصل السادس: الذهب يتألق في النهاية

أعتقد دائماً أن الاجتهاد هو أقرب طريق إلى النجاح، وهو القوة الدافعة الأولى لتصبح شخصاً موهوباً، أقول دائماً لأبنائي: إن العمل الجاد والاجتهاد هاتين الصفتين الثمينتين تعادلان وجود إحدى قدميك على باب النجاح، وبغض النظر عن النتيجة، فإن مرحلة العمل الجاد والاجتهاد هي الأكثر قيمة، لن أدع أولادي يتخذون من الكسل عادة سيئة؛ لأنه العدو الأكبر للنجاح.

حياة ياو وويي المدرسية

أخذت كل النقود التي ادخرتها أنا وأخي من العمل الشاق، ثم سلمتها لمدرسة الووشو التي يدرس بها ابني؛ أعلم أن كسب المال ليس أمراً سهلاً؛ ولكن أعتقد أن أي شيء يستحق القيام به لتنمية الأطفال على المدى الطويل؛ لأن الأطفال هم الأمل.

يتألق الذهب أينما يكون»، هذا هو شعاري أنا وأولادي، قال لي العديد من الناس: «لماذا لم ترسل ابنك ياو وويي إلى مدرسة التربية البدنية، أو مدرسة شاولين الحقيقية في مقاطعة خنان، فمنها أصبح لي نجم من نجوم فنون الدفاع عن النفس، وحصل تشانغ على لقب بطل الأولمبياد». أعتقد أن كل هذا لا يهم، فهم يستطيعون التفوق على الأشخاص العاديين، كما أن تمتعهم بحظ جيد هو أحد أسباب نجاحهم، وإذا ولدوا في أسرنا الفقيرة، فهل كانوا يحققون هذه الإنجازات؟ هذا غير معروف. ولدت في مدينة لينتشوان بمقاطعة آنهوي، وكانت الأجيال كلها من المزارعين المخلصين الذين يقومون بأدوارهم، مهما كانت الأشياء التي يقومون بها فهم يهكون أنفسهم من أجل التقدم للأمام، ولا يعرفون معنى الانتهازية، وأعتقد أنه لهذا السبب يمكنني العيش في بكين، والسعي في كل مكان في سبيل العيش حتى يتمتع الأطفال بمستقبل جيد، على الرغم من الأيام القاسية التي مررت بها، فإنني كنت قانعاً راضياً، في كل مرة يعطيني الابن الميدالية التي حازها في أول لحظة لأراها، تكون هذه اللحظة هي أسعد لحظة في حياتي. «يتألق الذهب أينما يكون»، طالما أن الأبناء قادرين على التقدم وتحقيق المجد، حتى ولو لم تذهب لحرق البخور سوف يبارك لك الإله كل شيء ويجعله يسير كما تشاء، ولكن إذا لم يستطع الأبناء التقدم، حتى لو ذهبت إلى معبد لاما هذا المكان المزدهر لحرق البخور، فلن يستطيعوا التفوق وتحقيق النجاح، وحتى لو أنفقت الكثير من المال لدعوة أساتذة من جامعة تشينغهاوا أو جامعة بكين لتعليم الأبناء، فلا فائدة من ذلك. يستخدم الوالدان المال بصورة عمياء لمساعدة أطفالهم، وعلى الرغم من القدرة على تحقيق بعض الإنجازات، فإن هذا شيء مؤقت؛ ولكن إذا أدرك الأبناء معنى الحرص والتقدير، والسعي وراء الدافع، سوف يحققون النجاح.

في 20 من ديسمبر عام 2004، كان قد مر 110 أيام على التحاق ياو وويي بمدرسة شاولين ببكين، في ظهر ذلك اليوم كانت نهاية العطلة التي أخذها ياو وويي؛ وبعد تناول وجبة الغداء، أخذت الأمينة الشتوية التي سيستخدمها ياو وويي وبضعة أكياس من الزبادي اشتريتها من السوق، وذهبت معه إلى المدرسة؛ وحوالي الساعة الخامسة بعد الظهر ذهبت إلى سكن الطلاب لأسأل المدرب قوه تشينغ عن حال الطفل في المدرسة؛ قال لي المدرب قوه: «يتدرب ياو وويي بكل جدية، ويتقدم بشكل سريع جداً، مهما كان ما يتعلمه، بعد تعلمه مرتين فقط يستطيع أدائه جيداً». كما قال: إن مدرسة الووشو توفر لياو وويي فرصاً متعلقة بالتعبئة والتبادل في قسم السينما والتلفزيون، وبهذا يستطيع الطفل الاتصال ببعض النجوم، وطالما اغتنم الفرصة لتأدية دور ما، سيكون قادراً على إظهار مواهبه. حفظت هذه الكلمات عن ظهر قلب.

بعد ظهر اليوم التالي، أخذت 50 ألف يوان أي كل المال الذي ادخرته أنا وأخي من عملنا الشاق خلال هذه السنوات من الجمعية التعاونية الائتمانية الريفية في قريتنا، أخذت كل المال الذي عادة ما كنت أود لو استطعت أنا أقتصد وأقسم الفلس إلى نصفين، ثم استخدمت حقيبة من القماش وقمت بلفها بحزم؛ كانت الخمسون ألف يوان في نظر العديد من الأغنياء لا شيء؛ ولكن بالنسبة إلى أسرنا الفقيرة كان رقماً فلكياً؛ في هذا المساء، ارتديت الملابس القديمة والحذاء القماشي الأصفر المفتوح ووصلت إلى مدرسة الووشو التي يدرس بها ياو وويي، وبمساعدة المدرب قوه تشينغ سلمت الـ 50 ألف يوان مصاريف التبعة للمكتب المالي بمدرسة الووشو؛ وخلال عملية الدفع، سأل أمين الصندوق المدرب قوه من هو ياو وويي، فقال له المدرب قوه: «ياو وويي هو الذي فاز بالمركز الأول في مسابقة الووشو للشباب ببكين في 23 من أكتوبر».

بعد أسبوع من التحاق ياو ووي بمدرسة الووشو، منحه الأطفال الآخرون لقب «الطفل الصغير الأسود». كان هناك أكثر من 90 طفلاً في الفصل الذي التحق به ياو ووي، معظمهم ينتمون إلى عائلات غنية جداً، وفي منازلهم سيارات بخارية بأربع عجلات، وكان يلقى هؤلاء الأطفال الذين ينتمون إلى عائلات ثرية اهتمام الآخرين، كما كانت تهتم قيادة المدرسة بهم.

عندما أرسلتُ ابني إلى المدرسة، أخذت معي الميدالية الذهبية التي حصل عليها في سنّ السابعة، والميدالية البرونزية التي فاز بها في دورة الألعاب الخامسة بمنطقة فانغشان، وأربع شهادات وسكناً صغيراً وسيفاً.. وغيرها من الجوائز الأخرى التي حصل عليها؛ ولكن على الرغم من ذلك فإنه لم يلقَ أي اهتمام. وفي مدرسة الووشو باستثناء معلمه ومدرّبه اللذين كانا ينادونه باسمه «ياو ووي»، كان الأطفال ينادونه بالطفل الصغير الأسود، ولكن منذ مسابقة الووشو الكبرى للشباب بكيين، وبعد فوز ياو ووي بالمركز الأول، لم يعد زملاؤه يلقبونه بهذا اللقب؛ بل بدؤوا ينادونه بالأخ ياو، أعتقد أن هؤلاء الأطفال قد اعترفوا بوجوده من أعماق قلوبهم، وإلى اليوم ينادونه بهذا الاسم.

في الشهر الحادي عشر في التقويم القمري من هذا العام، ذات صباح قام جميع الطلاب بالمدرسة بالجري على مساحة أكثر من 2000 متر مربع من العشب، وعندما التقى فريق طلاب المدرسة الإعدادية مع فريق طلاب المدرسة الابتدائية، وثب طالب من المدرسة الإعدادية وركل ياو ووي، اتجه هذا القدم لأسفل وأحدث جرحاً في ساق ياو ووي اليسرى في الحال، وجلّط قطعة كبيرة من الجلد من ساقه اليمنى.

يتميز أفراد عائلتنا جميعاً بالصدق، حتى ولو تعرضنا للخسارة أو عانينا

الشقاء، لن نشكو بصوت عالٍ؛ لذلك لم يقل ياو ووي ولا أحد من الأسرة أي شيء، وانتظر حتى العطلة، وذات ليلة عندما كان نائماً، من دون قصد رأت أمه على ساقه جرحاً، وأسرعت لسؤاله ماذا حدث، فتعثر ياو ووي في الكلام، ولم يستطع شرح أي شيء، كانت أمه قلقة في ذلك الوقت، وقالت: «إذا لم تقل أي شيء، سوف أذهب غداً إلى المدرسة لأسأل مدرّبك». خاف ياو ووي أن يكون لذلك تأثيراً سيئاً بداخل المدرسة، وأخبرني في النهاية بالحقيقة قائلاً: «عندما كنت أركض في الملعب صباح أمس، أسقطني طالب كبير طويل القامة على الأرض».

وفي ظهر اليوم الثالث، استقلتُ الأم مع ياو ووي الحافلة في وقت مبكر ووصلا إلى مدرسة شاولين بكيين؛ كانت هذه المرة الأولى التي تذهب فيها أمه للبحث عن المدرّب قوه تشينغ، وعندما علم المدرّب بما حدث، ذهب إلى مدير مكتب تدريب الووشو، وبعد التحقق من الوضع، وجدوا هذا الطالب من خلال الإذاعة المدرسية. واستدعى مدير مكتب التدريب المدير وانغ هذا الطالب أمامه، وقال له: «ترى كم أنت طويل القامة، وتعرض لزميلك، ألا تشعر بالعار؟ ألا تعلم أنك مخطئ؟» وبتوجيه من عدة معلمين، اعتذر هذا الطالب إلى ياو ووي، وفي الوقت نفسه استعرض ما حدث بالتفصيل، وعرف خطأه.

عاد بالميدالية

أثق دائماً أن قوة طفلي سوف تحقق الكثير في المستقبل؛ بسبب مثابرته واجتهاده في دراسته وقدرته على تحمل المشاق، أومن دائماً أن موهبته سوف تلنقي بالموهوبين، وسيكون طريقه بعد ذلك طويلاً جداً، ولا أحد يستطيع أن يحل محله في الحياة، وكل ما أستطيع القيام به الآن هو وُضْع أساسٍ جيّد له.

في 23 من يونيو عام 2002، كان قد مرت 9 أشهر على تدريب ياو ووي على رياضة الووشو، وقف الطفل البالغ من العمر 5 سنوات يؤدي على خشبة المسرح خلال المسابقة، وكان قادراً على تحقيق نتائج كبيرة، وهذا ما لم أتوقعه؛ إن قدرة الطفل على تحمل المشاق هي إحدى مميزاته، أما في مجال الدراسة لم أقلق عليه قط. وفي الصفين الأول والثاني، قال لي معلمه في الصف: «أيّ كان من سيعلم هذا الطفل في المستقبل، من المؤكد أنه سوف يحبه جداً؛ فهو ذكي جداً، ومجتهد جداً». على الرغم من أن الطفل البالغ من العمر 5 سنوات يتدلل في حضن أمه؛ فإنه تعلم أيضاً أن يعتني بنفسه، وأنا أكتب هذا الكلام هنا، لا يسعني إلا أن أكون فخوراً به.

في الشهر الثاني عشر في التقويم القمري عام 2004، كان ياو ووي متألقاً في مدرسته، بعد انتهاء عيد الربيع في 11 حتى 13 من مارس عام 2005، نظمت هونغ كونغ مهرجان الووشو الدولي، وفي أول لحظة أخبرني المدرّب قوه بهذا الخبر، قال لي: «بعد انتهاء عيد الربيع سوف يستقل ياو ووي الطائرة المتجهة إلى هونغ كونغ للمشاركة في المسابقة، والتكلفة

الإجمالية المطلوبة هي 8 آلاف يوان». في هذا اليوم ركبت العربية ثلاثية العجلات متحمساً وذهبت لإرسال البضائع، كان معي الموبايل الأبيض الفضي الذي اشتريته مقابل 900 يوان؛ ولكن لم تكن الإشارة جيدة جداً، وعند تلقي الاتصال لا أسمع سوى صوت غير واضح، ولا أفهم كلام المتصل تماماً؛ وفي النهاية أخذت الموبايل وذهبت إلى مكان به القليل من الناس، وفي ذلك الوقت فهمت ما يقوله المتصل؛ سألت المدرب قوه بالتفصيل، ثم أخبرني أنني بحاجة إلى القيام ببعض الاستعدادات.

سمع أصحاب البضائع الذين أشتري منهم دائماً أن ياو وويي سوف يذهب إلى هونغ كونغ للمشاركة في المسابقة؛ قالوا جميعاً: "نتوقع أن ابنك سيحقق شيئاً عظيماً". وقلت أمامهم: "8 آلاف يوان، حتى يذهب الطفل للمشاركة في المسابقة، ويخرج لرؤية العالم، لا أحد قادر على المشاركة في مثل هذا الحدث المجيد، حتى الأثرياء قد لا يكونون قادرين على استخدام المال لشراء هذه الفرصة". ومن أجل أن يشترك الطفل في هذه المسابقة، كانت المرة الأولى التي أنفق فيها مثل هذا المبلغ، واشتريت سجادة من السوق القديم بجنوب بكين مقابل 95 يواناً، وأخذت هذه السجادة إلى المنزل بكل حذر، وقمت بتقطيعها إلى جزأين. وبعد ظهر هذا اليوم استخدمت دراجتي القديمة ماركة الحمامة الطائرة، وأخذت هاتين القطعتين من السجاد إلى مكاني الذي استأجرته، ثم وضعتهما على مكان شاغر في جنوب المسكن، استعداداً لإعطائهما لياو وويي ليستخدما في التدريب، وعندما سمعت والدته أن ياو وويي سوف يذهب إلى هونغ كونغ للمشاركة في المسابقة، كانت سعيدة جداً حتى إنها لم تعد الطعام، وذهبت مباشرة لمشاهدة ابنها وهو يتدرب على اللوشو.

بعد الانتهاء من التدريب، كان يمزح ياو وويي معنا نحن الزوجين القديمين قائلاً: «والدائي، لدي الآن ميدالية ذهبية وأخرى برونزية، وما ينقصني سوى الحصول على الميدالية الفضية، وهذه المرة سوف أذهب إلى هونغ كونغ لأحصل على الميدالية الفضية». في 11 من مارس عام 2005، أمضى ياو وويي وعده وعاد ظافراً؛ حيث حصل على المركز السادس في المسابقة، وفاز بالميدالية الفضية؛ وفي أكتوبر عام 2005، خلال مسابقة ماكاو الدولية للوشو، فاز ياو وويي بالمركز الرابع، وطوق حلمه بالفوز بالميدالية الذهبية مرة أخرى.

أعتقد دائماً أن «الذهب يتألق أينما يكون»، كما أشعر أن ياو وويي قطعة من الذهب، وطالما أنه يجتهد ويحقق المجد والنجاح باستمرار، سوف يدعمه جميع أفراد الأسرة بقوة، لم يحقق الطفل ياو وويي إنجازات في مجال اللوشو فحسب؛ ولكنه أيضاً لم يكن ضعيفاً في المعرفة الثقافية؛ في كل فصل دراسي، تكون هناك عبارات ثناء موجهة لياو وويي مكتوبة على الجدار الخلفي في الفصل، قد يعتقد الكثير من الناس أنني أقول كلاماً كبيراً، وأني أمدح ابني بشكل عشوائي، من لا يصدقني، يمكنه الذهاب إلى منزل ياو، وإلقاء نظرة على سجل حياة الطفل ومراحل نموه حتى يعرف.

أربي ابني تربية جيدة

أؤمن أن كل أب وأم لديهما مثل هذه الأمنية: أن يحقق أطفالهم إنجازات كبيرة، ولكن في الواقع، كم من الناس يمكنه تحقيق هذه الأمنية؟ لا بد أنه عدد قليل هو الذي يستطيع تحقيقها، ولكنني أعتقد اعتقاداً راسخاً أنه ما دمت أعمل بجد، سوف أصبح بكل تأكيد واحداً من ضمن هؤلاء القليلين.

في أغسطس عام 2004، وجدت أخيراً مدرسة تجمع بين الفنون الأدبية وفنون الدفاع عن النفس – مدرسة شاولين للوشو ببيكين، وبهذه الطريقة لم يَحْتَجْ ياو وويي إلى السعي والانتقال بين المدرستين، وبالتفكير في ذلك الأمر، أسرعت على الفور إلى المدرسة التي كان يدرس فيها ياو وويي في ذلك الوقت، لأخبره هذا الخبر السار، ومساعدته على إنهاء إجراءات مغادرة المدرسة؛ لأنه يستطيع الذهاب للتسجيل في مدرسة شاولين للوشو ببيكين في نهاية هذا الشهر. بعدما عثرت على ياو وويي في المدرسة، أخبرته هذا الخبر المثير؛ ولحظة أن سمع ياو وويي هذا الخبر اشتعلت الحماسة بداخله، وقفز بسعادة قفزتين على الأرض؛ في ذلك الوقت شعرت أنني سأعاني مرة أخرى لتتمية موهبة الطفل ليصبح شخصاً نافعاً، وإلا ستذهب هاتان القفزان الجميلتان هباءً، وتخيب آماله.

في 26 من أغسطس عام 2004، كان أول يوم لتسجيل الطلاب الجدد في مدرسة شاولين للوشو ببيكين. تقع المدرسة بالقرب من منطقة هوي لونغقوان بالطريق الدائري الثالث الغربي بداواي، أردت أن يتعرف الطفل بيئة المدرسة الجديدة؛ لذا قررت أن أخذ ياو وويي للتسجيل في المدرسة يوم 26 من أغسطس.

بعد التسجيل كان يجب أن أعود؛ ولكنني كنت قلقًا من أن تُدفن موهبة الووشو لدى ياو ووي، فأردت أن أبحث له عن معلم جيد؛ لذا أخذته وذهبت إلى مدير المدرسة قوه، وأخذت معي الميدالية الذهبية التي حازها ياو ووي في مسابقة ملاكمة شينغي الوطنية والميدالية البرونزية التي حصل عليها في مسابقة العصا بإستاد ديتان ببيكين، ليرى المدير قوه قدرات ياو ووي ومهاراته، ويساعده في التفكير لإيجاد معلم جيد؛ رأى المدير أنني مهتم بمستقبل الطفل، وحتى يبيت الطمأنينة في قلبي أعطاني نبذة عن كل مدربي الووشو في المدرسة، وبعد الاطلاع شعرت بالحيرة، على الرغم من عدم معرفتي ببعض الكلمات، فإني أعلم أن هؤلاء المدربين حازوا على الكثير من الجوائز، وحققوا مراكز متقدمة، وهذا جعلني قلقًا جدًا. في ذلك الوقت، أخبرني المدير قوه أنه سيقيم حفل افتتاح الدراسة في المساء، وسيحضره رئيس قسم تدريب الووشو، وسوف أستشير في الأمر؛ وفجأة تولد لدي الأمل.

وقررت الانتظار في المدرسة حتى المساء، إلى أن يجد ياو ووي معلمًا جيدًا ثم أعود إلى المنزل.

بعد الاستماع إلى رأي المدير قوه، قررت أن أنتظر في المدرسة حتى المساء، ولن أعود إلا بعدما أجد معلمًا جيدًا يدرّب ياو ووي. من بعد الظهر وحتى المساء، كنت أنقل أمتعة ياو ووي داخل مسكن الطلاب، ثم تجولت مع ياو ووي في المدرسة قليلًا، ليتعرف البيئة المدرسية الجديدة، وفي الساعة السادسة مساءً، تجمع جميع المعلمين والطلاب في المدرسة؛ وخلال هذا التجمع، اكتشفت أن هذه المدرسة كبيرة جدًا، ولا بد أن يبذل ياو ووي المزيد من الجهد حتى يستطيع الانسجام وسط هذا التجمع الكبير.

بعد انتهاء مراسم حفل افتتاح العام الدراسي مساءً، في أول لحظة رأيت المدير وانغ جون لونغ مدير مكتب التدريب الذي كان يلقي خطابًا في الاجتماع، وبعد رؤيته أسرعته إليه لأسلم عليه، وأوضحته له سبب حضوري قائلاً: «المدير وانغ، لقد جاء ياو ووي من مكان بعيد وقطع مسافة طويلة حتى يصل إلى هنا لتعلم المهارات الفنية على أيدي المعلمين، وقبل ذلك كان لديه تجربة تعلم الووشو لمدة 3 سنوات، وخلال هذه السنوات الثلاث حصل على 7 جوائز منها الميدالية الذهبية والبرونزية وغيرهما، تُرى أي معلم تريد أن يعلم هذا الطفل؟» وبعد الاستماع إلى كلامي، شعر المدير وانغ بنيتي الطيبة، لذلك دعا 6 أو 7 مدربين مشهورين بالمدرسة. وقال المدير وانغ جون لونغ للمدربين: «هذا الطفل يتمتع ببعض أساسيات الووشو، وجاء إلى هنا رغبة في تعلم بعض المهارات، من يرغب منكم في قبوله طالبًا في صفه؟». وبعد الاستماع إلى كلمات المدير وانغ، قال عدة مدربين في صوت واحد: «أريد أن يعرض الطفل بعض التدريبات أولاً». أدى ياو ووي تلك المجموعة من الملاكمة التي فاز بها ببطولة مسابقة ملاكمة شينغي الوطنية لعام 2003 بسلاسة وسخاء، ولم ينته ياو ووي من عرضه، حتى صاح المدرب قوه تشينغ قائلاً: «هذا الطفل نبتة صالحة، وأقولها وأنا مطمئن إنني أرغب في تدريبيه». بعدما سمعت كلام المدرب قوه تشينغ، غادرت المدرسة مطمئنًا، كان ذلك بعد الساعة التاسعة مساءً، وكان الظلام سائدًا؛ ولكن أعتقد أن الطفل يستحق كل هذا.

كان الأول من سبتمبر عام 2004، هو اليوم الأول في السنة الدراسية بمدرسة شاولين للوشو ببيكين، وكذلك أول يوم في طريق تحقيق ياو ووي حلمه، قضى ياو ووي في المدرسة أسبوعًا، وكان زملاؤه يلقبونه بلقب الأسود الصغير، ومع ذلك كان ياو ووي يقول لهم بتفاؤل: إنه لا يحمل كلامهم على محمل الجد، من الذي جعله أسود، هكذا منحه الطلاب لقبًا دون خوف، وهذا يثبت أنه كان يحظى بشعبية داخل المدرسة، وكان الطلاب يرغبون في اللعب معه. شعرت بالاطمئنان عندما سمعت هذا الكلام، وهذا يدل على أنني علمته منذ الصغر مواجهة الحياة بتفاؤل وتعلم مبدأ الشكر لكل شيء، وهو يتذكر ذلك جيدًا؛ لذا أشعر بالسعادة.

بعد أكثر من أسبوعين من بداية الدراسة، سمعت خبر تقدّم ياو ووي في الدراسة، في ذلك اليوم تلقيت اتصالًا من المدرب قوه تشينغ وأخبرني أن ياو ووي يتدرب بكل جدية، وأنه مجتهد جدًا في الدروس الثقافية، وقامت المدرسة بتزكيته للمشاركة في مسابقة الووشو للشباب ببيكين في الشهر القادم. كنت متحمسًا جدًا لسماع هذا الخبر، وفكرت في أنه لم يمر على بداية الدراسة أكثر من 10 أيام، واستطاع الطفل تسليط الضوء على مواهبه بداخل مدرسة الووشو الكبيرة، فهو حقًا فخر لعائلتنا، رأيت الطفل يتعلم بجد واجتهاد، فقررت الاستمرار في كتابة هذه المذكرات لأهديها لابني. على الرغم من أن الناس كانوا يسخرون مني لأنني شخص غير متعلم، ويقولون: إنني غير متقف، ولست قادرًا على أن أصقل كلامي، فإني أؤمن أن الاجتهاد ليس بالضرورة أن يكون له ثمار؛ ولكن عدم الاجتهاد بالتأكيد لن يكون له ثمار؛ لذلك أصررت على الاستمرار في كتابتي، أريد أن يشعر ابني بأبيه غير المتعلم، وكذلك لأمنحه «ثروة روحية».

الحصول على جوائز كثيرة بعد الالتحاق بمدرسة الووشو

إن اهتمام الآباء هو القوة الدافعة لاستمرار اجتهاد الأبناء، وبعض الآباء ينشغلون عن رعاية أطفالهم؛ بسبب العمل، وهذا الأمر سيئ للغاية؛ في الواقع، الاهتمام بتربية الابن، ومشاهدة أول تقدم له، والثناء عليه في كل مرة يحصل على جائزة، هو أمر يُشعر الآباء بالسعادة.

في 23 من أكتوبر عام 2004، حصل ياو وويي على المركز الأول في مسابقة الووشو الكبرى للشباب ببيكين، وكانت هذه هي أول جائزة ينالها بعد التحاقه في الأول من سبتمبر بالمدرسة، وكان هذا تشجيعاً كبيراً بالنسبة إلى ياو وويي؛ مما جعل المدرسين والطلاب بالمدرسة ينظرون إليه نظرة احترام وإعجاب؛ وفي 13 من نوفمبر عام 2004، شارك ياو وويي في مسابقة «كأس بندا في خبي»؛ التي عُقدت في مدينة قاوبيديان بمقاطعة خبي، وحصل على المركز الخامس في المسابقة الوطنية للوشو ساندا (القتال الحر).

في ديسمبر عام 2004، صُنِف ياو وويي أنه من «الطلاب العشرة الأوائل» بمدرسة شاولين لفنون الدفاع عن النفس ببيكين، كما اختير من قِبل شركة شوجيان شيونغ تساي للعلوم والتكنولوجيا لتعبئة الفيديو، لينضم إلى قائمة الطلاب المتميزين؛ حقق ياو وويي هذه الإنجازات في أقل من عام منذ التحاقه بالمدرسة، ونال الكثير من التكريم، وهذا تأكيد وتشجيع كبيرين بالنسبة إلى ياو وويي، كلما اجتهد الابن في دراسته، كافحت من أجل كسب المال، كانت مدرسة شاولين لفنون الدفاع عن النفس ببيكين هي مكان تحقيق حلم الابن؛ لذلك كان عليّ أن أوفر له فرصة الدراسة وتعلم رياضة الووشو دون قلق، على الرغم من أن مصاريف المدرسة كانت أضعاف مصاريف مدرسة فانغشان؛ فإنه كان يتوجب عليّ تحمل مسؤولية تحقيق حلم ابني، حتى لا يتحطم حلمه.

في عام 2005 بلغ ياو وويي التاسعة من العمر، في هذا العام نال فرصة السفر إلى هونغ كونغ للمشاركة في المسابقة، وكان هذا الأمر بالنسبة إلى عائلة ياو بأكملها خيالاً، لا أحد يستطيع الشعور بالحماس الذي ملأ قلبي في هذه اللحظة. كان يتدرب ياو وويي كل يوم في العطلة الشتوية عام 2005، من أجل المشاركة في مسابقة هونغ كونغ الدولية، ولم يتكاسل يوماً واحداً، بعد ظهر أحد الأيام، عدت من السوق بعد الانتهاء من جمع الكشك، تشبث ياو وويي بي، لأساعده على رفع السجادة في الفضاء المفتوح في الناحية الجنوبية، كنت غاضباً جداً، ألم يكن أحد في المنزل، لماذا لم يساعدوا ياو وويي؟ ولكنني لم أتحدث بعد، حتى تحدثت زوجتي أولاً قائلة: “لا تساعد على نقلها، الطقس اليوم بارد، أتريد أن يموت الابن متجمداً من البرد؟ هو يتدرب كل يوم، ولن تحدث مشكلة إن لم يتدرب يوماً”. بعد الاستماع إلى كلام زوجتي، وجدت كلامها منطقياً، في هذا الطقس البارد أليس التجمد من البرد خسارة تفوق المكاسب؛ لذا نصحته بأن يتوقف عن التدريب اليوم، ويواصل غذاً، فكان يشعر أن التوقف عن التدريب يوماً واحداً يجعله يترجع، رأيت الابن مهتماً جداً بهذه المسابقة، فشعر قلبي بالشفقة والحنان، وساعدته على نقل السجادة إلى الفضاء المفتوح، عندما كان ياو وويي يتدرب، كنت أفف بجانبه لمشاهدته، وفي يدي معطف سميك؛ لأن التدريب يُفقد الكثير من العرق، وفي هذا اليوم البارد أخشى أن يُصاب بالبرد بعد الانتهاء من التدريب. تعب ياو وويي من التدريب، وقفز إلى جوار لي تحدثت معي بعض الوقت، وقال لي مراراً: “أبي، في كل مرة تدفع الرسوم المدرسية، وتُخرج الكثير من المال من حقبة بيع الخضراوات وتعطيه الآخرين، أشعر بالحزن الشديد؛ وكذلك في كل مرة تدفع رسوم المشاركة في المسابقة حتى لو كان الوقت متأخراً، كنت تنتهي من جمع الكشك وتأتي إلى المدرسة لدفع الرسوم؛ خوفاً من تأخير دفع اشتراكي في المسابقة، في كل مرة تُخرج من حقبة بيع الخضراوات الكثير من المال، يضحك الزملاء، ويقولون: إنك تمتلك الكثير من المال، والحقبة لا تسعه، ولكنني لم أأخذ كلامهم على محمل الجد، أعلم أنك تعاني الكثير حتى أتلقى تعليمي، أرسلتني إلى هنا لتعلم المهارات، لا للعب والعبث مع زملائي”. في كل مرة أسمع الطفل يقول هذا الكلام المعقول، لا يسعني إلا أن أبكي، وبقلي سعادة غامرة؛ على الرغم من أنني لا أتمتع بمستوى تعليمي عالٍ، فإن ابني كان ذكياً ويفهم الأمور بشكل غير عادي، وهذا الأمر جعلني سعيداً جداً.

في 11 من مارس عام 2005، كان هذا اليوم مهماً جداً بالنسبة لياو وويي حيث سافر إلى هونغ كونغ للاستعداد للمسابقة؛ استيقظ في الساعة الخامسة صباحاً، وفي الخامسة والنصف اصطف ياو وويي و81 من الطلاب المتميزين الآخرين في المدرسة في فرق، وخرج من بوابة المدرسة شامخ الرأس مرفوع الصدر؛ واتجهوا بسرعة إلى المطار الدولي؛ ليستقلوا الطائرة المتجهة إلى هونغ كونغ التي يُقام بها مهرجان الووشو الدولي الثالث، وحالما أفكر في أن ياو وويي سوف يشارك في المسابقة الدولية، أشعر أن العربة ثلاثية العجلات التي ركبناها خلال هذه السنوات العديدة قد أتت ثمارها.

في الفترة من 11- 13 من مارس عام 2005، لم يخيب ياو وويي آمالي في المشاركة بمهرجان الووشو الدولي الثالث بهونغ كونغ، فحقق نتائج ممتازة؛ حيث حصل على المركز الثاني بملاكمة باجي - شينغي مجموعة الرجال، والمركز السادس في ملاكمة القتال الأرضي، والملاكمة التقليدية مجموعة الرجال؛ بالنسبة إلى طفل يبلغ من العمر 9 سنوات، يُعدُّ الحصول على الميدالية الفضية وتحقيق المركز السادس في المسابقة الدولية إنجازًا رائعًا جدًا.

الذهاب إلى ماكاو للمشاركة في المسابقة

كما يقول المثل: «لن تتوقف أبدًا عن التعلم ما دام قلبك ينبض». مهما كان التعليم الذي تلقيناه عاليًا، أعتقد أن هناك دائمًا مجال لم تشارك فيه من قبل، وإلا لما كانت هناك المقولة القائلة: «وراء الرجل القادر هناك دائمًا رجال قادرون آخرون». بالنسبة إلى رجل قروي تلقى تعليمه حتى الصف الرابع الابتدائي، يحتاج إلى تعلم الكثير من الأشياء.

في خريف عام 2005، كان قد قضى ياو وويي عامًا في مدرسة شاولين بيكين، في ذلك الوقت كان ياو وويي طالبًا في الصف الرابع الابتدائي، ولم يمارس رياضة الووشو باجتهاد فحسب؛ بل أيضًا كانت نتيجة دروس الفنون الثقافية جيدة جدًا، هذا ما رأيته بعيني وسمعت المعلمين يقولونه عندما ذهبت إلى المدرسة.

في بداية الفصل الدراسي الجديد عام 2005، أرسلت ياو وويي إلى المدرسة، بعد الوصول إلى المدرسة، أخذني ياو وويي بسرعة إلى الفصل، اعتقدت أن هناك شيئًا ما، واتضح أنه أراد أن يريني «لوحة الشرف» خلف الفصل، وكان عليه أسماء العديد من الطلاب، على الرغم من قلة الرموز التي أعرفها، فإنني لمحت اسم ياو وويي، وبعد اسمه كان هناك صف طويل من الأعلام الحمراء الصغيرة، كما أن الزهور الحمراء الصغيرة وراء اسمه هي الأكثر، وعلى الرغم من أنني لم أعرف بعض الكلمات على السبورة؛ فإنني أعلم أن ياو وويي بالتأكيد هو طالب مجتهد في فصله، وإلا كيف رُسمت هذه الزهور الحمراء الصغيرة والأعلام الحمراء الصغيرة الكثيرة بجانب اسمه. في ذلك الوقت جاءت معلمة الصف المعلمة لي جونمي، وصافحتني بحرارة. في ذلك الوقت كنت متأثرًا جدًا، ولم أتوقع أن هاتين اليدين الخشنتين الممتلئتين بالثقة تصافح مثل هذه المعلمة الجيدة؛ ولأول مرة شعرت بالمساواة والاحترام المتبادلين بين الناس، فأنا حقًا أشكر ابني على ذلك، وإلا كنت سأظل ذلك الرجل الذي يمتلك فقط حصة ينحني لبيعها في سوق الخضار؛ وبالإضافة إلى ذلك، طريق تعلم الطفل فنون الدفاع عن النفس جعلني ألتقى الكثير من المعرفة التي لم أسمع بها من قبل.

ذات مرة عاد ياو وويي إلى المنزل خلال العطلة، وقال لي: "أبي، أخبرني قسم السينما والتلفزيون بمدرسة الووشو أنني بحاجة إلى الحصول على جواز سفر، يبدو أنني سأحتاجه في شهر ديسمبر". كانت الجملة التي قالها الطفل صعبة بالنسبة إليّ، ما جواز السفر، لم أسمع عنه من قبل؛ أعرف فقط عندما كنت أركب العربة ثلاثية العجلات على الطريق، ويسألني ضابط الشرطة أحيانًا عن بطاقة الهوية وتصريح الإقامة المؤقت؛ لكن ما جواز السفر؟ وحتى يعود ياو وويي إلى المدرسة مطمئنًا، قبل أن يغادر ربّث على صدره، وقلت له: "لا تقلق بشأن جواز السفر، سيقوم والدك بعمل الإجراءات للحصول عليه قبل أن تستخدمه".

لا بد من تنفيذ الأشياء التي وعدتُ بها، هذا هو المبدأ الأساسي لدى ياو تشي تشونغ، بعدما عاد ابني إلى المدرسة كنت أتساءل: ما جواز السفر؟ رأيت زوجتي أنا ذلك الرجل الكبير لا أستطيع التفكير في أي شيء؛ لذلك اقترحت عليّ أن أسأل الآخرين، كنت أعيش داخل حلم يقظة، فكرت في أن هناك شخصًا واحدًا فقط من الذين أعرفهم يعرف العالم ويتمتع بالخبرة والمعرفة، وفقًا للسلم العائلي والأجيال القديمة، نسميه "الأخ الثالث". بعد ظهر اليوم الثاني بعدما عاد الطفل إلى المدرسة، جئت لأبحث عن الأخ الثالث؛ في البداية كنت أخشى أن أقول: إن ابني الثاني يحتاج إلى التقدم بطلب للحصول على جواز سفر، فسألته فقط: ما جواز السفر. في ذلك الوقت كان الأخ الثالث سعيدًا، فقال لي: "لماذا تسأل عن جواز السفر؟ إنك لم تذهب خارج البلاد، وهذا يُستخدم فقط عند السفر للخارج". صُدمت بما قاله، وفكرت أن يستطيع ياو وويي السفر إلى الخارج؟ لم أكن متأكدًا إلى أين سيذهب؟ لذلك لم أقل أي شيء.

بعد العودة إلى المنزل، سرعان ما سألت زوجتي: "هل قال الابن لماذا يريد جواز السفر؟ هل يريد الذهاب للمشاركة في المسابقة خارج الصين؟". قالت زوجتي وتبدو على وجهها علامات عدم الفهم: "لا، لم يقل إلى أين سيذهب، قال فقط: إن المدرسة طلبت منه عمل جواز سفر؛ لأنه سيستخدمه في وقت لاحق". كنت أخشى من التأخر على ابني؛ لذلك اتصلت سرعًا بمدرسه، لأسأله حتى أفهم ماذا يحتاج الابن؟ بعد اتصالي قلت له مباشرة دون تمهيد: "مرحبًا بالمدرسة، أنا والد ياو وويي،

عند عودة ياو وويي خلال العطلة طلب مني أن أقوم بإجراءات الحصول على جواز سفر، هل سيسافر للمشاركة في مسابقة ما؟». أجاب المدرب قوه قائلاً: «سوف يذهب للمشاركة في مسابقة ماكاو في شهر ديسمبر، ولا يحتاج إلى جواز سفر. وحينها أخبرته أنه سيحتاج إلى جواز سفر بعد ذلك؛ لأنه سوف يذهب دائماً للمشاركة في المسابقات خارج الصين؛ ولكنه يحتاج فقط الآن إلى تصريح مرور إلى هونغ كونغ وماكاو». ولكنني لم أسمع أيضاً من قبل عن تصريح مرور إلى هونغ كونغ وماكاو. أدركت المعنى الحرفي لكلام المدرب، وأنها بالتأكيد استعدادات الذهاب إلى هونغ كونغ وماكاو، ولكنني لا أعرف كيف أحصل عليه؟ وبعد ذلك وجهني المدرب قوه بكل لطف، وأخبرني ماذا أفعل من إجراءات للحصول على التصريح؛ لذلك عدت إلى مسقط الرأس، وفي النهاية حصلت على التصريح لياو وويي، وتعلمت الكثير خلال هذه الرحلة.

بعد ظهر يوم 9 من ديسمبر عام 2005، ركبت العربة ثلاثية العجلات واتجهت إلى المنزل، ورن الهاتف الذي كان بداخل جيبي، وعندما رأيت رقم المتصل علمت أنه ياو وويي، فتلقيت المكالمة بسرعة وسألته: «لماذا تتصل بي في هذا الوقت؟». أخذ ياو وويي يتمم كلاماً غير مفهوم، ثم قال: «أبي، في الحقيقة نظمت المدرسة لنا أن نذهب غداً إلى ماكاو للمشاركة في مسابقة الساحة الدولية للوشو». تلقيت كلام الطفل، ثم قلت: «هذا شيء جيد؛ ولكن لماذا تخبرني الآن فقط؟». في ذلك الوقت كان الطفل محرّجاً بعض الشيء. «في الحقيقة في البداية قررت عدم الذهاب؛ لأن تكلفة المشاركة في المسابقة 10 آلاف يوان؛ ولكن نصحتني المدربون والطلاب أن أذهب، وقالوا: إنني سأحقق بكل تأكيد إنجازاً جيداً». بعد أن سمعت كلام ياو وويي، انتابني الحزن، وقلت له بصوت عالٍ: «يجب أن تشارك في هذه المسابقة، وتحقق إنجازاً عظيماً لأبيك. سأذهب إلى المدرسة لدفع المال. قل للمدرب: إنني سأذهب اليوم بكل تأكيد لدفع المال، ربما سيكون في وقت متأخر، واطلب منه أن ينتظرني».

بعدما أنهيت الاتصال الهاتفي مع ابني، سرعان ما عدت إلى المنزل لجمع المال، وجمعت نقود بيع الخضار التي كانت مبعثرة في حقيبة اليد، حتى حصلت على 10 آلاف يوان، وفكرت أننا في حاجة ملحة لهذه النقود لمسابقة الابن، وأسعرت إلى المدرسة، وقطعت الطريق مهرولاً. وصلت إلى مدرسة الووشو بعد الساعة السابعة مساءً، ثم ذهبت للبحث عن المدرب، لمساعدة ياو وويي في دفع المال. في هذه اللحظة فقط شعرت بالتعب، الذي نسيته؛ بسبب الركض المستمر طوال الطريق؛ لأنني لم أفكر سوى في شيء واحد، وهو ضرورة الوصول في الميعاد لتسليم المال، فأنا لا أستطيع تأجيل الأشياء المتعلقة بابني، إن تأجيل المزارع زراعة المحاصيل هو تأجيل موسم واحد؛ ولكن تأخير الوالدين لابنهما هو تأخير طوال الحياة.

في صباح يوم 10 من ديسمبر عام 2005، ذهب ياو وويي إلى ماكاو للمشاركة في المسابقة بنجاح، لم يخيب التوقعات والآمال، وفي مسابقة الساحة الدولية للوشو، حاز على المركز الأول في مسابقة ملاكمة شينغي، والمركز الرابع في مسابقة الملاكمة الإجبارية؛ عندما اتصل بي المدرب قوه لتهنئتي، كانت يداي ترتجف تأثراً، وقلت في قرارة نفسي: إن ابني مثال وقوة جيدة، استطاع أيضاً الفوز بالبطولة في المسابقات الدولية.

فرصة تصوير فيلم سينمائي

الفرصة لا يمنحها الآخرون؛ بل عليك خلقها بنفسك، و«خلق» هنا لا تعني خلق الفرص بانتهازية؛ بل استخدام جهودك السابقة في اغتنام هذه الفرصة؛ لأن الفرصة لا تُمنح إلا لأولئك الذين هم على استعداد.

في 17 من مارس عام 2007، كان الشهر الأول لبدء ياو وويي الفصل الدراسي بعد عطلة الشتاء، وهذه المرة أحضر الابن الذكي هدية ثمينة لي؛ بسبب أدائه المتميز في المدرسة؛ حيث حصل على شهادة «الوشو النموذجية»، وهذا جلب لأسرتنا الفقيرة فرحاً لم تره منذ زمن، في كل مرة يعود ياو وويي إلى المنزل خلال العطلة الشهرية، تُعدُّ له زوجتي بعض الأطباق اللذيذة، وكل طبق منها يحتوي على اللحم، وهذا لم يكن استثناءً. على الرغم من انتهاء عيد رأس السنة الجديدة لتوه، ولم يكن الوضع الاقتصادي للأسرة جيداً جداً؛ فإنني لم أشعر الابن بهذا، وإلا سوف يقلق بشأن أمور المنزل، وبالتالي لن يستطيع التركيز في التدريب على الووشو.

هذا المساء بعد أن تناولت عائلتنا العشاء، كان يشاهد أفرادها التلفاز معاً، كنت أشعر بالنعاس، واستعددت للذهاب إلى السرير للنوم، وسمعت الهاتف يرن، عادت لي الصحو على الفور، وعندما أجبت كان الطرف الآخر هو المخرج ليو نيان، وقال لي خيراً سعيداً مثيراً. فقال: «اختار طاقمنا ابنكم ياو كانغ (الاسم الفني لياو وويي)؛ عليك إحضاره غداً عند بوابة دونغ هوا لمقابلتي». بعدما سمعت كلمات المخرج، سألته بسرعة: أين توجد بوابة دونغ هوا؟ فقال لي بكل صبر: إن بوابة دونغ

هوا هي البوابة الشرقية للمدينة المحرمة. كما أضاف قائلاً: إن ياو كانغ اختير بعناية من بين طلاب بعشر مدارس للوشو، ولا بد أن يأتي غداً. فقلت له بسرعة: حسناً. ولكن بعد ذلك شعرت بالقلق مرة أخرى. منذ أول يوم جئت إلى بكين، وأنا لا أعرف الاتجاهات، دائماً ما كنت أرى الجنوب شرقاً، والشرق جنوباً؛ وماذا سأفعل إن لم أتمكن من العثور على المكان الذي أريد الذهاب إليه؟ ولكن لحظة أن فكرت في أن ياو وويي سيقوم بتصوير فيلم سنيماي، نسيت أي قلق وحزن.

سرعان ما أخبرت ياو وويي هذا الخبر السار، وسألته بكل فضول: «كيف عثر عليك المخرج ليو نيان؟». تحسس ياو وويي رأسه ثم قال: «ذلك اليوم الذي خرجت للأداء في الخارج، عدت متأخراً بعض الوقت، وخشيت ألا يكون بالمطعم طعام، فأسرت إلى المطعم لشراء طعام. ولم يكن بالمطعم سوى شخص واحد يجلس على طاولة واحدة، لم أر من هو، وأسرت لشراء الطعام ثم جلست لأتناوله. وبينما كنت أتناول الطعام، جاء ذلك الرجل الذي كان يجلس على الطاولة، وقال: إنهم يخططون لتصوير فيلم سنيماي، وسألني إن كنت أرغب في التمثيل بالفيلم. فقلت له: إن مثلي الأعلى هو جاكى شان، وإنني أريد أن أصور فيلماً للكونغ فو، حتى أصبح مثل جاكى شان، وكذلك من أجل الإسهام في تعزيز الوشو والثقافة التقليدية الصينية. في ذلك الوقت أثنى عليّ هذا الشخص كثيراً». بعدما سمعت إجابة ابني، كنت مؤمناً بالجملة القائلة: الفرصة لا تأتي سوى لأولئك الذين هم على استعداد؛ فضّل المخرج ليو نيان ياو وويي، وكان هذا ثمرة جهده المتواصل.

في اليوم التالي، استيقظت أنا وياو وويي في وقت مبكر جداً، ربما بسبب الأشياء التي كانت تملأ قلبي؛ التي أذهبت النوم عن جفوني؛ تناولنا الطعام وغادرنا المنزل، كنت لا أذهب إلى وسط مدينة بكين بشكل دائم، ولا أعرف الاتجاهات؛ ولكن عرفتها من المخرج ليو نيان؛ لمس المخرج رأس ياو وويي الصغير ثم قال: «راهب صغير تغلغل بين الحشد، فهو باهر حقاً»، ثم أضاف قائلاً: إنه يريد انضمام ياو وويي إلى طاقمهم، وبعد الانتهاء من التصوير، سوف يخبرني للذهاب لاستقباله، عندما فكرت في أن ياو وويي سوف يغادرني لبعض الوقت، لم يتحمل قلبي ذلك؛ ولكن كنت أفكر أيضاً في أن تصوير فيلم للكونغ فو هو حلمه، وأن هذه الفرصة لن تحقق حلمه فحسب؛ ولكنها أيضاً ستثري من خبرته ومعرفته، علاوة على أن تجربة العمل مع الطاقم تُعدُّ شيئاً جيداً، فهي التي جعلت الطفل يخلق مستقبله.

بقي ياو وويي مع فريق التمثيل أكثر من شهر، وذهبت لاستقباله، قال ياو وويي: إن التصوير كان ممتعاً جداً، وإنه كان يؤدي دوراً ثانوياً "لي دا هونغ"، وقال: إن فريق التمثيل كان جيداً جداً، واهتموا به جيداً، وبعضهم كانوا يعتبرونه معلماً، ويتعلمون معه الكونغ فو.

بعد عامين من تصوير الفيلم، ذات يوم اتصل المخرج ليو نيان بي مرة أخرى، اعتقدت أنه يريد ياو وويي لتصوير فيلم؛ ولكن بعدما تلقيت الاتصال علمت أنه يريد أن يخبرني خبراً ساراً، قال لي بكل حماس: إن فيلم "لي تونغ" الذي صورته ياو وويي فاز بجائزة؛ وبعد سماع هذا الخبر، لم أصدق نفسي، وتساءلت هل سيمنح القدر ياو وويي هذه الجائزة الكبرى؟ حصل ياو وويي على جائزة في امتحان الدروس الثقافية، والآن فاز أول فيلم قام بتصويره بجائزة أيضاً؛ ملأت السعادة قلبي لمدة أسبوع بسبب هذا الخبر السار.

كان محظوظاً للإسهام في دورة الألعاب الأولمبية

بسبب هذا الخبر السار، ملأ هتاف أفراد الأسرة أرجاء المنزل لفترة من الوقت؛ في الغد سوف آخذ ياو وويي ونذهب لمقابلة المخرج؛ لذلك لم يستطع ياو وويي النوم من شدة التأثير، وأجبرته على النوم بسرعة، وإلا لن يكون في حالة جيدة عند مقابلة المخرج في اليوم التالي؛ بعدما استلقيت على السرير، لم أستطع النوم من كثرة التفكير؛ لأنني لا أعرف الطريق، فكيف سأخذ الطفل ونذهب إلى المقابلة غداً؟ ولكن على الرغم من التفكير الكثير فإنني استطعت النوم في النهاية.

خلال دورة الألعاب الأولمبية في بكين عام 2008، كان الجميع يهتف؛ لأن كل فرد في الشعب الصيني كان فخوراً بهذا الحدث، ويريد زيادة قوة الألعاب الأولمبية، ليس فقط الرياضيون المهرة في ساحة اللعب؛ بل أيضاً المتطوعون الذين يساعدون في الحفاظ على النظام، وكذلك بعض لاعبي الوشو غير المعروفين.

منذ نجاح دورة الألعاب الأولمبية عام 2001، تطلع الشعب الصيني بشغف إلى قدوم عام 2008.

في 8 من أغسطس عام 2008، أُقيمت الدورة الـ 29 للألعاب الأولمبية في بكين، وكان هذا حدثًا كبيرًا في أعين الصينيين، وكذلك في عين هذا العامل المهاجر الذي جاء إلى بكين لبيع الخضار، في عام 1932، شاركت الصين لأول مرة في دورة الألعاب الأولمبية، في ذلك الوقت لم يشارك سوى شخص واحد، واليوم نستضيف دورة الألعاب الأولمبية على عتبة بابنا، أرسلت الصين أكثر من 1200 رياضيٍّ متميزٍ للمشاركة في دورة الألعاب الأولمبية، وفازت بالمركز الأول؛ حيث حصلت الصين على 51 ميدالية ذهبية، إن تحقيق الصين هذه النتيجة الرائعة، أشعر 1.3 مليارات صيني بالفخر، وعلى الرغم من أن ابني ياو ووي لم يكن رياضيًّا، ولم يتمتع بفرصة المشاركة في دورة الألعاب الأولمبية، فإنه أسهم أيضًا في الألعاب الأولمبية واستضافة دورة الألعاب الأولمبية، وبذل جهوده الخاصة.

في 24 من يونيو عام 2006، شارك ياو ووي في نشاط «تمارين الصباح في بكين، أولمبياد بكين» لكمال الأجسام بالمهرجان الرابع للأولمبياد ببكين، وقام بأداء فنون الدفاع عن النفس أمام مواطني بكين، وكرس قوته الضئيلة لتعزيز الروح الأولمبية.

في 8 من أغسطس عام 2007، شارك ياو ووي في عروض الووشو خلال الاحتفال بالذكرى السنوية الأولى للعد التنازلي للألعاب الأولمبية، ولقي تصفيقًا حارًا من قبل الحضور.

في الفترة من 8-11 من مارس عام 2008، حقق ياو ووي نتائج ضخمة في «كأس الترحيب بالأولمبياد – الدورة السادسة لمسابقة الجائزة الدولية الكبرى للوشو تاولو بهونغ كونغ؛ حيث حصل على المركز الأول في ملاكمة شينغي، والمركز الثاني في المعدات، والمركز السادس في سلسلة ملاكمة تونغبي تشيوان (قبضة استمداد القوة من الخلف)، وملاكمة بي قوا تشيوان (قبضة القطع والخنق)، وملاكمة فانزي تشيوان (القبضة المتعاقبة المتتالية).. وغيرها.

في 30 من أبريل عام 2008، أقامت صالة تشانغبيغ للألعاب الرياضية عام 2008 نشاط المائة يوم للعد التنازلي لدخول دورة الألعاب الأولمبية، وشارك ياو ووي في عرض كبير لملاكمة شاولين الجنوبية متمنيًا نجاح دورة الألعاب الأولمبية.

في 6 من أغسطس عام 2008، نقلت الشعلة الأولمبية إلى محطة تشيانمن ببكين، وشارك لاعب كرة السلة ياو مينغ في مراسم تتابع الشعلة، وكان ياو ووي عضوًا في فريق التشجيع وقام بأداء عروض الووشو، وكان محظوظًا لمشاركته في هذا الاحتفال.

في 12 من أغسطس عام 2008، استقل ياو ووي الطائرة المتجهة إلى كوريا الجنوبية للمشاركة في عروض ملاكمة شاولين الجنوبية وسوط شاولين؛ لاسترجاع مرحلة تتابع الشعلة، بعد عودة ياو ووي إلى الصين، كان أفراد العائلة الصغار والكبار حوله جميعًا؛ لأنه كان أول شخص في عائلتنا يسافر إلى الخارج، فتقريبًا لم يذهب أحد من عائلتنا إلى مكان بعيد، ولم أتوقع أن يذهب أحد منهم إلى الخارج؛ لذلك كان لدى الجميع فضول لمعرفة ما شعور الذهاب إلى الخارج، وسألتني: «هل كوريا الجنوبية جيدة؟». «هل كان أدائك على المسرح جيدًا؟». «هل أحبك الجمهور الكوري؟» وغيرها من الأسئلة، بينما كان الجميع يوجهون إليهم الأسئلة في آن واحد، ولم يعرف ياو ووي كيف يرد. وقال لنا بكل فخر: تساقط رذاذ المطر خلال يوم العرض بكوريا الجنوبية؛ ولكن لم يُعقِ المطر عرض ملاكمة شاولين وسوط شاولين الرائع. وحتى مع المطر الخفيف استمروا في أداء العرض بكل اهتمام لفترة طويلة، ولقوا تصفيقًا حارًا من قبل الجمهور؛ عندما سمعت أن العرض الذي أداه ابني لقي ترحيبًا من الأصدقاء الأجانب، شعرت أنا كأب بسعادة لا تُوصف، كان اجتهد ابني وإنجازاته فخرًا لي، والقوة الدافعة التي تحركني نحو السعي والكفاح.

ألا ترون أن ابني شارك في العديد من المسابقات، وأدَّى الكثير من العروض، وحصل على الكثير من الميداليات، فالطريق لم يكن سهلًا على الإطلاق، خلال حفل اختتام دورة الألعاب الأولمبية في بكين عام 2008 «طريق الحرير»، بعد الفحص الدقيق، كان ياو ووي محظوظًا بما فيه الكفاية ليتم اختياره؛ ولكن في النهاية لم يكن طوله كافيًا؛ لذلك لم يشارك في الحفل الختامي لدورة الألعاب الأولمبية، ولم يشارك ياو ووي غير مرة؛ لأنه لم يكن طويلًا بما يكفي. في صيف عام 2007، أراد ياو ووي الذهاب مع مدربه إلى جولة بأمريكا لتأدية عروض الووشو؛ ولكن بسبب قصره لم يُخْتَر، فهو لم يشارك في هذين العرضين المهمين، ليس لأنه غير متميز بما يؤهله للمشاركة؛ ولكن بسبب عوامل موضوعية أخرى، وكذلك لأنه لا يزال طفلًا تحت سن الـ 12.

بدأ ياو وويي التدريب على الووشو في سن الخامسة، وهو الآن يتمتع بخبرة 7 سنوات في الووشو، خلال هذه السنوات السبع، ذاق ما لم يذقه أحد من أقرانه من الألم والإحباط، في كل مرة كان ياو وويي يواجه صعوبات أو انتكاسات، كنت أقول له: «إن السماء تقوّي إرادتك وتشدّ همتك، وكما يقول المثل: (السكين لن يكون حادًا إلا بشحذه، والإنسان لن ينجح إلا بالكفاح وتحمل الصعاب). لا بد أن تتطرّ بتقاؤل إلى كل الانتكاسات التي تواجهها». فهم ياو وويي كلامي جيدًا؛ لذلك لم تكسره النكسات والصعوبات؛ بل جعلته يواجهها بشجاعة أكثر.

الضوء المشرق الذي بعثه الابن

خلال اجتماع أولياء الأمور، قرأ مدرس اللغة مقالاً كتبه أحد الطلاب، وكانت هناك جملة أتذكرها حتى الآن: «الذهب يتألق عاجلاً أو آجلاً». تمنعت في هذه الجملة عدّة مرات، وفي النهاية اتخذتها شعاراً لي. إن أبنائي في عيني هم الذهب، وأومن أنهم في يوم ما سوف يبعثون بريقهم وإشراقهم.

أنا فلاح تربيت وترعرعت في الريف، كانت عائلتي تتاجر في المخلّلات، وبعد ذلك بدأت في بيع الزنجبيل والثوم وما شابه ذلك، عندما كنت صغيراً كانت أسرنا فقيرة جداً؛ لذلك تلقيت تعليمي حتى الصف الرابع الابتدائي، ثم تركت التعليم وبقيت في المنزل؛ لست شخصاً مثقفاً، ولا أستطع سوى أن أركب العربية ثلاثية العجلات للقيام ببعض الأعمال التجارية الصغيرة، أعلم دائماً أنه بغض النظر عن الفعل الذي تقوم به لا بد أن تفعله بكل إخلاص، وإلا لن يتم كما تريد؛ لذلك حاولت الاجتهاد في القيام بهذا العمل، وأوجه رأسي دائماً إلى الأمام، حتى ينعم أولادي بتسمية وتقدم أفضل.

عندما كان ياو وويي يدرس في مدرسة شاولين لفنون الدفاع عن النفس ببيكين، دفعت 50 ألف يوان حتى ينضم إلى منصة التبادل بقسم السينما والتلفزيون، أومن دائماً أنه من خلال قوة ابني يمكنني تحقيق إنجازات كبيرة في المستقبل بكل تأكيد، وأن حصانه سوف يلتقي ببولي1، أعتقد أنه يتوجب على كل شخص أن يُظهر الجانب الحقيقي له، وإذا قام فقط بتقليد الآخرين تقليداً أعمى، سوف يخسر نفسه في يوم ما؛ لذلك دائماً ما أحذر أبنائي قائلاً: «لا تحسدوا الآخرين، حتى لو لم يكن لديكم أفضل مما لديهم، تمسكوا بطريقكم حتى تستطيعوا أن تقطعوا طريقاً طويلاً».

ندما التحق بالمدرسة، كانت الظروف الاقتصادية لعائلتي سيئة، كان أولياء الأمور عندما يذهبون لرؤية أبنائهم يستقلون السيارة، بينما كنت أحمل حقائب وأغطية ابني على كتفي، أعتقد دائماً أنه حتى لو لم تكن ظروف أسرتي جيدة، لن يكون أبنائي أقل من غيرهم؛ بل سيكونون أفضل منهم؛ في اجتماع أولياء الأمور بمدرسة ابني الأكبر، قرأ معلم اللغة مقالاً، كان بهذا المقال عبارة حركت مشاعري بعمق، وهي: «الذهب يتألق عاجلاً أو آجلاً». لم أتم ليلتين بسبب هذه الجملة، وأتذكرها دائماً: «الذهب يتألق عاجلاً أو آجلاً». وأصبحت بعد ذلك شعاراً لي.

في ديسمبر عام 2004، كان قد مر 3 أشهر ونصف على التحاق ياو وويي بمدرسة شاولين لفنون الدفاع عن النفس ببيكين، وصنفته المدرسة بأنه «طالب متميز»، وشارك بعد ذلك مباشرة في بعض برامج تلفزيون الصين المركزي ومحطة تلفزيون بكين؛ وفي 16 من نوفمبر عام 2008، شارك في عرض برنامج قناة الأطفال في تلفزيون الصين المركزي؛ في بداية البرنامج، تعرفنا على ياو وويي في لمحّة؛ حيث كان يحمل في يديه دلوّاً خشبياً مديباً؛ وشاهدت الأسرة بأكملها البرنامج بكل تركيز حتى نهايته.

وباسترجاع الماضي، تظل تلك الأيام الصعبة حية في الذاكرة؛ قبل عام 1990 عاشت الأسرة حياة فقيرة، وكانت كل الملابس مليئة بالرقع، ولم أذهب قط إلى السوق لشراء اللحم مرة واحدة؛ أعتقد أن النقشف والاقتصاد بداية من الجيل السابق ربما جعل الأطفال الثلاثة يفهمون أكثر صعوبة الحياة اليوم؛ على الرغم من أن تكاليف تعليم الأطفال الثلاثة ليست قليلة؛ فإنني عندما أرى الإنجازات التي يحققونها، أشعر أنهم يستحقون كل هذا حتى لو عانينا التعب والشقاء ثانية؛ أعرف أن الوضع الاقتصادي لعائلتي لا يمكن مقارنته بالعائلات الأخرى؛ ولكن حتى لو لم يكن لدينا أي شيء، طالما أن الأبناء يجتهدون لإحراز التقدم، لا أشعر بمدى الصعوبة والتعب في هذه الأيام؛ بل على العكس أشعر بالسعادة؛ أعتقد أنه في مثل هذه البيئة الشاقة أستطيع أن أجعل أبنائي أكثر اعتزازاً بكل ما يمتلكونه اليوم، هي تلك الجملة: «الذهب يتألق عاجلاً أو آجلاً»، ما دام أننا نجتهد في العمل ونخطو كل خطوة بثبات، لن يكون النجاح بعيداً.

بولى: هو اسم الشخص لأمطور يفيو لاية تشينخالا فتر تال ربيعو الخريف الذبير عفتيقيم الخيول. 1-1

الفصل السابع: تركت لأبنائي "ثروة" لا حدود لها

يعيش الإنسان عمرًا واحدًا، فما الذي يتركه لأبنائه؟ أعتقد أنه ليس بالضرورة أن يكون مقدار المال، وعدد العقارات التي يتركها لهم، فإذا كان شخص عديم الجدوى لا يبذل أي محاولة للتقدم، فإنه سوف ينفق المزيد من الممتلكات في يوم واحد؛ قمت بتسجيل مراحل تربية ابني، ليتعرف تجربة حياة أسرته، وهذه ثروة في حد ذاتها؛ أعتقد أن غنى الروح لا يحل محله المال، وهي الحقيقة الأبدية للإنسان القويم في الحياة.

المقابلة الأولى

أعتقد دائمًا أن إجراء مقابلة هو أمر عظيم؛ ومع ذلك، عندما حدث لي هذا الأمر، فقدت الشعور بالغبطة، وبقي فقط التوتر وعدم الهدوء.

في مارس عام 2005، عاد ياو وويي من هونغ كونغ إلى بكين محققًا نتائج كبيرة، في أبريل عام 2005 شهد منزل عائلة ياو أول مقابلة إعلامية، بعد ظهر يوم 16 من أبريل، جاءت وسائل الإعلام فجأة لإجراء مقابلة، لتدخل السعادة على عائلة ياو بأكملها، كما نثرت حولهم أجواء من التوتر.

في ظهر ذلك اليوم جمعت البضاعة بالكشك وعدت من السوق، وما إن وضعت إحدى قدمي علي العربة وبدأت في التحرك، حتى سمعت رنة الهاتف، لِمَاذا أقول: إن رنة الهاتف نغمة تلد الآن؟! ليس لأن الرنة عذبة جدًا؛ ولكن بسبب محتوى المكالمات التي وراء رنة الهاتف؛ منذ أن التحق ياو وويي بالمدرسة إلى الآن، كنت على اتصال دائم بجميع المعلمين الذين علموه، وعدد قليل منهم كانوا يتصلون بمنزلنا، وعلى وجه الخصوص عدد من المدربين بعد التحاق ياو وويي بمدرسة الووشو، في كل مرة تُقام مسابقة أو عند معرفة نتيجة مسابقة، أكون أنا أول من يخبرونه؛ وبالمعنى الدقيق فالميداليات والشهادات الفخرية التي حصل عليها ياو وويي على مر السنين، مُنحت له من قبل معلميه ومدريه.

ظننت أن هذا اتصال من أحد المدربين، وبعد أن تلقيت المكالمات عرفت أنه موظف وسائل الإعلام بشركة شوجيان شيونغ تساي للعلوم والتكنولوجيا؛ وقال: إنهم يريدون أن يأتوا بعد الظهر لإجراء مقابلة معي؛ لذلك أرادوا معرفة رأيي مقدمًا، فقلت لهم بصدق: أنا بائع خضار، ولا أجيد التحدث بلباقة. فقال لي: إنهم فقط يريدون استكشاف قصة تعلم ياو وويي الووشو من البداية حتى النهاية، ولحظة أن سمعت اسم ياو وويي، وافقت على الفور؛ وقررت ألا أتحدث ثانية، حتى لا أهرجه أو أعرقل تقدمه، وأوافق على إجراء هذه المقابلة، وعندما سمعت زوجتي أن هناك وسائل إعلام تريد إجراء مقابلة، قامت بسرعة بتنظيف المنزل؛ ولكن كان المنزل صغيرًا جدًا، كيف ستنتظفه وهو لا يبدو أنيقًا ومرتبًا؛ في ذلك الوقت اقترحت زوجتي قائلة: «هذا المكان الذي استأجرناه صغير ومتهالك، ماذا لو استخدمنا منزل العم مالك السكن؟». فقلت لها بصوت عالٍ: «لا، لن يصير، الابن لا يرى أمه قبيحة، فهذا هو منزلنا حتى لو أصبح متهالكًا أكثر». عندما سمعت زوجتي هذا الكلام تقهمت شعوري، وقالت لي: «سيأتي الصحفي، عليك أن تبدل ملابسك بسرعة، هذه الملابس التي ترتديها وأنت تبيع الخضار كل يوم قذرة جدًا»، ولكنني لم أشتري ملابس جديدة منذ سنوات عديدة، من أين سأأتي بملابس جديدة لأرتديها؛ رأيت زوجتي وهي تقلب المكان رأسًا على عقب حتى عثرت على قميص قصير الأكمام أبيض شبه جديد، وأسرعْتُ لأرتديه، وعندما وضعتهُ على جسمي وجدته مناسبًا؛ هذا القميص أرسله لي مدير السوق السيد هوي عندما وصلت إلى السوق لأول مرة.

منذ الساعة الثالثة ظهرًا وحتى لحظة قدوم العاملين في وسائل الإعلام، لا أستطع وصف شعوري في ذلك الوقت هل كان شعورًا بالسعادة أم شعورًا بالتوتر؟ عندما قام الموظفون بتفريغ معدات التصوير من السيارة، جذبوا أنظار الكثير من السكان المحليين حولهم، وكانوا يقولون: «انظروا، سوف يظهر بائع الزنجبيل على شاشة التلفاز». بعد وصول موظفي وسائل الإعلام إلى بيتي، بدأوا في دراسة مكان التصوير، ربما رأوا أن الغرفة الصغيرة السوداء سوف تؤثر على التصوير؛ لذلك لم يقرروا أين يضعون العدسة؛ وبعد ذلك قال مدير قسم السينما والتلفزيون لي تشيان: «انقلوا الكاميرا إلى المكان المفتوح في الناحية الشرقية؛ لأنه واسع والإضاءة به جيدة».

في هذا الوقت كان موظفو وسائل الإعلام مشغولين بنقل الكاميرا، واختيار مكان التصوير وغيره، كنت أبداً أكثر توتراً أثناء انشغالهم؛ وفكرت في أنني رجل كبير لا أجيد الحديث؛ لذلك كنت أرد فقط على الأسئلة التي تُوجه إليّ، وأقول الحقيقة؛ خشيت أن أتعثر في المقابلة، وأن أشعر ابني بالخجل؛ لذا دائماً ما كنت أربت على صدري لتذكير نفسي، وأقول لنفسي يجب أن أظهر بشكل جيد، حتى لا يشعر ابني بالخجل؛ من كان يعلم أن الصحفي سيألني: «لماذا جعلت ابنك يختار هذا الطريق ويتعلم الووشو؟»، هذا السؤال جعلني أرتجف من الخوف؛ لأننا سمحنا لابننا للذهاب لتعلم الووشو سراً. في البداية تولدت لدي فكرة، سخر منها الكثير من زملاء، فهم يعتقدون أن «التنين يلد تنيناً، والعنقاء تلد عنقاء، وابن الفأر يحفر حفرة»¹، أنا بائع خضار، وينبغي أن أعلم ابني مهنة بيع الخضار، ليتسلم نوبته في المستقبل، فأرسلت ابني سراً إلى مدرسة الووشو، حتى لا أتعرض للسخرية المستمرة من الناس؛ ولكن عندما سألني الصحفي هذا السؤال، هزني هذا اللا شيء، وبما أن الجميع يعرفون ذلك بالفعل، سأجيب بكل صدق. مسحت حلقي وقلت: «باعتباري ولي أمر ياو ووي، عندما أرى الأوسمة الكثيرة التي حصل عليها ياو ووي الآن، أشعر بالسعادة الغامرة، وكذلك أشعر بالفرح بسبب إصراري في البداية. وأجيبته بكل صدق: «في البداية كان ياو ووي مثل الأطفال الآخرين، يتلقى دروساً في المعرفة الثقافية؛ ولكن بعد ذلك اكتشفت أنه يحب الووشو، فساعدته على التسجيل في دورة تدريبية، ولأن الأطفال يحبون اللعب، خشيت أن يتحمس الطفل لفترة من الوقت، كما أنه في ذلك الوقت كان عمره أربعاً أو خمس سنوات فقط، أي وقت اللعب والمرح؛ وبعدما واطب على حضور الدورة التدريبية في العطلة، اكتشفت أنه قوي البنیان، وأكثر حيوية ونشاطاً. سألته: هل يحب الووشو؟ فهز رأسه بالإيجاب، فقلت له: إن تعلم الووشو أمر شاق. فوعدني الصغير أنه لن يخشى المشقة والتعب، وأنه سيجتهد في الدراسة، كنت سعيداً جداً عندما رأيت ابني صغيراً يأخذ مثل هذا القرار؛ وافقت على قراره، ووعدته أن أجد له مدرسة جيدة لتعلم الووشو».

واصلت كلامي قائلاً: "هذا أمر خاص بنا؛ ولكن عندما علم أهل القرية أنني أريد إرسال ابني الثاني لتعلم الووشو، قالوا جميعاً: إن تفكيري متخلف، وأن ياو ووي سوف يتخذ من بيع الخضار مهنة له مثلاً فعلت، وأن أي شيء يتعلمه هو غير مجدٍ، وأنه تضییع للمزيد من المال فقط، كل الناس تقريباً لم يوافقوا على قرارِي، حتى زوجتي كانت تقول لي كلاماً يثبط الهمة، فكانت تقول: هل تعلم كم سيكون عبء الالتحاق بمدرسة الووشو ثقيلاً علينا؟ في هذا العصر عدم تمتع أبناؤنا بالمعرفة الثقافية ليس أمراً جيداً. بعد الاستماع إلى آراء كل من حولي، كنت أكثر تصميمًا على قرار إرسال ابني لمدرسة الووشو، وحتى لا يتأخر الطفل ثقافياً، وجدت له مدرستين، الأولى هي مدرسة الووشو التي يذهب إليها في النهار؛ بينما يذهب في المساء إلى المدرسة الثانية لتلقي الدروس الثقافية، وكان يقطع طريقاً طويلاً كل يوم، حتى يذهب إلى المدرستين، وبعد ذلك، بمساعدة مدير مدرسة ياو يويو للوشو بمنطقة فانغشان، استطعت مساعدة ابني في العثور على المكان الحالي؛ حيث يمكنه تعلم الدروس الثقافية وتعلم فنون الدفاع عن النفس".

وأخيراً، سوف أقول بإيجاز: إن الإنجازات التي حققها ياو ووي خلال هذه السنوات، حتى لو عانيت التعب والمشقة سوف أعمل جاهداً على مساعدة ابني في المضي نحو طريق فنون الدفاع عن النفس؛ لأن هذا هو حلمه.

في 16 من أبريل عام 2005، جاء إلى منزل ياو الكثير من الأصدقاء العاملين في وسائل الإعلام، الذين منحوا هذا البيت الشعور بالدفع؛ وبعد أن غادروا، وقفت لفترة طويلة على الأرض الشاغرة في الجانب الشرقي.

تألف القلوب

الناس جميعاً لديهم عاطفة، عليك أن تعامل كل شخص معاملة جيدة، بما فيهم الأشخاص الذين ساعدوك والذين أدوك؛ خاصة الشخص الذي آذاك وألحق بك الضرر، بسبب لطفك وطيبة قلبك معه، ستجعله يدرك خطأه؛ ومن ثمَّ يقوم بتصحيحه.

بالإضافة إلى عم ياو ووي، كانت تعيش عائلة ياو المكونة من 6 أفراد في بكين؛ خلال هذه السنوات في بكين، تلقى أبنائي تعليمًا جيدًا، وأصبحوا أكثر ذكاءً وفهمًا؛ على الرغم من أننا كنّا نحيا حياة صعبة كل يوم في بكين، فإننا نعيش كل يوم بجدية، وكانت الأيام تمضي.

علمت أولادي منذ الصغر أن الإنسان لا بد أن يتعلم تقديم التنازلات من أجل الحياة، والتراجع خطوة إلى الوراء نحو الفضاء الشاسع؛ خلال هذه السنوات في بكين، جعلتنا هذه التنازلات نمضي بسلاسة أكثر، في البداية تعرضت للإساءة والإهانة من قِبل الناس، وكنت أقول لعائلتي: لندع هذا جانباً، فالوئام يجعلنا نتعامل بسلاسة، والسلاسة تمكننا من فعل

الأشياء ببسر، وأصاب تفاؤلي كل أفراد الأسرة، كما علّمتُ أبنائي أن رد الإساءة بالإحسان هي أفضل طريقة للقضاء على الكراهية تمامًا.

ذات يوم في أواخر عام 2008، كانت الرياح ذلك اليوم شديدة جدًا، وقيل: إنها عاصفة قوية، وفي هذا اليوم البارد، لم يكن لدينا ضيوف، وأوشكنا على قضاء السنة الجديدة، وأردت أن أجمع البضائع وأعود إلى المنزل مبكرًا لأشارك العائلة؛ لذلك جمعتها وركبت العربة واتجهت إلى المنزل، وبعد الوصول إلى المنزل أوشكت على الهبوط من على العربة، ولم أوقف العربة حتى رأيت ابني الثاني ياو وويي يركض نحوي لاستقبالي، أردت أن أثني على هذا الابن الماهر المهذب؛ ولكنني سمعت فجأة صوت بكاء بداخل المنزل، اعتقدت أنه حدث شيء ما، فهرعت إلى المنزل؛ رأيت زوجتي جالسة على الكرسي تغص بالبكاء؛ فسألته: «لماذا تبكين يوم الاحتفال بالسنة الجديدة؟ إذا اشتقت لأهلك، فسوف نعود لرؤيتهم هذا العام وقضاء الاحتفال بالسنة الجديدة معهم»، مسحت زوجتي دموعها وقالت لي: «ليس اشتياقي إلى أهلي هو السبب؛ بل هو قربنا المخبب للآمال، الذي لم يألّف الحياة في بكين في العامين السابقين ولم ينسجم بها، ألم يعد إلى منزله؟ كان يعمل في الموقع ببلدته، وكُسر معصمه الأيمن. وسقط ابنه من على الدراجة النارية، وأصيب إصابة شديدة جدًا». لم تنته زوجتي من كلامها، حتى تساقطت دموعها مرة أخرى؛ قلت لها: «لا تبكي، فالبكاء لن يحل المشكلة، سأصل به لأعرف ماذا حدث».

اتصلت على الفور بقريبي، وسألته عن مرضه، وعما إذا كان يحتاج شيئًا لأن شراء الأشياء في المنزل أمر متعب، لأشتره وأرسله له؛ لم أتوقع أنه يقول: «إنها حقًا دموع التماسيح! هل اتصلت بي لتسخر مني؟ عندما كنت في بكين أسأت إليك وظلمتك، هل تعاقبني الآن، هل أنت راض هذه المرة؟»، وبعدما انتهى من كلامه، أغلق الهاتف؛ عجز عقلي عن استيعاب هذا الكلام لفترة من الوقت، ما الذي حدث؟ فما حدث في الماضي لا أتذكره، كيف يتذكره، رأيت زوجتي أغلق الهاتف، فسألته: «ماذا حدث؟». لم أقل شيئًا حتى لا أفلق زوجتي، وقلت لها: لقد تلقوا العلاج، وأعتقد أنهم سوف يستعيدون عافيتهم قريبًا، وسأذهب الآن إلى الصيدلية لشراء بعض الأدوية المقوية لأرسلها لهم.

انتهيت من الكلام ثم ركب العربة ثلاثية العجلات واتجهت إلى صيدلية تونغ رن تانغ وهي أقرب صيدلية تبعد عن منزلنا ميلين؛ ونزلت من العربة متجهًا نحو الصيدلية بسرعة، واخترت أفضل أنواع الأدوية المقوية، ودفعت في النهاية 960 يوانًا؛ كان هذا المبلغ بالإضافة إلى الرسوم الدراسية لابني وتكاليف المسابقة أكثر مبلغ أنفقته؛ ولكن العلاج أمر مهم وعاجل؛ لذلك بحثت بسرعة عن المال في كيس مال بيع الخضار؛ ربما رأى رئيس الخزينة ملابسي قدرة وبالية، فكان شرائي لمثل هذه الأدوية الغالية أمرًا لا يُصدق؛ لذلك سألني: «لمن ترسل هذه الأشياء الغالية؟»، فقلت بصراحة: «أرسلها لقريبي المريض».

بعد شراء الأدوية، أردت إرسالها بسرعة؛ لذلك كنت أقود العربة دون توقف وسط رياح قوية، ووصلت أخيرًا إلى مكتب البريد قبل انتهاء مواعيد العمل؛ قلت لموظف البريد: «هذه لإنقاذ حياة إنسان، أريد استخدام أسرع وسيلة إرسال». طلب مني موظف البريد ملء استمارة؛ ولكن كانت الكلمات التي أعرفها قليلة، ولم أعرف كيف أملؤها، لذلك قلت له: «هل يمكنك مساعدتي في ملء الاستمارة؟ لأن الكلمات التي أعرفها ليست كثيرة، وأخشى أن أخطئ». أخذ موظف البريد الطيب الاستمارة على الفور وسألني عن عنواني ورقم هاتفي والرمز البريدي وغيره. قضيت فترة ما بعد الظهر في شراء الدواء وإرساله، في هذه اللحظة أدركت أنني كنت جائعًا. في الواقع، بعد جمع الكشك كنت أريد العودة إلى المنزل لتناول الطعام؛ ولكن لحظة أن سمعت خبر مرض قريبي، شعرت أن العلاج أمر مهم، فنسيت الأكل؛ كلما أفكر في الطعام يزداد إحساسي بالجوع، خصوصًا عندما أمر أمام أبواب المطاعم الصغيرة؛ ولكن تناول الطعام في الخارج يتطلب إنفاق المال، حتى لو اشتريت وعاء من الشعرية من الأكشاك على الطريق سيكون سعره 10 يوانات، والعشرة يوانات تشتري الكثير من كعك البخار، ففكرت أن أتحمل الجوع، وقررت ركوب العربة والعودة إلى المنزل.

بعد ثلاثة أو أربعة أيام، اتصلت بقريبي مرة أخرى؛ أردت أن أسأله عن وصول الأدوية، فسمعت فقط يهمس بصوت منخفض قائلًا: «وصلت، كم أنت حنون، شكرًا جزيلاً». عندما سمعت صوته ضعيفًا جدًا، ظننت أن معصمه يؤلمه أكثر، فسألته بقلق: «هل حالتك الصحية خطيرة؟ كيف تبدو كأنك من دون روح؟» فتهدد ثم قال: «لا، أنا معصمي أفضل بكثير؛ ولكن رأيك أرسلت الأدوية، وتتصل دائمًا لتطمئن على عائلتي، فشعرت بالخجل؛ كنت دائمًا أسيء معاملتك وأظلمك كما كان يفعل الآخرون، وعندما تذكرت ذلك الآن شعرت أن قلبي بلا إحساس». فقلت له بسرعة: «كلنا عائلة واحدة، وكسر العظام يرتبط أيضًا بالأوردة، وما حدث في الماضي قد مضى بالفعل، عليك التطلع إلى الأمام، ولا تأخذ كل شيء على قلبك؛ لم يكرهك أحد من عائلة ياو قط، وأنت أحد أقارب زوجتي، ويجب أن أعتبرك من أقاربي أيضًا».

في ذلك اليوم تحدثت مع قريبي لفترة طويلة، وشعر بالراحة بعدما قلنا كلاماً كثيراً؛ وبعد ذلك اتصلت به عدة مرات، أسأله عن حالته الصحية؛ كنت أهون عليهم بأن يستقبلوا كل يوم بتناول، وأن يكون المزاج جيداً حتى يتلاشى الألم من الجسم ويكون بحالة جيدة؛ واقتربت عليه أن يأتي إلى بكين بعد قضاء رأس السنة الجديدة، فعدم كسب المال من بيع الخضار في بكين أكثر راحة من بناء المنازل للآخرين في البلدة؛ ألا يجب أن نعيش الأيام بسعادة، ولكنني كنت أتعب نفسي كل يوم كالبقرة، فكيف لي أن أشعر بالسعادة؟

تسجيل مراحل النمو والتربية

يقول الناس: «المال يأتي ويذهب، لا تجلبه الحياة ولا يأخذه الموت؛ ولكن لماذا يحب الكثير من الناس السعي وراء الماديات؟ بعضهم يفعل ذلك لمتعته الخاصة، وبعضهم الآخر يريد أن يحيا أولاده حياة آمنة تخلو من القلق والحزن؛ ولكن في الحقيقة أن نورث أولادنا مهارات كسب المال أفضل من أن نتركه لهم.

في عام 2008، بسبب ركود الاقتصاد العالمي، ارتفعت أسعار الخضار في السوق الذي نشترى منه أكثر فأكثر، ولكنني كنت أبيع الخضار في السوق سنوات عديدة، وكان يتردد عليّ الكثير من الزبائن المعتادين، ولم أستطع رفع أسعار الخضار التي لا تتغير قط، وفي النهاية أكسب القليل من المال؛ ولكن بيع الخضار هو تجارة صغيرة ذات أرباح قليلة جداً؛ لذلك كان الوضع الاقتصادي لعائلتنا هذا العام صعباً للغاية؛ بالإضافة إلى أن أولادي يدرسون في بكين، وابني الثاني يدرس في مدرسة الووشو، والرسوم الدراسية بالإضافة إلى نفقات المنزل لمدة عام، جعلتني كرب الأسرة قلقاً جداً؛ ولكن لحسن الحظ حقق الابن تقدماً كبيراً هذا العام.

وبحلول نهاية عام 2008، أجريت كالعادة اتصالاً هاتفياً بكل أساتذة ياو وويي ومدربيه، وكذلك المعلم تيان ميلان في قسم السينما والتلفزيون، والمدير لي تشيان وغيرهم لتحيتهم وتهنئتهم بالعام الجديد، ولمعرفة أخبار دراسة ياو وويي خلال هذا العام؛ عندما اتصلت بالمعلم تيان ميلان، أخبرني خبراً ساراً جداً: «في العام القادم نعتزم إنشاء موقع عالمي ومجلة خاصة بالكونغ فو، وتأسيسها سيمنح ياو وويي فرصة عظيمة وسيوسع آفاقه، وسوف يرتبط هذا الموقع بأكثر من 130 وحدة للووشو ببكين، وهذا سيجعل طريق ياو وويي في المستقبل أوسع وأوسع». بعد الاستماع إلى كلام المعلم تيان ميلان، كنت متحمساً جداً، وانتابني شعور دائم بأن ابني سيحقق نجاحاً كبيراً.

إن الإحساس بالإثارة والحماسة من الصعب تهدئته، أخذت أقلب في الميداليات والشهادات التي حصل عليها ابني خلال هذه السنوات، ثم ذهبت إلى السوق لشراء طاولة مستعملة، ووضعتها على الطاولة، وقمت بتعليق الشهادات على الحائط، عندما أرى الآخرين يضعون جوائز أطفالهم ويعلقون شهاداتهم، أغبطهم دائماً؛ والآن يمتلك طفلاً الكثير من الأوسمة، فلم أخفيها؛ وبالإضافة إلى ذلك، أردت أن يتلقى المعرفة الثقافية؛ لأنني أعتقد أنه إذا كنت لا أتمتع بمستوى تعليمي أعلى من الصف الرابع الابتدائي، لا بد أن يتلقى أولادي تعليمًا أعلى.

في اليوم الثاني أنفقت مبلغ 170 يواناً لأول مرة، لحجز نسخة من «الجريدة القانونية المسائية»، وفي اليوم الثالث تجولت في ثلاثة محلات، وفي النهاية اشتريت كتاباً بسعر خاص من السوبر ماركت، من أعمال خبيرة التعليم الأسري الصينية الشهيرة لو تشين، وكان بعنوان: «تربية الأبناء ليصبحوا ثروة»، وقد غيرني هذا الكتاب؛ بعد ظهر أحد الأيام كنت أشاهد التلفاز، وسمعت الممثل تشو إنلاي يقول هذه الجملة: تعليم الأطفال المهارات أفضل من ترك ثروة ضخمة لهم، وكانت هذه الجملة ملهمة لي؛ لذلك شعرت بضرورة ترك «ثروة» لأبنائي؛ ولكن كنت أخشى عدم قدرتي على ترك ثروة مادية لهم، فبسبب الرسوم المدرسية للأطفال ونفقات المعيشة، كنت أنفق المال الموجود ولا أبقى شيئاً، حتى لو تبقى شيء اشتري به ملابس جديدة للأطفال؛ كنت أنا وزوجتي نرتدي دائماً ملابس قديمة؛ ولكن الأطفال أصبحوا كباراً، أريد أن يرتدوا ملابس جديدة كل عام، حتى لو قطعة ملابس واحدة.

وفقاً لوضعنا الاقتصادي حالياً، لا أستطيع سوى منحهم ثروة روحية، كما قال الكتاب: «إن ترك الثروة الروحية التي لا نهاية لها أفضل من الثروة المادية المحدودة»؛ لذلك استخدمت المذكرات لأخبر أبنائي بتجربة المعاناة التي عشتها؛ لأن المعاناة نوع من أنواع التعليم، لتعليمهم كيفية تحويل المعاناة والشقاء إلى قوة دافعة للكفاح، ومواجهة الشقاء والمعاناة حتى يكونوا قادرين على القيام بالأشياء على أساس ثابت، والعمل بمثابرة ونشاط لمواجهة الشدائد؛ كما ذكرت أيضاً الكثير من الأشخاص الذين عذبونا، ولكنني لم أكتب ذلك بدافع الكراهية؛ بل لأعلم أبنائي أن العين بالعين والسن بالسن، كتبت كل هذا

معتبرًا أن الأشخاص الذين عذبونا أصحاب فضل علينا؛ هناك مقولة جيدة تقول: «اشكر من قام بأذيتك لأنه علمك أن تكون قويًا». أفهم هذه الجملة جيدًا، وأريد أيضًا أن يتعلم الأطفال هذه القوة.

كما سجلت بالتفصيل طريق ياو وويي خلال تعلم الووشو؛ لأنني أريده أن يتذكر، سواء تقدم في مسيرته وعلا نجمه بعد ذلك أو استمر في حياة الفقر، عليه أن يكون متفانيًا وأن يواجه الحياة بإيجابية؛ مثلما كان عندما بدأ تعلم الووشو؛ لأن الحياة قصيرة جدًا، وهو لم يواجه الأشياء السعيدة بعد، فكيف له أن يتشاءم.

الاستماع إلى صوت التقدم

إن نجاح أي شخص يتكون شيئًا فشيئًا؛ ولا أحد يحقق النجاح بسهولة؛ وعملية تراكم النجاح هي تقدم، والتقدم يشبه درجًا متجهًا نحو النجاح، وكل تقدم يقترب أكثر من النجاح.

في 6 من يونيو عام 2009، تأسست رسميًا شبكة الكونغ فو العالمية، ومجلة «الكونغ فو العالمية»؛ في حفل الافتتاح، توسعت آفاق رؤية ياو وويي بالفعل؛ في اليوم السابق لحفل الافتتاح، سألتني زوجتي: «هل ستذهب غدًا لحضور حفل الافتتاح؟». فقلت لها: «أذهبي أنت، فأنت تعرفيني جيدًا، اعتدت على الطاعة منذ الصغر، ولم أرَ مثل هذا المشهد الكبير، وأشعر بالخوف عند سماع الموسيقى». قالت لي: «حفل الافتتاح غدًا، سوف يظهر ياو وويي على المسرح ويكشف عن مواهبه، ألن تذهب حقًا؟». ترددت قليلًا ثم قلت لها: «لن أذهب، سأظل في المنزل لكسب بعض المال، أذهبي أنت، وبعدما تعودين إلى المنزل أخبريني ماذا حدث».

في النهاية لم يذهب أحد منّا، وانتظرنا حتى عاد الابن في العطلة الشهرية وأخبرنا بما حدث؛ قال: «لماذا لم تذهبا لحضور حفل الافتتاح، كان هناك العديد من القادة الكبار في الحفل! أنتما لم تمتعا نظريكما، فكان هناك العديد من الأعلام الوطنية، بعضها لم أعرفها». بعدما سمعت كلام الطفل علمت أن هذا الافتتاح أحدث هزة كبيرة في نفسه، وأكسبه الكثير من المعرفة؛ كانت الظروف الاقتصادية للأسرة محدودة؛ لذلك لم تكن لدي فرصة للسماح لأبنائي دائمًا بالخروج لرؤية العالم واستكشافه مثل أطفال الأثرياء، الذين كانوا يخرجون للسفر في العطلات، ويذهبون إلى الخارج للتسوق؛ بينما يستطيع ابني التعرف على أشياء جديدة لم يتعرف عليها من قبل فقط من خلال مشاركته في المسابقة أو أدائه للعروض؛ ولكن هذه التجربة مختلفة عما كان يفعله أقرانه، وجعلته يفهم الأشياء جيدًا وهو في سن صغيرة؛ وفي كل مرة يخرج ياو وويي للمشاركة في مسابقة أو يؤدي عرضًا، يشتري علبتين من السجائر المحلية، ليقدمها هدية لعمه.

كان ياو وويي يأخذ إجازة مرة كل أسبوعين، وفي كل مرة يعود إلى المنزل، تُحسّن الأسرة وجبة الطعام، في هذا الوقت يُخرج ياو وويي اللحم من الوعاء ويضعه في وعاء عمه، ويقول: إنه يأكل اللحم كل يوم في المدرسة وشبع منه. لماذا يعامل ياو وويي عمه جيدًا هكذا؟ لأنني علمته منذ الصغر شكر الآخرين، خاصة أولئك الذين يعاملوننا جيدًا، عم ياو وويي رجل أعزب، بعدما وُلد ياو وويي، كان يعامله كما لو كان ابنه؛ والآن أصبح ياو وويي ناضجًا يفهم الأشياء، وهو بطبيعة الحال يرد الجميل لعمه.

عاد ياو وويي إلى المدرسة بعد أن قضى يومين في المنزل؛ بعدما أرسلته إلى مسكن الطلاب، طلبت منه أن يستريح قليلًا؛ لأنه سوف يحضر محاضرة في المساء؛ عندما غادرت مسكن الطلاب، لم أكن على عجلة لمغادرة المدرسة؛ لأنني في تلك الأيام لم أمارس التجارة، ولم يكن في المنزل شيء أقوم به، فضلت التجول في المدرسة؛ على الرغم من أنني تلقيت تعليمي حتى الفصل الرابع الابتدائي فقط، فإنني أحب المدرسة منذ الصغر؛ وكانت ظروف الأسرة سيئة، فلم أستطع مواصلة الدراسة؛ والآن أرى مدرسة ابني جيدة جدًا، وأعتبر أن ابني هو الذي ساعدني في تحقيق حلم التعليم، وكان مجتهدًا ومتميزًا جدًا.

تجولت في المدرسة لفترة من الوقت، ودون وعي وصلت إلى قاعة التسجيل، رأيت خيال ياو وويي على جدار القاعة في كل مكان؛ في هذه اللحظة، سمعت صديقًا صغيرًا يقول: «هذا هو ياو وويي، وهذه الصورة الجماعية تم التقاطها عندما حصل على الميدالية الذهبية بمسابقة ماكاو». عندما سمعته يذكر اسم ياو وويي، كان قلبي يخفق، وخطوت عدة خطوات ووقفت أمامهم؛ وقفت مع الأطفال الآخرين، لأسمع تقييم الطلاب الآخرين لياو وويي. واصل كلامه قائلاً: «ياو وويي ليس مجتهدًا في الكونغ فو فحسب؛ ولكنه أيضًا ممتاز في الدروس الثقافية، وكل الطلاب بالفصل يحبونه كثيرًا؛ هو أيضًا يتحمل

المشاق؛ حيث يتدرب كل يوم بينما ينام الآخرون؛ كما أنه مطيع جدًا، ولا يحضر ملابسه المتسخة إلى المنزل، وعلى الرغم من الشتاء البارد فإنه كان يغسلها بنفسه. وقال: إن ظروف أسرته ليست جيدة، وإنها مشغولة بالعمل لكسب المال حتى يتلقى تعليمه، ولا يريد أن يحمل أسرته المزيد من المتاعب؛ لذا يفعل الأشياء التي يستطيع القيام بها بنفسه، وهذا ما علمه والده له». لم أتوقع أن يابو ووبي ذكر لزملائه أن والده غير المثقف علمه أن يكون إنسانًا قويًا، وعندما سمعت ذلك كنت سعيدًا وفخورًا؛ لذا سألته: «أيها الصديق الصغير، ما اسمك؟»، فأجابني ذلك الطالب قائلًا: اسمه شين هوي لونغ.

في الواقع، أنا لا أعلم كيف أعلم الأطفال، ولا أتمتع بمستوى ثقافي عالٍ، ولا أستطيع قول حقائق عميقة راسخة، أنا فقط أريد أن أجعل من ابني إنسانًا يجمع بين الأخلاق والكفاءة؛ الأخلاق أولاً وقبل كل شيء، فكما يقول المثل: «الإنسان الذي يجمع بين الأخلاق والكفاءة يكون مفيدًا للمجتمع، ومن يتمتع بالأخلاق دون الكفاءة ليس بالضرورة أن يقدم إسهامات للمجتمع؛ ولكنه بالتأكيد لن يضر المجتمع، أما من يتمتع بالكفاءة دون الأخلاق، فهو لن يفيد على الإطلاق؛ لأنه سيكون ضارًا بالمجتمع». أنا لا أتمتع بمستوى تعليمي مرتفع؛ لذلك ليس بوسعي سوى أن أعلم ابني ما تعلمته من المبادئ الإنسانية، ولا أطلب منه أن يسهم كثيرًا في المجتمع؛ ولكنه بالتأكيد لن يفعل أشياء مؤسفة للمجتمع؛ لذا أهتم جدًا في حياتي بتعليمه الأخلاقي، أما بالنسبة إلى مشكلة «الكفاءة»، سأتركها على المعلمين في المدرسة، فأنا بالتأكيد لا أستطيع تعليمه إياها.

عام الحظ

الأشياء السيئة يمكن أن تؤدي إلى نتائج جيدة، والأشياء الجيدة يمكن أن تؤدي إلى نتائج سيئة»، عندما تنهال عليك سلسلة من الأشياء السيئة، يجب ألا تثبط عزيمتك ولا تتخلي عن نفسك؛ لأنه في اللحظة القادمة قد يكون بعد العسر يسرًا، وتتحول الأشياء السيئة إلى جيدة، والأشياء الجيدة تحدث مرارًا وتكرارًا، بشكل عام، كان عام 2009 بداية الحظ لعائلة يابو، التي شهدت الكثير من المعاناة، وأخيرًا جاءت السعادة بعد المعاناة؛ هذا العام تلقى يابو ووبي مساعدة من الآخرين في دراسته، لينعم بمستقبل مشرق.

وفرت شبكة الكونغ فو العالمية، ومجلة «الكونغ فو العالمية» ليابو ووبي منصة عرض كبيرة؛ وبعد ذلك من خلال اختيار العاملين بقسم السينما والتلفزيون سُجِّل يابو ووبي بالمكان الرئيس بـ «طفل الووشو، نجم المستقبل» على الإنترنت؛ في هذا العام لامست إشراق ابني؛ في النصف الأول من العام لم تسر تجارتي بشكل جيد؛ ولكنها في النصف الثاني من العام تحسنت فجأة، وتوالى الزبائن باستمرار؛ خلال هذا العام صعد يابو ووبي على المسرح 27 مرة، بما في ذلك المسابقات والعروض؛ ولكن في كل مسابقة كان يعود حائزًا على ترتيب فيها؛ وكما يقول المثل: «يشعر الناس بالسعادة عند المشاركة في الأحداث السعيدة»؛ لذلك، شعرت في هذا العام بالسعادة.

في 21 من مارس عام 2009، شارك يابو ووبي في مسابقة «كأس كونبنغ» التي أُقيمت بإستاد شيجينغشان بتنظيم مشترك من معهد بكين للوشو وجمعية بكين للوشو؛ وفي المسابقة حاز المركز الأول في ملاكمة شاولين، والمركز الثالث في ملاكمة سيف شاولين؛ وفي 23 من أبريل عام 2009، دخل يابو ووبي الإستاد الوطني «عش الطائر» للمشاركة في عروض الووشو؛ وفي غرة مايو عام 2009، ذهب يابو ووبي إلى بيدياخه بمقاطعة خبي للمشاركة في العرض؛ وفي 6 من مايو عام 2009، كان يابو ووبي على الصفحة الأولى بشبكة الكونغ فو العالمية، وتُوج بلقب «طفل الووشو». وفي 12 من مايو عام 2009، لبي دعوة المشاركة في عرض التاي تشي بمنطقة بادالينغ سور الصين العظيم. وفي 14 من مايو عام 2009، وصل يابو ووبي مرة أخرى إلى الإستاد الوطني «عش الطائر» للمشاركة في العرض؛ وفي 6 من يونيو عام 2009، خلال المؤتمر الصحفي لشبكة الكونغ فو العالمية ومجلة «الكونغ فو العالمية»، صعد يابو ووبي على المسرح وقام، 2009، بأداء عرض شاولين أمام إعلاميين من العديد من البلدان، ولقي ثناءً كبيرًا منهم، فضلًا عن التصفيق الحار من الجمهور. في 21 من يونيو عام 2009، دعا برنامج «السنوات الذهبية لتلفزيون الصين المركزي يابو ووبي لتسجيل فقره، خلال هذه الفقرة، أُتيحت له الفرصة لالتقاط صور جماعية مع العديد من النجوم؛ مثل: وومنغ دا، وشيه مياو، وشي شياو لونغ، وتساو جون، وهاو شاووين.. وغيرهم. وفي 23 من يونيو عام 2009، شارك يابو ووبي في عرض «كونغ فو شاولين» في شونيهي. وفي 17 من يوليو عام 2009، شارك في بطولة الووشو كونغ فو ساندان (القتال الحر) العالمية «الصين ونوو» عام 2009، وحقق نتائج ممتازة في المسابقة: حصل على المركز الثاني في الأسواط التسعة مجموعة إم فور المتميزة في مسابقة الووشو الدولية بماكاو، والمركز الأول في ملاكمة تونغشي تشيوان (قبضة استمداد القوة من الخلف)، والمركز الأول في ملاكمة الجنوب (نان تشوان)، وحاز الميدالية الذهبية والفضية. وفي 30 من يوليو عام 2009، شارك

ياو ووي في عرض الووشو الكبير خلال الاحتفال بالذكرى السنوية الأولى لنجاح الألعاب الأولمبية. وفي 8 من أغسطس عام 2009، شارك في عرض التاي تشي مع آلاف الأشخاص بالإستاد الوطني «عش الطائر»، وحطم الأرقام القياسية العالمية ليدخل موسوعة جينيس. وفي 15 من سبتمبر عام 2009، شارك ياو ووي في عروض الملاكمة الجماعية خاص 6+1» بـتلفزيون الصين المركزي، ولقي ثناء مقدم البرامج الشهير لي يونغ. وفي 17 من أكتوبر عام 2009، «شارك في مسابقة الووشو للشباب الهواة» (كأس الكونغ فو العالمي)، وحصل على المركز الخامس في الأسلحة التقليدية، والمركز الرابع في ملاكمة بي قوا تشيوان (قبضة القطع والخنق)، والمركز الأول في الأسلحة الناعمة، والمركز السادس في تشانغ تشوان مجموعة الناشئين، والمركز الثالث في لعبة العصا، والمركز الأول في السيف، والمركز الرابع في الأسلحة مجموعة الناشئين.

هذه هي المسابقات والعروض التي شارك فيها ياو ووي عام 2009، وهذه نتيجة جهوده المتواصلة، ونتيجة توجيهه الجدي من قبل كل المعلمين والطلاب والمدرّبين والقادة في المدرسة، أنا حقًا شاكر لهم جميعًا.

تعزيز الهمة من أجل المجتمع

أعتقد أنه على الإنسان أن يفعل شيئًا ما ليشعر أنه على قيد الحياة، أردت أن أربي أبنائي حتى يصبحوا دعامة للدولة، وبعد أن يحققوا الإنجازات يقدمون المساعدة للمزيد من الناس؛ حتى لو لم يحقق الطفل أي إنجازات كبيرة، أتمنى أن يستغل ضوءه وتقانيه لمساعدة المحتاج.

كنت أستغل كل ثانية من وقت الفراغ أثناء بيع الخضار في الكتابة؛ في الساعة العاشرة صباحًا كان أفضل وقت لنشاطي التجاري؛ في العاشرة صباح يوم 7 من أغسطس عام 2012، عندما كنت مشغولًا، سمعت شخصًا يناديني، وحالما سمعت الصوت علمت أنها العمّة جي التي قالت لي: «أيها الشاب، أحضرت لك اليوم قلمًا من المنزل». وواصلت كلامها قائلة: هل تعلم لماذا أهديك قلمًا؟ لأن هذا القلم سيكون له دور كبير بين يديك؛ فأنت تصر على الكتابة في مثل هذا الطقس «الحار؛ مما جعلني أثأّر؛ منذ أن رأيته تكتب في الشتاء الماضي، ولم أعرف ماذا كنت تكتب».

هذا القلم الجاف ذو الغلاف الذهبي الذي أهدته لي العمّة جي، منحني قوة لا نهاية لها، وزاد من إصراري أكثر لكتابة هذا الشيء؛ إن المساعدة التي تلقيتها من الآخرين، جعلتني أدرك أنني لا أفعل شيئًا غير مفيد ومضيعة للوقت؛ كنت أعلم أولادي مرارًا وتكرارًا، وأخبرتهم: «بغض النظر عن الوقت، لا تقارن نفسك بالآخرين في امتلاك تلك الأشياء المادية، ما دام أنك تتقدم كل يوم، وتقارن تقدمك اليوم بالأمس، حتى لو كان قليلًا فهو عمل جيد». أعتقد أن طريق تنمية الأطفال وتربيتهم لا يزال طويلًا، وإذا أردت أن تكون شخصًا نافعًا، عليك أن تمر بتجارب عدة؛ ومهما كان النقد الذي تتعرض له من الآخرين في طريقك، يجب أن تعمل بجد لتحقيق الهدف المنشود؛ عندما يثني الآخرون عليك، لا بد أن تكون متواضعًا، وأن تقول لنفسك: إن هذا ليس سوى قليل من التقدم في طريق المضي قدمًا، وأنه لا يستحق الذكر؛ والأكثر هو ألا تمشي في الأرض مرحًا.

في شهر يوليو عام 2012، منحتني فيضانات فانغشان ببيكين بعض المعرفة الجديدة؛ في صباح يوم 7 من أغسطس، جاء مشرفان من سوق الخضار من البوابة الغربية في اتجاههما نحو الكشك؛ وعندما مشى المشرف منع ومال نحو الكشك، قال: إنه يريد «جمع الأموال». أنا لا أتمتع بمستوى تعليمي عالٍ، لم أفهم تمامًا بعض الكلمات، ورأيت شخصًا ما يخرج 10 يوانات، ثم حصل على 5 يوانات أخرى؛ لذلك فعلت كما فعلوا، وبعدما ذهبنا، مال أحد الزملاء وسألني: «كم تبرعت اليوم؟»، في هذا الوقت عرفت أن «جمع الأموال» هو جمع التبرعات! إذا كنت أعرف من البداية أنه جمع تبرعات، ما جعلتهما يأخذان مني المال.

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المشرف منع وقلت له: «قلت لنا: (جمع الأموال). وأنا لم أفهم، ولم نقل مباشرة جمع التبرعات، ولم يكن هناك حاجة للحصول على مالي».

خلال زلزال وينتشوان عام 2008، أخذ اثنان من مديري سوق الخضار صندوقًا أحمر كبيرًا لدعوة الجميع للتبرع للمنطقة المنكوبة، وفي ذلك الوقت حسبت أولادي الثلاثة، وتبرعت بمبلغ 90 يوانًا؛ وكنت سخيًا لأول مرة، حتى إن البائعين حولي

كانوا مندهشين جداً؛ أعتقد أنه إذا ساعدت الآخرين، يكون تبرعك بالمال نتيجة لرغبتك، هذا الأمر واضح بالنسبة إليّ ولا لبس فيه.

أمل أن يكون أولادي جميعاً موهوبين

سجلت كل التقييمات التي وُجّهت لابني سواء أكانت من المعلم أم المدرب في هذا النص؛ وبالنسبة إلى المساعدة والاهتمام اللذين تمنحهما المدرسة والمجتمع، علينا أن نعمل بجد لرد الجميل لهذا المجتمع، ومكافأة أولئك الذين ساعدونا.

في عام 2011، استقبلت عائلتنا بعض الأصدقاء الصحفيين، وتشرف بيتنا المتواضع بحضورهم؛ عندما يجتمع الجميع في منزلنا الصغير، يمثل قلبي بسعادة لا تُوصف.

منذ أن علمت عائلتنا بخبر قدومهم، كان القلب متحمساً جداً، ولم أُنم عدة ليالٍ، وبقيت مستيقظاً حتى صباح اليوم التالي؛ دائماً ما أعتقد أن هذه الأشياء الجيدة هي النور الذي لامس ابني، إذا كان أبي وأمي والعم الثالث يعرفون أن عائلتنا سنجري مقابلة صحفية يوماً ما؛ لكننا سعداء وما استطاعوا قول شيء من فرط السعادة؛ ربما يقولون: «الابن قادر على تحقيق المجد والتقدم، فهو يستحق التضحية بكل شيء من أجله».

في يناير عام 2011، علمت من مدير قسم السينما والتلفزيون بمدرسة شاولين للوشو بكيين المدير قوه أن ياو ووي جلب وساماً لقسم السينما والتلفزيون بالمدرسة، كما حقق إيرادات جيدة؛ فقررت المدرسة اعتبار ياو ووي متدرب الكارت الذهبي؛ ولحظة أن سمعت هذا الخبر، شربت أنا وأخي لأول مرة كوبيين من النبيذ احتفالاً بهذا الخبر؛ ثم ركضت أكثر من نصف الطريق وحدي لشراء لافتة مكتوب عليها عدة كلمات لامعة «الكونغ فو العالمي» مقابل 24 يواناً، لاستقبال الصحفي المتحمس القادم إلى منزلنا.

بعد انتهاء عيد الربيع، تواصلت مع المدير قوه، وسألته: «عندما يأتي الصحفي، إذا تعثرت في الكلام، وعرضت نفسي للسخرية ماذا أفعل؟»، قال لي المدير قوه: «عليك ألا تتوتر، وعندما يسألك عن شيء، أجب عن سؤالهم فقط». ساعدني المدير قوه على التسجيل المجاني للعربة التي أستخدمها في تجارتي على الموقع العالمي لريادة الأعمال، فكنت شاكراً له.

أعتقد أن وضع صورة عائلتنا على الموقع، إذا نظرنا إليها من الناحية الظاهرية بالتأكيد لن نر شيئاً؛ لأنها غير واضحة تماماً مثل تلك الصور القديمة الباهتة؛ ولكن هؤلاء هم أفراد العائلة الحقيقيين، الذين جاءوا من الريف إلى المدينة الكبيرة؛ هذه الأسرة الفقيرة استطاعت أن تجعل عدداً كبيراً من الصحفيين يُجرون مقابلة معها، وهذا لم أحلم حتى به من قبل؛ إذا رأى العمال المهاجرون الذين يعملون مثلنا هذا المشهد، ألن يشعروا بأن الحياة تتحسن والأمل في المستقبل موجود، وأن عليهم العمل بجد أكثر؟

كان اليوم الأول من الشهر السابع في التقويم القمري عام 2011 يوماً خاصاً؛ لأنه كان عيد ميلاد ياو ووي؛ تنكرت عندما جئت في الماضي مع تيار الفلاحين للعمل في المدينة، واقتضت 50 يواناً من الأصدقاء والأقارب لبدء حياتي ولأعيش شريداً خارج بلدي؛ عشت في بكين 16 عاماً، وكثيراً ما كنت أرى الآخرين يشعلون الشموع ويرددون أغاني التهنية بعيد الميلاد ويحضرون كعكة عيد الميلاد أثناء احتفالهم به، وشعر قلبي بالخلج الشديد؛ لأنني لم أقم لأولادي احتفالاً مثل هذه الاحتفالات؛ نحن نحيا حياة مضطربة، ونعاني ضيقاً مالياً شديداً، وفي أعياد الميلاد لا تستطيع أفراد عائلتي سوى النظر إلى النجوم في السماء؛ ومع ذلك لم يَشْكُ أحد من أطفالنا الثلاثة قط؛ بل بالعكس يتفوقون ويحققون إنجازات جيدة الواحد تلو الآخر، كما أنهم أذكاء وماهرون، كل هذا أراه بعيني، وقلبي يتألم بسببه في كثير من الأحيان؛ أردت من خلال الكتابة تسجيل بعض المسارات والأفكار والمشاعر خلال مرحلة نمو الأطفال، حتى يراها كل أطفال العمال؛ أريد أن أقول لهم: استطاع أبناي فعل ذلك، وأنتم أيضاً تستطيعون».

في رأس السنة الصينية لعام 2011، كان يوم الاحتفال بعملتي بالخارج، وكذلك الذكرى السنوية العاشرة لانتحاق ياو ووي بمدرسة الووشو؛ فكان يوماً تتوالى فيه الأحداث السعيدة، طلبت من والدتي ياو ووي إعداد طبقين من الطعام المقلي وبعض النبيذ في المنزل؛ كنت في السابق في ليلة رأس السنة، عادة ما أنتهي من العمل وأجمع الكشك وأعود إلى المنزل بعد الساعة الثالثة صباحاً؛ ولكن في ذلك العام كان له معنى مختلف؛ لذلك عدت إلى المنزل في وقت مبكر؛ ركبت العربة ثلاثية

العجلات وذهبت من سوق الخضراوات قوانغان تيانتاو إلى جانب الطريق الدائري الثالث الغربي، واستغرق الطريق 40 دقيقة؛ كانت الدموع تترقرق في عيني، ربما كان يراني الناس غريباً جداً، ويقولون: «كيف يبكي هذا الرجل في ليلة رأس السنة الجديدة؟».

مرت 10 سنوات على التحاق ياو وويي بمدرسة الووشو؛ على الرغم من أنني أقول لأصدقائي الآن: إننا نشعر بالرضا التام. فقد حصل ابني على 14 ميدالية بجهوده، فضلاً عن بعض الجوائز والشهادات الفخرية، ولكنني أعلم أنها لا يجب أن تصبح رأس مال نتباهي به، ولا يمكن أن تكون أداة للتباهي أمام الآخرين؛ أعلم أن ياو وويي يحتاج إلى الوقوف على أرض صلبة، والمضي قدماً خطوة بخطوة، فقط بهذه الطريقة يستطيع التقدم أكثر على المدى الطويل.

يا بني، علينا أن نجتهد أكثر

إن الاهتمام الذي كانت توليه المدرسة لتعليم الابن وكذلك الأشخاص ذوي النوايا الحسنة في المجتمع، منذ طفولة الابن حتى اليوم، خلال مرحلة نموه، محفور دائماً في ذاكرة عائلتنا، من دون تعليم المدرسة لما كان هنا هذا الطفل اليوم، لا أستطيع أن أنسى ذلك، ومن وقت لآخر أذكر ابني بأن يكون شاكراً للمدرسة.

في السنوات العشر التي تدرب ابني خلالها فنون الدفاع عن النفس، لا يزال الطريق الذي قطعه محفوراً في ذاكرتي، السير على الأقدام من معبد واننشوان حتى ليولي تشياو، ومن محطة حافلات فانغشان حتى مدرسة الووشو؛ منذ بداية شهر ديسمبر عام 2009، بدأ يستقل ياو وويي المترو من هوي لونغقوان إلى مدرسة الووشو، ولم يركب من قبل الدراجة النارية التي كانت تُستأجر بثلاثة يوانات في السابق؛ بل كان يفضل دائماً المشي.

إن الطرق التي استخدمتها لتعليم أبنائي هي طرق قديمة، كما اتبعت بعض الأفكار القديمة، فأنا شخص قادم من الريف لا أعرف ما المفاهيم التعليمية المتقدمة، قد يقول بعضهم: إن المستوى التعليمي لدي متخلف جداً، ولكن كل قرار أتخذه هو لجعل حياة ابني أفضل؛ هذا هو أمل والديين في أبنائهم، وأنا الآن أغتنم هذه الفرصة، لعرض الطريق الذي قطعه ياو وويي شيئاً فشيئاً أمام الجميع، وأشكر أولئك الذين ساعدوه في دراسته وحياته، وكذلك تحفيزه لخلق مستقبل مشرق، فمن خلال بذل الجهود والعمل الشاق نُشرت الأفلام والكونغ فو الصيني في العالم كله.

أبذل قصارى جهدي لتربية أبنائي، على الرغم من أن هواية ياو وويي هي تعلم فنون الدفاع عن النفس؛ فإنه لا يهمل تلقي المعرفة الثقافية، أعتقد أن تلقي الدروس الثقافية ودروس الووشو معاً يمكن أن يحدث فرقاً حقاً ويحقق نتائج كبيرة؛ خلال السنوات العشر التي تعلم ياو وويي فيها فنون الدفاع عن النفس في مدرسة الووشو، لم أطلب منه أي طلب، ما دام أنه يجتهد في دراسته بالمدرسة ويعمل بجد، فأنا راض جداً. خلال العطلات قلت له مرات عديدة: «لا يهتم في أي وقت، أهم شيء أن تكون إنساناً، يجب أن تتعلم أولاً احترام الآخرين وشكرهم، وبغض النظر عن كيف سيكون تقدمك في المستقبل، تذكر دائماً أن تكون إنساناً قوياً، وأن الإنسان يجب أن يكون شاكراً للآخرين حتى يستطيع المضي إلى أبعد من ذلك».

حاز ياو وويي في مدرسة الووشو احترام الآخرين واهتمامهم بسبب جهوده التي بذلها؛ ما دام أن الطفل يفهم الأشياء ويبذل جهده، حتى لو أنفقت المزيد من الجهد والمال فهو يستحق ذلك، من أجل أن يحصل الابن على تنمية وتقدم أفضل، أنفقت كل الأموال التي وفرتها من أجله، فقط ليحصل على المزيد من فرص التنمية؛ يجب على كل الآباء والأمهات أن يبذلوا قصارى جهدهم لدعم أطفالهم، ما دام أن أطفالهم يحققون إنجازات، وحتى لو عانوا التعب والشقاء أكثر، عندما يرون أبناءهم يحققون الإنجازات، ستشعر قلوبهم بالسعادة.

في أوائل شهر أغسطس عام 2011، أخبرنا مدير قسم السينما والتلفزيون بمدرسة شاولين للوشو ببيكين المدير قوه أن مراسل من شبكة ريادة الأعمال العالمية يريد القدوم إلى منزلنا لإجراء مقابلة صحفية، هذا الخبر جعل جميع أفراد الأسرة سعداء بما نالوا من شرف، ركض ابني نحو المنزل وهمس إليّ قائلاً: «يا أبي، عليك ألا تتباهى بنفسك دائماً وتكون متواضعاً، ليس بالضرورة أن كل من تراه تلقي عليه التحية، سواء كنت تعرفه أو لا تعرفه، وإلا سيظن الناس أنك تعرض نفسك متباهياً». أعلم أن هذا عدم تباهي بنفسه بل هي سعادة، أريد فقط أن يشاركني الجميع هذا الخبر السار. منحتني وكالة أنباء أسوشيتد برس اسماً جيداً في المقال الذي كتبته بعنوان: «مذكرات أب عامل مهاجر يعمل في بكين». بعد كتابة هذا المقال على الموقع، لقي صدى عند الكثير من الناس، فكنت سعيداً جداً لتقهم الكثير منهم شعور الأب. ظهرت «قصة حقيقية

تحفيزية لطفل عادي بعد الـ 90 على العديد من المواقع مثل سينا وبايدو وشبكة الكونغ فو، ومجلة «الكونغ فو» وشبكة ريادة الأعمال العالمية وغيرها من المواقع، فتولد لديّ شعور بتحقيق إنجاز، وآمل أن يلقي هذا المقال اهتمام المزيد من القراء، كما أتمنى أن يهتم الكثير من الناس بحياة الفقر التي نعيشها، أردت أن أقول للجميع من خلال هذا المقال: على الرغم من فقر عائلتي، فإنه قد يكون المرء فقيراً ولكنه لا يتوقف عن الطموح، فمن خلال بذل الجهود نستطيع السعي نحو المثالية وتحقيق الحلم.

كان نسيم الربيع في بكين دافئاً، في يومي 8 و16 من أبريل عام 2011، جاء إلى منزلنا مراسل وكالة أنباء أسوشيتد برس ومراسل وكالة أمريكا الجنوبية لإجراء مقابلة صحفية؛ بعد انتهاء هاتين المقابلتين، حذرت أبنائي قائلاً: «إن الإنجازات الحالية لا تمثل المستقبل، يجب أن تكونوا دائماً متواضعين وحذرين، ولا تتكبروا حتى تستطيعوا تحقيق التنمية على المدى الطويل». اتصل بي المراسل المحلي 4 مرات، عندما جاء إلى بيتي لإجراء مقابلة، اشتريت لأول مرة بعض المواد الغذائية مثل مياه نونغفوشان تشوان وغيرها لاستقبالهم، منذ طفولتي حتى الآن لم أكل مصاصة التلح، وكنت أردي ملابس مُرقعة، حتى أوفر يوانين، ولم أشتُر زوجاً من الأحذية القماشية الصفراء بسعر 12 يواناً؛ بل اشتريت في النهاية زوجاً من الأحذية الصغيرة بسعر خاص.

الكثير من الناس لا يفهمون عائلتي، خلال فترة دراسة الطفل، كان يمزح بعض الناس في البلدة قائلين: «هذه العائلة تريد أن يكون بها بطل». كل الصعوبات التي واجهتها جعلتني في حالة يرثى لها؛ ولكن يمكنني التضحية بكل شيء من أجل مستقبل طفلي، في الوقت الذي يبني فيه من هم في عمري نفسه بالبلدة منازل صغيرة، وعند خروجهم يستقلون سيارات أجرة؛ لم يمتلئ قلبي بالحسد والغيرة بسبب هذه الأشياء، ودائماً ما أتمسك بالمضي في طريقي الخاص؛ على الرغم من أن الطريق الذي قطعته كان مليئاً بالأشواك، فإنني أؤمن أنه بمواصلة المضي في طريقي، سوف أرى فجر الأمل.

الفصل الثامن: السعادة حينما نذرف الدموع ونعرق ونمنح الحب

إن حدة السيف هي نتيجة لشحذه، وعطر زهرة البرقوق يفوح بسبب البرد القارس»، فالإنجازات لا تُحقَّق إلا بتحمل « المشاق والصعوبات، ولا أحد ينجح عرضاً، ووراء النجاح نواجه مرارة وصعوبات غير معروفة، ولكن إذا كانت هذه المرارة كتوابل الحياة، لن تشعر بأنها مرارة؛ بل ستشعر بفرحة النجاح القادم.

الصعوبات وراء النجاح

يحلّم الناس بتحقيق النجاح، لذلك يكون العمل الشاق أمرًا لا مفر منه، أو من دائماً أن «الله عادل جداً، والنتيجة تكون بقدر الجهد الذي تبذله».

في صيف عام 2010، كان قد مرت 9 سنوات على تدريب ياو وويي على فنون الدفاع عن النفس، وانتقل هذا العام من المدرسة الإعدادية إلى المدرسة الثانوية؛ أعلم أنها مرحلة مهمة لنمو الابن وتربيته، وأنه لا بد أن يتلقّى تعليمًا جيدًا؛ ولكنني ولدت في أسرة فقيرة في الريف، وانقطعت في سن مبكرة عن الدراسة لمساعدة أسرتي في القيام بالأعمال الزراعية؛ لذلك كان من الصعب الاعتماد على هذا المستوى الثقافي في تعليمه؛ ولكن أستطيع تعليمه كيف يكون إنسانًا قويًا.

بعد إصدار مجلة «الكونغ فو العالمية»، أهداني مدير قسم السينما والتلفزيون لي تشيان عدة نسخ، رأيت مقدمة موجزة عن الكثير من مشاهير فنون الدفاع عن النفس في المجلة، ولدوا معظمهم فقراء؛ ولكن الجهود التي بذلوها أمس جعلتهم يحققون إنجازات اليوم، استخدمت تجربتهم لتعليم ياو وويي، وقلت له: «إن نجاح كل شخص لا يكون من قبيل الصدفة، وإن وراء هذا النجاح دموعًا وعرقًا لا يعلم بها الآخرون، تمامًا مثل هؤلاء المشاهير بالمجلة، كانوا يمارسون الكونغ فو كل يوم، ويحرسون تقدمًا عامًا تلو الآخر». وقبل أن أنهى كلامي، تلقى ياو وويي الكلام ثم قال: «أعلم ذلك، فكسب الشهرة والمال واحترم الناس وحبهم لا يكون سوى بتحمل المصاعب والمشاق، لقد علمتني هذه المفاهيم والمبادئ عدة مرات، وأحفظها كلها». في هذه اللحظة قلت له بجديّة: «وويي، أن تكون إنسانًا قويًا ليس موضوعًا بورقة امتحان، وأن تحصل على الدرجة عندما تكون إجابتك صحيحة، هذه ليست مجرد كلمات، وينبغي تذكرها جيدًا وإثباتها بالعمل». فhez ياو وويي رأسه تعبيرًا عن الموافقة والطاعة.

خلال الفترة الحاسمة التي انتقل فيها ياو وويي من المرحلة الإعدادية إلى الثانوية، ربما كانت هناك بعض التغيرات الصغيرة من الناحية النفسية، علاوة على أنه كان يتعلم رياضة الووشو، في بعض الأحيان كنت أخشى أن يثير المشاكل؛ ولكن أخبرني ياو وويي بأفعاله أن قلقي كان أكثر من اللازم، فما زال يجتهد في دراسته، ولقي ثناء كبيرًا من المعلمين والمدرسين في المدرسة، وعندما يكون بالمنزل يلقي ثناء من الجيران، لا أعلم كيف كان ياو وويي مجدًا في دراسته بالمدرسة؛ ولكن عند وجوده في المنزل خلال العطلات، كنت أرى بعيني اجتهاده وعمله الجاد.

منذ أول يوم بدأ ياو وويي تعلم الووشو، وكان يتدرب كل عطلة شتاء وصيف؛ العطلة في الأصل للراحة؛ ولكنه كان يستغلها في التدريب كل يوم؛ تحب زوجتي ابننا جدًّا؛ لذلك نصحته قائلة: "أنتم تدرسون كل يوم في المدرسة، أما العطلة فهي للراحة والاسترخاء، كيف تتدرب كل يوم الكونغ فو خلال العطلة؟ عليك أن تستريح". اعتقد ياو وويي أن والدته تدلّله، فقال جملة غير متوقعة: "الأباء يحبون أبناءهم، ولا ينظرون إلى المكاسب والخسائر الفورية فحسب؛ بل يضعون لهم خططًا طويلة الأجل". في ذلك الوقت كنت سعيدًا؛ ولكن لم تفهم زوجتي ما قاله الابن، فشرحت لها: "قال الابن إذا كان والداه يحبانها، عليهما أن يخططا له على المدى الطويل، وألا ينظرا فقط إلى الوقت الحاضر". ولكن فكرت أيضًا في كلام زوجتي ووجدته صحيحًا، وأن العطلة للراحة، وإلا سيتعب الابن من التدريب الشاق يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام؛ لذلك قررنا بالإجماع الراحة أسبوعًا خلال العطلتين الشتوية والصيفية كل عام، ولكن أي أسبوع بالتحديد، في العطلة الشتوية يكون بداية من يوم رأس السنة الجديدة أو نحو ذلك، وخلال الأيام الأكثر حرارة في العطلة الصيفية.

في الواقع نحن نطلب من ابننا الراحة بعض الوقت؛ ولكن بلا فائدة؛ لأن الابن لا يزال يتدرب الكونغ فو سرًّا، فهو يعتقد دائماً أنه لن يتوقف عن ممارسة الكونغ فو يومًا، وإلا سوف يلحقه الآخرون ويتفوقون عليه، لقد أشاد الجيران جميعًا باجتهاد

الابن في التدريب، فقال بعضهم: يستطيع ابنكم تحمل العمل الشاق، وسيحقق إنجازات جيدة وينعم بمستقبل باهر بكل تأكيد. وبعضهم الآخر قال: ابن بائع الزنجبيل قادر على تحقيق المجد والتقدم، وظهر على شاشات التلفزيون عدة مرات، انظروا إلى كل الجوائز والميداليات التي حصل عليها بتلك الغرفة. وقال أحدهم: يستحق هذا الشخص

المجتهد المجدّ الحصول على الميداليات، انظروا إليه كيف يصبر على ممارسة الكونغ فو في الأيام الحارة صيفاً، وفي الشتاء لا أخرج يدي من جيبتي؛ بسبب برودة الطقس، بينما يستيقظ هذا الطفل في وقت مبكر للتدريب. بعد الاستماع إلى تعليقات الجيران، كنت سعيداً جداً، وفخوراً لأن لي ابناً مثله يستطيع تحقيق المجد والإنجازات.

كانت الأيام الأخيرة في شهر يوليو عام 2010، هي الأكثر حرارة في صيف بكين، وبلغت درجة الحرارة حوالي 33 درجة؛ في ظل هذا الطقس، لا يزال ياو وويي يصيح ويطلب المساعدة لنقل السجادة إلى المكان المفتوح بالشرق ليتدرب على الووشو؛ ولم تُجد محاولة صده عن ذلك، فاضطرت إلى وضع السجادة على العربة ثلاثية العجلات، ومساعدته في سحبها ومرافقته في التدريب؛ في كل مرة أذهب معه إلى التدريب، وأرى ذلك الزميل القروي الذي يحب رش الماء البارد على الآخرين، أخفي السجادة؛ لأنني لا أريده أن يرى ابني وهو يتدرب، ولا أريد أن يسمع الابن الكلام الذي يقوله ذلك الرجل عندما يرش الماء البارد؛ حتى عندما أقابله صدفة، أقول له: إننا نذهب إلى الناحية الشرقية لوضع السجادة في الشمس، وعندما رأني ياو وويي أتحدث إليه، كان في غاية الأدب والاحترام، ثم سألتني: "أليس هو أكثر من يحب الإساءة إلى عائلتنا؟". في ذلك الوقت كان قلبي حزيناً جداً، كيف للطفل أن يقول مثل هذا الكلام؟ لا أريد أن يمتلك قلب ابني بالكرهية؛ لأنه بهذه الطريقة سوف يتعب في حياته جداً؛ لذلك سرعان ما قلت له: "وويي، هو لم يُسئ إلينا؛ ولكنه علمنا أن نكون أقوياء، ويجب علينا شكره، وما يُسمى بـ "الإساءة"، في هذا المجتمع لا أحد يظلم أو يسيء إلى أحد؛ ولكن فقط تختلف وجهات النظر في المواقف المختلفة؛ لا تفكر بهذه الطريقة بعد ذلك، اتفقنا؟ استمع الابن إلى كلامي وهز رأسه بالموافقة.

في الواقع، عندما جئت لأول مرة إلى بكين، تعرضنا بالفعل للسخرية والضرب من الآخرين، إلا أن كل هذا قد مر بالفعل؛ ولكن بسببهم أصبحنا أقوى، كما أصبحت الحياة الآن أفضل؛ لذلك أنا لا أريد أن يتذكر ابني تلك الأشياء غير السعيدة، حتى يحيا حياة أكثر سعادة.

إذا عانيت الفقر مرة أخرى لن يكون فقر التعليم

كما نعلم جميعاً أن الصين منذ أكثر من عشر سنوات بدأت في الدعوة إلى «تطوير الدولة من خلال العلم والتعليم»، ورفعت شعار: «إذا عانيت الفقر مرة أخرى لن يكون فقر التعليم، وإذا عانيت الشقاء لن يعانيه أبنائي». أصبحت هذه الجملة الحكمة التي أعتد عليها في تعليم الأبناء، كما أنها مناسبة جداً لأسرتنا الفقيرة؛ لأنه بالتعليم فقط نستطيع التخلص من الفقر تماماً.

في تلك الأيام التي قارب فيها صيف عام 2010 على الانتهاء، قال لي ياو وويي: «أبي، هل يمكن أن أطلب منك طلباً؟ وإذا وافقت فسوف أندرب أمامك كل ما تعلمته 10 مرات». فكرت ماذا يريد الطفل مني؟ وسألته عن طلبه، فقال لي بكل جدية: «بعد بداية الدراسة هذا العام، أريد أن أنتقل إلى فصل المدرب لي يان؛ لأنني أندرب مع الأطفال كل يوم، ولا أشعر بأي تحسن على الإطلاق، فضلاً عن أن العروض بهذا الفصل كثيرة جداً الآن، وهذا سيجعلني أتأخر كثيراً في الدروس الثقافية». فكرت في أن العروض الكثيرة التي شارك فيها الطفل في الفصل الدراسي السابق أدت إلى انخفاض درجاته في الرياضيات كثيراً؛ لذلك وافقت على طلبه.

في غرة سبتمبر عام 2010، التحق ياو وويي رسمياً بفصل المدرب لي يان، بعد أسبوع واحد من التحاق ياو وويي بالفصل، كان يتدرب على يد المدرب لي يان، وسرعان ما أصبح ياو وويي «نموذجاً جيداً» في الفصل كله بسبب اجتهاده، ومع ذلك لم يفخر قط بذلك، ولا يزال يسأل الطلاب النصيحة؛ بعدما التحق ياو وويي بفصل الأطفال الكبار، تحسنت نتائجه في الدروس الثقافية بشكل ملحوظ؛ ولكنه لم يصل إلى الترتيب الأول، وهذا ما جعله يشعر بخيبة الأمل؛ أخبرته: «أنت بهذه الطريقة تجتاز الصف، ومتوسط النتيجة التي حققتها بهذا الصف جيدة جداً، فلا تقتر همتك وواصل الاجتهاد، الذهب يتألق دائماً، ولا تزال هناك فرصة للحصول على الترتيب الأول بعد ذلك». بعد اجتياز ياو وويي الصف، لم تكن درجاته في الدروس الثقافية جيدة؛ ولكن نتائجه في تدريب الووشو لا تزال واضحة للجميع. في 12 من فبراير عام 2012، كان هو الأول في عرض الأسواط التسعة بفقرة برنامج «ضوء الألوان السبعة» بقناة الأطفال كاكو بمحطة تلفزيون بكين؛ وبعد ظهر يوم 8 من أبريل شارك أيضاً في عرض سيف شاولين المزدوج وقلب الرأس ببرنامج «التنانين السبعة الصغار» على قناة الأطفال بتلفزيون الصين

المركزي، وفي 30 من أغسطس، شارك أيضًا بالعرض الافتتاحي ببرنامج «حفلة عيد الميلاد الكبيرة» بتلفزيون شنتشن، وفي الثاني من نوفمبر ظهر في عرض الووشو بمحطة تلفزيون بكين.

بشارك ياو ووي غالبًا في العروض، وأصبح مشهورًا قليلًا في أداء فنون الدفاع عن النفس، حتى بعدما انتقل من فصل إلى فصل آخر، دعتِه وسائل الإعلام للمشاركة في العروض، وكانت جميعها محطات تلفزيونية شهيرة من مناطق مختلفة، فكرت أن الطفل أصبح طالبًا في السنة الثانية، كما أنه أيضًا مثل شاب صغير، يحظى أحيانًا بفرص الظهور على شاشة التلفزيون؛ لذا قررت أن أشتري له بعض الملابس اللائقة، عندما يذهب الطفل إلى الخارج، أعطيه المزيد من المال؛ لأنني أعتقد دائمًا أن الآباء يعانون الشقاء ولكن لا يمكن أن يعانيه الأبناء، وإذا عانى الآباء الفقر مرة ثانية لن يكون فقر التعليم.

أنا شخص لا يجيد إدارة الشؤون المالية، وأعتقد دائمًا أن مهنة بيع الخضار يجب أن تكون كسب مقدار من المال وإنفاقه، وعادة ما يكون هناك توازن بين الإيرادات والنفقات في عام واحد، ونادرًا ما يتبقى مال، في عام 2010 لم يتبقى سوى القليل من المال، وأنفقتَه على شراء ملابس جديدة للطفل، يتعرض الناس لبعض الكوارث التي لا يمكن التنبؤ بها مقدمًا، وأحداث غير متوقعة، من يدري ماذا سيحدث العام المقبل؟ أشعر بالندم الشديد؛ بسبب عاداتي السيئة في عدم القدرة على ادخار المال؛ لأنني بسببها دفعت ثمنًا باهظًا.

في عام 2011، لم تكن تجارة الخضار مزدهرة جدًّا، في ظل هذه الظروف، كان الكشك هو مصدر توفير نفقات أسرة كاملة، وتوفير نفقات تعليم عدد من الأبناء يعتبر أمرًا مجهدًا، والأهم من ذلك هو دفع رسوم الكشك في الربع الثالث بسوق الخضار. كنت قلقًا جدًّا؛ ولكن القلق ثانية لن يجدي؛ ففي صباح يوم 18 من يوليو، جاء المحاسب إلى سوق الخضار ثلاث مرات، وقال: إنه لا يوجد في السوق سوانا لم يدفع الرسوم، وأنا يجب أن ندفعها بعد الظهر، وأن الشركة هناك تنتظر للتحقق من الحساب، ولكن لم يكن لدي مال فائض؛ فالأموال المتبقية في المنزل هي لدفع تكاليف سفر ابني إلى سان فرانسيسكو بأمريكا للمشاركة في المسابقة، وبالإضافة إلى ذلك يجب أن أعود إلى مسقط رأسي لاستخراج جواز سفر لابني، ودفع الرسوم المدرسية، وهذا المال سابقه لتكلفة تعليم ابني ولا يجب المساس به، إذا عانت أسرتنا الفقر فلن يعاني الأطفال فقر التعليم، وإلا سيعاني الأطفال مدى الحياة، بالتعليم فقط يمكننا تغيير مصير هذه الأسرة، إيماني بهذا الاعتقاد جعلني أطلب من محاسب السوق قائلًا: «من فضلك ساعدني، تجارتي الصغيرة لا تكسب أي أموال؛ وأسرتي في انتظار تناول الطعام، والطفل يجب أن يذهب إلى المدرسة، ساعدني على التوصل إلى الشركة، وأنا سأدفعها مع رسوم الربع القادم، هل هذا ممكنًا؟». ربما شعر المحاسب أن ظروف عائلتنا عسيرة، فلم يحرمني وغادر المكان.

لا يزال في العالم الكثير من الأشخاص الطيبين، لحسن الحظ جاء المحاسب وتغير بشخص آخر، ربما لا أدفع الرسوم اليوم، ويتم إخراجي من السوق غدًا، لم تكن التجارة مزدهرة، وكنت آتي كل يوم في وقت مبكر جدًّا، وأحيانًا لا يكون هناك أحد في وقت الظهيرة ولا أجمع الكشك؛ لأنني أريد كسب المزيد من المال، وإلا ماذا سأفعل في المرة القادمة عند دفع رسوم الكشك؟ ولكن كيف سأعمل من الفجر إلى الليل، ولا أكسب أي مال؛ لذلك في نهاية العام، لم يتبق من المال سوى القليل جدًّا، بعدما دفعت رسوم الكشك مرتين. خلال عيد الربيع هذا العام، لم تشتت أسرتنا سوى كيلو جرام من اللحم، وفي يوم رأس السنة الجديدة تناولنا الزلابية؛ وبذلك نكون قد قضينا العيد، ومع ذلك لم نخفل عن أنفسنا؛ بسبب هذا الفقر؛ لأنني أعرف أن الفقر المادي ليس مخيفًا؛ ولكن المخيف هو الفقر العقلي، أريد أن أكون مثلاً يُحتذى به، ليتعلم الأطفال أن يتخذوا من الفقر نقطة انطلاق نحو النجاح.

العالم لا يزال به الكثير من الأشخاص الطيبين

ذات يوم، عندما عاد ياو ووي إلى المنزل لقضاء العطلة سألني: «أبي، نريد أن نكتب مقالًا، وعنوان المقال هو «أشكر كل من ساعدك». على الرغم من أن الكثير من الناس ساعدونا؛ فإن الذين قاموا بأذيتنا هم الأكثر». في هذه اللحظة صحت كلام ياو ووي بسرعة قائلًا: «هذا لا يسمى أذى؛ بل تجربة في الحياة، وهناك الكثير من الناس الذي ساعدونا، ولا بد أن نشكرهم».

في عام 2011، شهدت الأسعار في الصين ارتفاعًا سريعًا، وهذا جعلني كبائع خضار قلقًا على الحياة كل يوم، أول شيء كنت أفكر به عندما أفتح عيني كل صباح هو: كم سأنفق اليوم؟ هل يوجد في المنزل الكثير من المال الآن؟ لذلك، كنت أستيقظ أنا وأخي بعد الساعة الرابعة صباحًا كل يوم، ثم نبدأ في السعي من أجل لقمة العيش.

بعد سنوات عديدة في بكين، لم تذهب عائلتنا إلى المطعم قط، حتى عندما علمت أن ياو وويي فاز بالجائزة الكبرى، واختير لتصوير فيلم وغيره من الأخبار السارة، لم نذهب إلى المطعم لتناول الطعام، وأكثر شيء فعلته هو شراء نصف كيلو جرام من اللحم، وطهو المزيد من الأطباق، ويحتفل أفراد العائلة معاً في المنزل، بعد ظهر كل يوم بعد أن أجمع الكشك أنا وأخي، نشترى 450 جراماً من الشعيرية، هذا النوع كان سعره يواً ونصفاً؛ ولكن ارتفع سعره هذا العام إلى 1.8 يوانات، ونعود إلى المنزل لسلق الشعيرية، وعند إخراجها من الوعاء نضيف قليلاً من المخلل، هذا هو غدائي أنا وأخي. نأكل وعائين كبيرين حتى نشبع، هذه الوجبة تكلفنا يوانين. هكذا عاشت عائلتنا في بكين، على الرغم من فقرنا، فإننا كنا نشعر بالرضا؛ لأننا نعيش كل يوم بجد، واكتشفنا أن الحياة بها العديد من الأشياء الجميلة، والكثير من أصحاب القلوب الطيبة.

خلال هذه السنوات الأخيرة في بكين، كانت تحيا عائلتنا بفضل رعاية مالك السكن ومساعدته، فكان يرسل إلينا الكثير من المستلزمات الدراسية التي يحتاجها الأبناء، كما أن الملابس التي نرتديها معظمها ملابس قديمة أحضرها لنا من منزله؛ ولكنها تبدو جديدة جداً، ومناسبة جداً لنرتديها؛ وحتى الآن، الحزام الذي أرتديه أهداه إليّ صهر مالك السكن، و90% من الملابس التي أرتديها أنا وأخي أهداها إلينا المالك، وعندما كانت الأيام صعبة والحال غير ميسور، كان يعطينا من دفع إيجار السكن لمدة شهر، وفي أشد الأوقات فقراً، لا يزال بوسعنا المثابرة في بكين، وهذا أمر لا ينفصل عن اهتمام ورعاية عائلة المالك لنا، أود أن أشكر أيضاً مدير السوق هوي جينغ شونغ على دعمه ورعايته خلال هذه السنوات، فمن دونه لما كان هناك ياو نشي تشونغ الموجود اليوم.

كما أود أن أشكر الأخت طيبة القلب، التي كثيراً ما كانت تأتي لشراء الخضار، ذات عطلة شتاء، رافقني ياو وويي لبيع الخضار، فنظرت هذه الأخت الطيبة إلى يد ياو وويي ثم قالت: "يداك تتجمد من البرد، لماذا لا ترتدي قفازات؟" فرد ياو وويي بذكاء قائلاً: "ليس لدي قفازات؛ لأنها غالية جداً، وسعر زوج من القفازات يعادل المال الذي يكسبه أبي من بيع عشرات الزنجبيل، ويداي المتجمدتان ستكون بحالة جيدة في الربيع المقبل، فلا حاجة إلى ارتداء قفازات". أخذت الأخت قفازاتها بسرعة وأعطتها الطفل ليرتديها، ثم قالت: "ستتجمد يدك، ولن تتمكن من إمساك القلم، ولن تستطيع الكتابة، كيف يمكنك القيام بواجباتك المنزلية في العطلة الشتوية؟". شكرها ابني، وساعدها على إرسال الخضار إلى المنزل، وتجمدت يداها أثناء حملها للخضار؛ لأنها أعطته قفازاتها، وبعد ذلك كانت ترسل الأخت إلينا كريم اليد كل عام، ونقول: إنها تستخدم هذا الكريم دائماً حتى لا تتجمد يداها. بالإضافة إلى ذلك أحب أن أوجه شكرًا خاصًا للمعلمين والمدرسين الذين علموا ياو وويي.

في 27 من مايو عام 2011، كان يوم عودة ياو وويي إلى المنزل لقضاء العطلة الشهرية، بعد بيع الخضار في الصباح جمعت الخضار، وفي طريق عودتي إلى المنزل اشتريت أوراق مثلثات الأرز «زونغ زي»، وحوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، كانت زوجتي مشغولة بلف مثلثات الأرز، استغللت وقت فراغي في كتابة بعض المذكرات، في ذلك الوقت سمعت صوت عجلة سيارة في الزقاق، كان الصوت يقترب أكثر فأكثر، وبدأت أنها قادمة نحو منزلنا، وعندما ذهبت لرؤية الشخص القادم، سمعت ياو وويي ينادي بصوت عالٍ: «أبي، أمي، أنا عدت». فخرجت لأراه، وأصابتي صدمة عندما شاهدت ما يرتديه ابني، ويسحب معه حقيبة بها عجلات متحركة، فسألته: «من أين جئت بهذه الأشياء؟».

قال ياو وويي: «أهداني المدرب لي يان كل هذه الأشياء، وكذلك العديد من الملابس والأحذية الجديدة بداخل الحقيبة ذات علامات تجارية شهيرة مثل لي نينغ ونايك وأديداس». فسألته بغضب: «كل هذه الماركات التجارية غالية جداً! أهداك المدرب لي يان هذه الأشياء الغالية، وأنت جرؤت على أخذها، هل نسيت ما قاله لك والدك؟». فأسرع الابن لتوضيح الأمر قائلاً: «يا أبي، أنا لا أسعى وراء الأشياء الرخيصة، فالمدرب لي يان لم يشتر هذه الأشياء؛ بل أهداها لنا الراعي عندما كنا في جولة بأمريكا، وأعطونا الكثير والكثير، وأخذ كل طالب مثل هذه الأشياء، وعند العودة شعر الطلاب الآخرون أن هذه الأشياء ثقيلة جداً، فلم يرغبوا في أخذها؛ لذلك قال المدرب لي يان: «أنت لا تشكو من ثقلها، خذها كلها إلى المنزل».

عندما نتلقى المساعدة من الأشخاص المتحمسين، يشعر القلب بالامتنان الشديد، ونستشعر جمال المجتمع. وفي هذه اللحظة نشعر أيضاً بالسعادة؛ لذلك، فإن المعاناة تجعلك تشعر بسعادة مختلفة.

مقابلة مع صحفي من وكالة أنباء أسوشيتد برس

أخيراً أبنائي تجربتي البائسة، حتى يجتهدوا في دراستهم؛ لأن المعرفة يمكن أن تغير مصيرنا، كما كتبت تجربة ياو ووي في تعلم الووشو؛ لتشجيع جيل ما بعد التسعينيات الذين يشكون من الحياة، في الواقع، هذا العالم مليء بالجمال، والمهم هو أن تنظر إلى جوهر الأشياء.

في صباح يوم 8 من أبريل عام 2011، بينما كنت أبيع الزنجبيل في سوق الخضار، أكتب «مذكرات أب عامل مهاجر يعمل في بكين»، في هذا الوقت جاء صحفي من وكالة أنباء أسوشيتد برس وسألني: «ماذا تكتب، كيف تستطيع الكتابة في هذه البيئة المحاطة بأكشاك الخضار؟». فقلت له بجديّة: «أكتب مذكرات، وكتبت بالفعل 200 ألف رمز». عندما سمع الصحفي هذا أشاد بي كثيراً، في ذلك الوقت قال: إنه يريد الاتصال بي بعد ذلك، وعندما سيكون لديه وقت سيأتي لإجراء مقابلة صحفية معي، وبعد ذلك علمت أنه الصحفي هو تشون مينغ الذي يعمل في وكالة أنباء أسوشيتد برس.

في 16 من أبريل عام 2011، جاء الصحفي هو تشون مينغ ورفقته بعض العاملين في وكالة أنباء أسوشيتد برس إلى بيتنا المُستأجر؛ لإجراء مقابلة خاصة معي، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يأتي فيها صحفي من وكالة أنباء أسوشيتد برس إلى منزلنا؛ في المقابلة الأولى جاءوا من أجل ابني ياو ووي، ولم أتوقع أنهم يأتون لمقابلتي أنا الذي لم أكن بارعاً في الحديث، وأذهلني ما نلته من شرف، وفي الوقت نفسه كنت متوتراً للغاية.

في ذلك الوقت سألتني الصحفي: «مع ازدهار الصين الجديدة يوماً بعد يوم، هل شهدت الأجيال المتعاقبة في عائلتك أي تغييرات؟ عندما سمعته أخذت أفكر كيف يسألني الصحفيون الأجانب عن تاريخ عائلتي؛ ولكن بما أنهم سألوني هذا السؤال، اضطررت إلى قول الحقيقة: «إن عائلتي فقيرة جداً، بالنسبة إلى جيل الأجداد كان عدم تناول الطعام أمراً شائعاً، بينما كان جيل أبي وأمي يأكلون القدر الكبير؛ لذلك لا يوجد فقير وصل إلى حالة الفقر إلى وجود طعام؛ ولكن عندما كنت صغيراً، كانت عائلتي لا تزال فقيرة جداً، وغالباً ما تعتمد على المعونات لكي تحيا. في ذلك الوقت، دعت الدولة إلى «التخفيف من وطأة الفقر المعرفي»، والسماح للأطفال بالذهاب إلى المدرسة لتلقي المعرفة والثقافة، وعلى الرغم من فقر والداي، فإنهما لم يؤخرا تعليمي؛ لذلك أرسلوني إلى المدرسة عدة سنوات، وبعد ذلك لم تملك الأسرة مالاً لإرسالني إلى المدرسة، فتركت المدرسة لمساعدة عائلتي في الأعمال الزراعية، ثم كبرت وتزوجت وبعد أن أنجبت زوجتي، أدركت مدى صعوبة أن أحمل على عاتقي مسؤولية أسرة، ومن أجل أن تحيا عائلتي حياة أفضل، والتخلص من فقر الجيل السابق، جنّت إلى بكين مع عائلتي لنحيا حياتنا الحالية، على الرغم من صعوبة الحياة ومرارتها، فإنني أصرت على أن يتلقى أولادي تعليمًا جيداً، وأؤمن أن الجيل القادم لعائلة ياو لن يعاني الشقاء والفقر».

بعد ذلك سألتني الصحفي قائلاً: «جنّت إلى بكين منذ سنوات عديدة، هل شهدت عائلتك أي تغيير؟». عندما سمعت هذا السؤال، كان قلبي متحمساً جداً للرد، وقلت بكل سعادة: «بعد المجيء إلى بكين، كان أكبر تغيير شهدته عائلتنا هو إنجازات أولادي، وخاصة ابني الثاني ياو ووي، عندما جنّت إلى بكين لأول مرة، كان يسعى ياو ووي وينقل بين مدرستين، وهو الآن في مدرسة واحدة تجمع بين دراسة الفنون الثقافية وممارسة فنون الدفاع عن النفس، ومع تقدم فنون الدفاع عن النفس وازدهارها لديه يوماً بعد يوم، حصل على المزيد والمزيد من الأوسمة، ولقي المزيد من الاهتمام، انظر إلى جدار الشهادات لتعرف».

بعدما استمع الصحفي إلى إجابتي، أثنى على ابني ثم سألني سؤالاً آخر: «لقد عانيت كثيراً، هل تحتاج إلى مساعدة حكومية؟». عندما أجبت عن هذا السؤال، كانت معنوياتي منخفضة، وقلت للصحفيين: «ربما تبدو حياتي صعبة جداً من وجهة نظركم، ولكنني أعتقد أنه طالما بإمكان أولادي الذهاب إلى المدرسة وتلقي العلم بجد واجتهاد، فنحن لا نعاني ضيق الحياة، لا أعتقد أن عائلتنا بحاجة إلى مساعدة حكومية، فالصين بها 1.3 مليار نسمة، ينبغي على الحكومة مساعدة الذين هم بحاجة إلى المساعدة أكثر من عائلتي؛ فهناك مجموعة من الأطفال في الشمال الغربي، يرتدون قطعة واحدة من الملابس على مدار العام، وفي الشتاء عندما تكون درجة الحرارة تحت الصفر، يرتدون فقط قطعتين من الملابس على الأكثر، ألا يشعرون بالبرد؟ لا، يشعرون بالبرد، ويكون وهم في طريقهم إلى المدرسة؛ بسبب البرد؛ وفي المنطقة الجبلية الجنوبية الغربية، هناك مجموعة من الأطفال يرتدون ملابس داخلية مرقعة طبقة بعد طبقة، وليس لديهم مال للالتحاق بالمدرسة وشراء الكتب؛ أشعر أنهم بحاجة إلى المساعدة أكثر منّا».

بعدما غادر الصحفيون، ظلت أحرق إلى الأرض الشاغرة في الجانب الشرقي، فكان هذا هو المكان الذي أُجريت فيه مقابلاتي، وفكرت مرة أخرى في السؤال الذي طرحه الصحفي، وسألت نفسي: لماذا جنّت إلى بكين؟ فأنا كعامل مهاجر يبيع

الخضار في بكين، لم يكن لدي أي طموحات طويلة المدى، فقط كنت أتمنى أن المال الذي أكسبه كل يوم يكفي لإطعام أفراد أسرتي ولتعليم أطفالي؛ لأن تلقي المعرفة كانت رغبته منذ الصغر.

المعرفة هي مفتاح باب النجاح

بغض النظر عما أفعله، فكل شيء أقوم به هو من أجل أبنائي، وأتمنى ألا يسلك أبنائي طريقي القديم، ولكني أحياناً ما أشعر بالقلق والخوف، وأخشى أن أعجز عن الدعم لفترة طويلة، وأن أعجز عن مساعدتهم يوماً، أعتقد أنه إذا عجزت يوماً عن فعل شيء من أجلهم، هذا ما يحزنني حقاً.

ترك مسقط رأسي منذ فترة طويلة، واشتقت إلى بلدتي التي دُفن فيها والداي وكذلك أجدادي؛ الذين ماتوا من الجوع، ومع تغيرات الحياة، ازداد اشتياقي إلى مسقط رأسي أكثر وأكثر، أريد العودة إلى الماضي، أريد أن أعود حقاً.

لم أعط أسرتي أي مبلغ كبير من المال، وكنت أوفر نفقات المنزل، وهذا وضعني في ظروف مالية صعبة؛ عند شراء بعض المستلزمات اليومية، دائماً ما كنت أقارن الأسعار عند الشراء، والمحل الذي كان يبيع السلع الأرخص كنت أشتري منه؛ لذلك أصبح سوبر ماركت اللوتس، وسوبر ماركت إيكه لونغ، وسوبر ماركت يونغ هوي بمنطقة تايبينغ تشياو بكين، أماكن تتردد عليها عائلتنا دائماً؛ لأن بها أشياء أرخص من الأماكن الأخرى، خاصة عندما تكون هناك خصومات.

بعض الناس الذين لا يعرفون الوضع الفعلي يقولون: "هذه العائلة تحيا حياة جيدة"، ومن يتقهم وضع أسرتي حقاً لا يقول مثل هذا الكلام؛ أنا دائماً ما أذهب لشراء بعض الطعام الرخيص، وأذهب إلى سوقي شرق هونغليان وغربها، وسوق الفجر بمنطقة خشي، لعدم امتلاكي المال، وغالباً ما أذهب إلى سوبر ماركت إيكه لونغ في الناحية الغربية؛ وذلك بسبب وجود مكتبة صغيرة هناك، وهي تجذب انتباهي وتركيزي الكامل نحو الماضي، وهناك بعض الكتب التي أحبها جداً؛ أنا دائماً ما أختصر الوقت المستخدم في الطريق؛ ولكن في كل مرة أمر من خلال باب سوبر ماركت إيكه لونغ، أبطئ خطواتي، وأذهب إلى الداخل للاطلاع على بعض الكتب، كنت أيضاً في كثير من الأحيان ألتقط بعض فواتير التسوق وعلب السجائر أو صناديق الحليب لأستخدمها مسودات للكتابة.

في كل مرة أذهب إلى المكتبة أقرأ الكتب حتى وقت متأخر جداً، ولا أخرج إلا عند إغلاقها، ولو سُئلت عن سبب حبي لقراءة الكتب، يجب أن أبدأ من نهاية عام 2007، في ذلك الوقت كانت هناك تصفيات للمبيعات في سوبر ماركت شوليان على طريق فنغتاي الشمالي، ووجدت هناك كتاباً بعنوان: «تربية الأبناء ليصبحوا ثروة». قلبت هذا الكتاب وقرأت بعضاً من محتواه، وقررت شراؤه، كان السعر الأصلي لهذا الكتاب هو 26.5 يواناً، وسعره بعد الخصم 19.5 يواناً، فاشتريته وأنا أعض على أسناني؛ أعلم جيداً أهمية المعرفة؛ لذلك على الرغم من حب ابني للوشو، فإنني حذرته مراراً وتكراراً ألا يميل الدروس الثقافية أثناء تعلم الووشو.

في عام 2010، حصلت من مدرسة الووشو على 230 تقويماً مكتيباً، في عام 2011، أخذت أكثر من 300 كتاب، وفي عام 2012، أخذت من مدرسة الووشو 6321 تقويماً مكتيباً لتوزيعها؛ خلال هذه السنوات الثلاث، في كل مرة يركب أخي العربة ثلاثية العجلات وينتظرني عند مدخل محطة مترو تاوران تينغ، ولم يشك لي قط، في الحقيقة أنا أعلم من قلبي أنه يتطلع إلى إنجازات جيدة يحققها ياو ووي، وبذلك لن يتعرض للإساءة والظلم من الآخرين، أعطيت كل من يمر في طريقي نسخة من التقويم المكتبي الذي أخذته من المدرسة، إن كل ما أقوم به هو من أجل أبنائي، وعلى الرغم من أنني أشعر كثيراً بالقلق والخوف، فإنني أخشى أن أعجز عن دعم أحلام أبنائي، أعرف أنه إذا ولد ياو ووي في أسرة غنية، لكان من السهل جداً تحقيق حلمه، كانت الأجيال كلها في عائلتنا مواطنين ريفيين صادقين، وتمنيت ألا يمضي أولادي في طريقي القديم نفسه، كما تمنيت أن يخلقوا مستقبلهم بأيديهم؛ لذا أردت الخروج بشكل فعلي، فالمعرفة مهمة، وأؤمن أنها مفتاح باب النجاح.

لتحقيق النجاح لا بد أولاً أن تكون شخصاً قوياً

كان أبنائي الثلاثة متميزين جداً، أعلم دائماً أنهم مجتهدون ويعملون بجد، أتمنى أن أكتب بعض الكلمات التي بداخلي باستخدام القلم والورقة؛ ليتذكروا دائماً أن كل شيء موجود اليوم جاء بصعوبة، ليقدروا الوقت اليوم؛ هذه بعض توقعاتي وآمالي تجاه أبنائي.

في 8 من يناير عام 2012، اعتمد ياو ووي على قوّته، وشارك في تصوير فيلم «البحث عن زوجة في مسابقة الووشو» بواسطة قسم السينما والتلفزيون في مدرسة الووشو؛ في هذا الفيلم عرض ياو ووي بشكل أساسي ملاكمة مخلب النسر؛ في ذلك الوقت كان ياو ووي في الصف الأول الثانوي؛ وهذه المرة استغرق وقت التصوير فصلاً دراسياً كاملاً؛ لذلك تأخرت محاضرات هذا الفصل الدراسي، أعتقد أن هذا ثمن كبير، لا أريد أن يكون ابني بارعاً، أتمنى فقط ألا يهمل الجوانب الأخرى عند ممارسته للوشو.

في صباح 26 من فبراير عام 2012، كان عيد ميلاد الصديق المفضل لياو ووي قوه جيان تشيانغ، ودُعِيَ ياو ووي للذهاب إلى منزله؛ وقد دُعِيَ إلى منزله عدة مرات، على الرغم من أنني رجل صادق جئت من الريف، فإنني أفهم أيضاً ضرورة أن نتذكر إحسان الآخرين لنا، على الرغم من فقر عائلتنا الآن، وأنا نعجز عن رد المعروف الذي يقدمه الآخرون لنا، فإنني أقول دائماً لياو ووي: «تذكر أولئك الذين يعاملوننا جيداً، وبعد ذلك عندما يكون لديك القدرة لا بد أن ترد إليهم الجميل».

خلال الفصل الدراسي 2011-2012، حقق ياو ووي نتائج جيدة نسبياً، واكتشفوا الموهوبين بين أكثر من 10 آلاف طالب في مدرسة شاولين للوشو ببيكين، وأطلق عليهم اسم: «الأعضاء المتميزون». أخذ الابن هذه الشهادة بسرعة وعاد إلى المنزل لنراها، وذات يوم في شهر فبراير عام 2012، قال ياو ووي بسعادة: «أبي، لا بد أن أعود إلى المدرسة اليوم مبكراً، فقد منحتني المدرسة لقب «نموذج جيد في اليوم التذكاري للتعلم من لي فنغ»، وعلى أن أعود إلى المدرسة في الساعة الواحدة ظهراً، في ذلك الوقت سأضع فوق كتفي الشريط وأتسلم الشهادة من المعلم». فكرت قليلاً، ونظرت إليه مرة أخرى، فانا لذي حقاً مثل هذا الابن المتميز، إذا كان جده على قيد الحياة، ورأى هذا المشهد، ألن يكون سعيداً جداً؟ وربما كان يقول: عائلة ياو أخرجت مثل هذه المواهب، حتى لو عانينا الشقاء والتعب مرة ثانية فإنه يستحق كل هذا العناء».

كان الثامن من مارس هو يوم المرأة، وكان هناك عدة معلمات يُدرّسن الدروس الثقافية لياو ووي، وأنا شاكر جداً لهن على تعليمهن الجاد وتوجيههن الدقيق؛ لذلك اتصلت بهن، وفي البداية ألقيت التحية، ثم سألت المعلمة بعناية عن أحوال ياو ووي في الصف، قالت المعلمة: إن أداءه المدرسي إيجابي جداً بالنسبة إلى ما يبذله من مجهود.

بعد ظهر اليوم التاسع من مارس، أحضر ياو ووي الشهادة الثمينة إلى المنزل، وقال لنا: إن العديد من زملائه يتمنون الحصول على شهادة؛ ولكن المعلم أعطاه إياها، وهذا لثقتة وتأكده من قدراته، سعدت كثيراً بسماع هذه الكلمات، أنا سعيد جداً بتحقيق ابني الإنجازات، وفي الوقت نفسه سعيد بنفسي، أصبح الابن أكثر ذكاء، وهذا جعلني سعيداً جداً، كما حفزني لمواصلة الكتابة؛ حتى لو كتبت أكثر وأكثر لن أستطيع التعبير عن مشاعري، أنا سعيد، سعيد جداً.

في 24 من مارس عام 2012، كان ياو ووي وبعض الطلاب الآخرين في مدرسة الووشو يتحدثون عن تكاليف التعبئة السينمائية والتلفزيونية، دفعت لياو ووي 50 ألف يوان، وكان هو أقل طالب يدفع من بين هؤلاء الطلاب، ومع ذلك، لم يهتم ياو ووي بأننا أقل من دفع؛ على الرغم من أن ياو ووي ليس مثل هؤلاء الأطفال من العائلات الغنية الذين يلقون المدح والثناء من قبل الجميع في المدرسة، فإنه جلب المجد والشرف وأضفى بريقاً على عائلة ياو؛ في كل مرة يعود إلى المنزل خلال العطلة، كنت أخذه إلى الغابة في الناحية الجنوبية للسير قليلاً، ثم أتحدث معه حول هذا الموضوع؛ وفي كل مرة أقول له: «ياو ووي، يجب أن تكون إنساناً قوياً، على الرغم من أن عائلتنا فقيرة جداً؛ فإنه هذا ليس أمراً مخزياً، فإذا نجح الإنسان في أن يصبح إنساناً قوياً فإنه يكون بذلك قد حقق النجاح، وإذا فشل في تحقيق ذلك، حتى ولو حقق النجاح في مجالات أخرى، فلا يعتبر نجاحاً، إذا فشلت في القيام بشيء ما يمكنك البدء من جديد؛ ولكن فشلك في أن تصبح إنساناً قوياً هو فشل أبدي».

في 24 من مارس، شارك ياو ووي في تصوير فيلم في حديقة هو هوا يوان ببيكين، كنت سعيداً جداً عندما سمعت هذا الخبر السار؛ ولكن فكرت في وضعي الحالي، لم أتنفس الصعداء؛ لأن تجارتي في ذلك الوقت لم تكن جيدة جداً، ولم أكسب الكثير من المال، أعتقد دائماً أنه ما دام أن الابن جيد، أستطيع التضحية بكل شيء، كان الأطفال الذين في عمر ياو ووي نفسه يسكنون في منازل صغيرة مكونة من ثلاثة طوابق؛ ولكن لا تزال عائلتي تعيش في المنزل القديم.

في 31 من مارس عام 2012، كان هناك زميل من مدينة تشاوهو بمقاطعة آنهوي يقف على الجانب الآخر من الكشك قال لي: «إنك ترتدي ملابس بالية كل يوم، ويحتقرك الآخرون، ويسخر منك الزبائن، وإذا استمرت على هذا النحو، سوف يتأثر مستقبل ابنك ياو ووي، فحتى إذا كنت تعاني الفقر ألا تمتلك المال لشراء سروال». كان قلبي يرفض هذه الكلمات، حتى

إذا امتلكت المال يجب الحفاظ على التقاليد الجميلة للحياة الشاقة البسيطة. فالملابس البالية، ولكنني دائماً أنيق ونظيف، إذا أضعت بعض المال للحفاظ على ماء الوجه، أعتقد أنه أمر لا يستحق.

قد تكون طريقة تفكيري في بعض الأحيان متخلفة قليلاً، ولكنني لم أهمل قط في تربية الأبناء وتنميتهم، أبذل قصارى جهدي حتى يحصل أبنائي على كل شيء جيد، وأنفق كل المال الذي يتوجب عليّ إنفاقه من أجل أبنائي، وأتمنى حقاً أن يكونوا قادرين على تقدير بعض الإسهامات للدولة.

سواء كان ابني الأكبر قوه تشينغ أو ابني الثاني وويي، أو ابنتي شين شين، فجميعهم يتمتعون بمزايا خاصة، وجميعهم متميزون، أتمنى أن أكتب هذه الكلمات، حتى أحت أبنائي على العمل بجد واجتهاد أكثر، بعد ظهر ذلك اليوم لم أكن مشغولاً؛ لذا ركب الدراجة وذهبت إلى زميلي القروي، بحثت وأنا في منزله عن «مذكرات أب عامل مهاجر يعمل في بكين»، كان معدل الاطلاع عليها أكثر من 800 مرة.

كن قدوة لأبنائك

حتى في الطقس البارد، كنت أصر على الذهاب إلى سوق الخضراوات، قد يقول بعضهم: إنه في الأيام الباردة لا تستطيع كسب المال، والأفضل البقاء في المنزل والتمتع بالدفء، ولكنني أريد أن أقول: إنه في ظل الأحوال الجوية السيئة كنت أصر على الخروج، ولم يكن الغرض الأساسي من ذلك هو كسب المال؛ ولكن هو رغبتني في أن يعلم أبنائي أنه مهما كان الوضع يجب الإصرار على القيام بالأشياء التي نريد فعلها.

في غرة أبريل عام 2012، أرسلت لي الأخت الطيبة في ظهر ذلك اليوم كريم اليد مرة أخرى، كانت هذه هي المرة الرابعة التي ترسل فيها كريم اليد؛ لذا تذكرتُ شتاء عام 2009، فقد كان شتاءً قارساً، ولم يبدأ الشتاء في ذلك العام في وقت مبكر فحسب؛ ولكن أيضاً من شدة برودته كان يُجمد العظام البشرية، وفي صباح أحد الأيام، تساقطت ثلوج كبيرة على وجوهنا؛ كأنه غضب من الله، ولحسن الحظ كان هذا اليوم هو يوم الأحد، وكان الأطفال في المنزل، وكان صوت الرياح الشمالية التي تهب كصوت عواء الذئاب، باستثنائي أنا وأخي لم يكن هناك أحد يريد الذهاب إلى السوق في هذا اليوم الثلجي، أعتقد أنه مهما كانت حالة الطقس يجب ألا يتكاسل الناس، ويصروا على فعل الأشياء.

بعد تناول وجبة الإفطار في الصباح، ركب دراجتي وذهبت إلى السوق، قد يقول بعض الناس: إنني أذهب إلى السوق لكسب المال؛ ولكن في الحقيقة أردت فقط أن أكون نموذجاً جيداً يحتذى به أبنائي الثلاثة؛ ليعرف الأبناء أنه بغض النظر عن البيئة الصعبة المحيطة، لا بد من الإصرار والمثابرة على القيام بالأشياء التي يريدون القيام بها، وفي الوقت نفسه أذكرهم دائماً أن كل ما يحصلون عليه الآن ليس بهذه السهولة، وأن يعرفوا معنى التقدير والحرص، حتى أجعلهم قادرين على الدراسة بجد واجتهاد.

في ظهر ذلك اليوم كان الطقس أفضل قليلاً، وحتى في هذه الظروف القاسية، ما زلت أريد أن أكتب شيئاً، كان السوق الذي تباع فيه الخضار هو مجرد سقيفة كبيرة بسيطة، ويتسرب الهواء إلى كل مكان، وكان الكشك في مكان بالقرب من البوابة الغربية، وفي موسم تساقط الأمطار في الصيف، والأمطار الغزيرة تتساقط بالخارج، ورذاذ المطر يتساقط فوق الكشك، لم يكن الوضع في الشتاء جيداً؛ لأن موقعي كان مواجهاً للشارع الخارجي، وما دامت الرياح تهب بالخارج، فإن الزنجبيل كان يتجمد من البرد؛ كنت أقف في مهب الريح، ودرجة الحرارة هي تقريباً درجة الحرارة نفسها التي في الخارج؛ وحوالي الساعة التاسعة من ذلك اليوم، كان صوت صفير الرياح في الخارج، والثلج يتساقط فوق السقيفة من وقت لآخر؛ ومن ثمَّ يتساقط فوقي؛ وعلى الرغم من برودة الطقس الشديدة، فإن قلبي كان يشعر بالدفء؛ لأن الكتابة تمنحني الطاقة والقوة.

ارتديت المعطف العسكري الأصفر الذي التقطه أخي، وكانت أكمامه ممزقة، ويظهر القطن الذي كان بالداخل، كان الطقس بارداً جداً، ودائماً لا أستطيع التحكم في سيلان مخاط الأنف، كانت الأخت وانغ هوا مدير السوق تقف أمام الكشك للتحدث معي، وكان حديثنا عن دراسة ياو وويي، كما سألتني عما إذا كان ياو وويي يمثل في التلفزيون؟ وغيرها من الأسئلة، رأيتي الأخت أكتب بكل جدية في ظل هذا الطقس، في بعض الأحيان تقرأ المحتوى الذي كتبته، وتساألني أي مادة أكتب، وكانت تنطلق بعناية إلى يدي المكشوفة، وفي الطقس البارد، كانت هناك الكثير من الشقوق الكبيرة في يدي الحمراء المتورمة، أمسكت

الأخت يدي، ثم أحضرت كريم اليد المضاد للتجمد من المنزل، منذ تلك اللحظة، شعرت أن كل ما أفعله له معنى وقيمة، وهذا الشعور كان يحفزني دائماً لعدم التخلي والمثابرة حتى النهاية.

في أحد أيام شهر أبريل عام 2012، أثناء عطلة ياو وويي وعودته إلى المنزل، تحدثنا عن أحوال مدرستهم؛ في تلك الليلة جلسنا على الطاولة لتناول العشاء، في هذه اللحظة، قال لي الابن: «أنا الأول في صفوفنا الثلاثة في كل المجالات». فقلت له: عندما بدأت الدراسة في العام الماضي، سمعت أن زملائك في الصف مشاغبون، يحبون اللعب والضوضاء، ولا يُوجَّهون بشكل جيد». قال ابني: «بعض الطلاب لا يخافون حتى من المعلم، ويجرؤون على ضربه». عندما سمعت هذا الكلام كنت قلقاً جداً، وخشيت أن يصبح ابني مثلهم؛ لذلك أكلت بعض الطعام، ثم أمسكت هاتفي وذهبت إلى الغاية في الناحية الشرقية وأردت إجراء اتصال بمعلم الصف الذي يدرس به ياو وويي؛ ولكن لأن الدراسة بدأت منذ وقت قصير، لم أكن أعرف من هو معلم الصف؛ لذلك لم يكن بوسعي سوى الاتصال بمدير المدرسة الثانوية بمدرسة شاولين للوشو ببيكين المدير وان جون.

عن طريق المدير وان جون، تواصلت أخيراً مع معلم الصف الذي يدرس به ياو وويي، وسألته عن أحوال ياو وويي داخل الصف، ثم عبّرت له عما بداخلي قائلاً: «أرجو من المعلم مساعدتنا في تربية الابن تربية جيدة داخل المدرسة، وإذا فعل شيئاً خاطئاً أو تصرف بطريقة غير لائقة، يمكنك أن تقول لي مباشرة، وأنا سأقوم بتربيته وتوجيهه».

عندما التحق ياو وويي بالصف الأول الثانوي، كتبت رسالة إلى جميع المعلمين، وتواصلت مع ثلاثة معلمين عن طريق استخدام الرسائل، على الرغم من أن قدرتي على التعبير ليست قوية جداً، والجمل لم تُكتب بطريقة سلسلة، فإنني أصر دائماً على استخدام هذه الطريقة، عندما قرأت رسائل الرد من المعلمين، حفظت بعض العبارات والجمل عن ظهر قلب، والأجزاء التي لم أفهمها أبحث عنها في القاموس.

على الرغم من أن استخدام طريقة الرسائل الآن هي طريقة غير عصرية؛ فإنني أعتقد أنه باستطاعتي التعبير عن مشاعري من خلال الكتابة؛ لأن المحتوى المكتوب يمثل مشاعري الحقيقية، وكل كلمة صادقة نابغة من القلب دون غش أو تزييف، وهذه هي طريقتي في تعليم أبنائي، فإنه بغض النظر عما يفعلونه لا بد أن يفعلوه بجد واجتهاد. «من يرسل الزهور، تكون يداه عطرة»، فما دام أنك تفكر في الآخرين وتساعدهم، بالتأكيد سوف يشعر الآخرون بمشاعرك، ويكونون شاكرين لك.

قرأ معلم الصف الذي يدرس به ياو وويي رسالتي أمام كل الطلاب، ثم سأل ياو وويي: «ماذا يريد أن يقول والدك؟»، اعتمدت على مستوى التعليم الابتدائي وأرسلت إلى المعلم رسالة وبلغته تحياتي، وتواصلت معه، حتى لو لم تكن مكتوبة بشكل جيد، ما دمتُ استطعتُ كتابتها فهذا أمر جيد.

اجتهد لتصبح من هؤلاء الـ 12%

هناك 48% من الناس ينهارون بعد الفشل الأول، و25% منهم يشعرون بخيبة أمل بعد تجربتين من الفشل، و15% منهم ينخلون عن آمالهم بعد الفشل ثلاث مرات، وهناك فقط 12% من الناس يمرون بتجارب فشل كثيرة ولكن لم تنبسط عزيمتهم ودائماً تقودهم الحماسة إلى تحقيق أهدافهم، أريدك أن تكون من هؤلاء الـ 12%.

منذ أكتوبر عام 2009 حتى عام 2012 استغرقت ثلاث سنوات في كتابة تاريخ عائلتي، في هذه السنوات الثلاث، بغض النظر عن سوء البيئة المحيطة وعدم ملاءمتها، فإنني أصررت على التعلم، أتعب في النهار، وقبل الذهاب إلى الفراش كنت أقرأ الفقرات والكلمات والعبارات التي كتبتها بخط اليد في المكتبة وأقلب في الكتب الخارجية القديمة التي كان يطلعها ابني مرة أخرى، وعند الذهاب إلى الفراش، لا أغفو إلا بعد التمتع بالنظر إلى كل الشهادات والجوائز التي حصل عليها ابني مراراً وتكراراً، كانت حياتي وأنا هائم على وجهي في أرض غريبة صعبة للغاية، ولكنني كنت أشعر بالسعادة والرضا عندما أرى أطفالي الثلاثة متميزين الواحد تلو الآخر.

خلال طريق الذهاب لنصب الكشك كل صباح وطريق العودة بعد جمعه كل مساء، أمسك مقود العربة بيد واحدة، وفي اليد الأخرى دفتر صغير ممثلي بالجمال والعبارات، التي أقرأها بقمي من وقت لآخر، عندما بدأت الكتابة لم تدعمني زوجتي؛ بل قالت لي مراراً: «ما الذي يميز هذا المنزل المتهاالك وهذه الأسرة الفقيرة حتى تكتب عنها، ولن يقرأ أحد ما تكتبه».

كان عام 2012 هو العام الحادي والعشرون لعملي بخارج بلدي، خلال 21 عامًا من الكفاح، لم يكن الطريق سلسًا، ولكنني أؤمن بأن «اليوم الأكثر حزنًا هو اليوم الأقرب للتخلص من الصعوبات»، لم يكن لدي مال لشراء الكتب؛ لذلك كنت أذهب إلى كل مكتبة لنسخ الكتب.

نسخت خصوصًا عبارات تحفيزية مثل: «السكين لن يكون حادًا إلا بشحذه، والإنسان لن ينجح إلا بالكفاح وتحمل الصعاب»، و«الإصرار على تحقيق المجد والنقد أفضل من الغضب».

من أجل شراء كتاب: «شكرًا لكل من عذبني»، تحدثت مع بائع المكتبة أربع مرات؛ سألته: «هل يمكن إعطائي خصمًا، سأشتري كتابًا إذا كان بسعر منخفض»، وفي النهاية اشتريت هذا الكتاب الذي كان سعره المحدد 24.8 يوانات بسعره الأصلي، وهذا السخاء نادرًا ما يحدث في حياتي، بعد ذلك ازدادت أسعار الكتب أكثر فأكثر، ولم يكن لدي مال لشرائها، ووجدت عن غير قصد طريقة «انتهازية». كان الكثير من الناس في المكتبة، منهم من يجلس القرفصاء على الأرض، أو يجلس على الأرض واضعًا رجلًا فوق رجل، ويحمل في يده كتابًا متعطشًا لقراءته، ولا يدفع نقودًا، ووجدت ثغرة في هذا المكان للقراءة مجانًا، عندما كنت أذهب إلى السوبر ماركت لقراءة الكتب، في كل مرة أرى العبارات التي تؤدي دورًا تحفيزيًا، أنسخها على فاتورة الشراء الصغيرة، وعندما تمتلئ الفاتورة أكتب على راحة اليد أو ظهر اليد، وفي بعض الأحيان أنسخها على علبة سبائير التقطتها.

أكثر شيء لا أنساه هو يوم في بداية ربيع عام 2012، ذهبت إلى سوق شينفادي لاستقبال أخي الذي كان يركب العربة ثلاثية العجلات لإحضار البضائع، وأنا في طريقي أخذت ورقة في يدي لأقرأها وأنا أسير، وعندما عدت، طويت هذه الورقة على شكل مستطيل، ووضعتها في سلة العربة، عدت إلى المنزل في المساء، وما إن نزلت من العربة، حتى تذكرت فجأة الورقة الموجودة في السلة، وعندما نظرت إليها شعر قلبي بخيبة أمل كبيرة، فقد اختفت الورقة. شعر قلبي بالحزن، وأردت العودة للبحث عنها، أليس هذا بحثًا عن إبرة في بحر؟ لن أعود للبحث عنها؛ لأنني سوف أضيع أكثر من ساعة من الوقت والجهد، وبعد إعادة التفكير، قررت العودة لالتقاطها، فهذه الورقة لم أحصل عليها بسهولة، دفنت رأسي داخل الوعاء، وتناولت الطعام بسرعة، أكلت بضع لقيمات عشوائيًا ومسحت فمي؛ ومن ثم ركب دراجتي لأذهب في الطريق نفسه.

عندما ركب الدراجة ووصلت إلى شرق وانليوتشيلو، رأيت في لمحة تلك الورقة الثمينة التي لم أعرف كم عجلة سيارة دهستها، الورقة هناك، سرعان ما التقطتها ووضعتها في جيبتي، بعد عودتي إلى المنزل، سألتني زوجتي لم ذهبت، فابتسمت ابتسامة عريضة ثم قلت: «لا شيء، خرجت للتنزه».

في 20 من أغسطس عندما كنت مشغولًا في كتابة «تاريخ عائلتي الفقيرة» في كشك طوله أكثر من متر بالسوق، أمسكت السيدة ليو ليانفين رئيسة تحرير الأخبار بوكالة أنباء شينخوا مخطوطتي وأخذت تقلب فيها، وبينما هي تقلب بعناية في المخطوطة، قالت لي: «شخص مثلك تلقى تعليمه حتى الصف الرابع الابتدائي فقط، ويستطيع كتابة هذا النص الذي يلمس القلب، فهو حقًا يستحق الثناء»، كما أضافت قائلة: «سوف أخذ هذه المخطوطات إلى القسم اليوم، وأكلف أحد المحررين الجيدين بإعادة تحريره لنشر قصتك؛ لتكون مثالًا يُحتذى به، وأعتقد أن تجربتك يمكن أن تغير مصير عدد لا يحصى من الناس».

في صباح ذلك اليوم، عندما أخذت الصحفية ليو ليانفين جزءًا من المخطوطات التي كتبتها، بدأ الجيران يتبادلون الحديث مع بعضهما البعض، وقال صاحب الكشك الذي يبيع المعجنات بالناحية الشرقية: «يا بائع الزنجبيل، لقد انتهيت هذه المرة، وضاع جهدك خلال هذه السنوات العديدة». وقال بعضهم: «يا بائع الزنجبيل، أنت حقًا أحق وغيبي، سوف يغيرون اسمك ويسجلون اسمًا آخر لا علاقة له باسمك، وهناك الآن الكثير من الدعاوي القضائية في مثل هذا الأمر». في هذا الصباح باستثناء بضع كلمات مواساة سمعتها من زوجة صاحب كشك القماش المقابل، كان كل الكلام الذي سمعته من الآخرين هو: إنني خدعُت؛ ومثل هذا الكلام الذي بث بداخلي الخوف والقلق، بينما قالت لي زوجة كشك القماش: «ربما يلقي اهتمام مخرج أو وسائل إعلام، هذه المرة قد تكون نهاية هذه المعاناة». عندما سمعت كلامها ارتاح قلبي قليلًا.

في 20 حتى 23 من أغسطس، خلال هذه الأيام كان هذا الأمر محتبسًا في صدري، ولم أقل لزوجتي شيئًا، في الحقيقة لم يكن لدي ثقة في تلك الجمل غير الناضجة التي كتبتها، تمامًا كما قالت زوجتي، أنا لم أخرج من المرحلة الابتدائية كيف لي أن أكتب شيئًا؟ ولكن حتى أتمكن من التعبير عما بداخلي من أفكار من خلال الكتابة، كنت أذكر باستمرار وأعمل على إثراء

معرفتي؛ في كل مرة أذهب إلى المكتبة أختبئ خلف رف الكتب وأنسخ الكتب، وقد رأى البائع الورق الممتلئ الذي كُتِبته وأخذها مني عدة مرات.

في 23 من أغسطس، أحضرت لي الصحيفة ليو ليانفين حقيبة كبيرة بها ملابس وأحذية، عندما رأيتها شعر قلبي بالارتياح والطمأنينة، فهي لم تخدعني عندما أخذت مني المخطوطات التي كُتِبتها، وقالت الصحيفة ليو: إنها ستأتي يوم السبت إلى بيتي لإجراء مقابلة صحفية، وغادرت بعد ذلك، بعد أن غادرت، كانت تحيطني أعين الحاسدين ونظراتهم: «بائع الزنجبيل، بائع الزنجبيل، دعنا نرى الأشياء التي أحضرتها لك تلك الصحيفة طويلة القامة التي كانت ترندي نظارة».

في 27 من أغسطس عام 2012، شهدت بكين تساقط أمطار غزيرة، وفي حوالي الساعة 12 ظهرًا، توقفت الأمطار، وجاءت الصحيفة ليو ليانفين والصحفي لي مينغ فانغ أمام الكشك، وبدء إجراء المقابلة معي ومع ياو وويي الذي كان على وشك العودة إلى المدرسة والمشاركة في المسابقة الدولية.

كنت أكافح وأعمل بجد من أجل أن تتنفس أسرتي الهواء، حتى أستطيع نصب ظهر عدة أجيال مستقيماً؛ عملت في وهاي لمدة 5 سنوات، ثم في بكين 16 عامًا، وكنت أرى الآخرين يأكلون ويرتدون جيدًا، ويستقلون سيارات أجرة في الخارج، وفي يقول: لا تحسدهم. في الواقع كنت أؤاسي نفسي، ولكن طالما أرى أبنائي متميزين الواحد تلو الآخر، وعلى وجه الخصوص ياو وويي، الذي حاز مرات عديدة جوائز دولية، حتى الآن حصل على أكثر من 100 جائزة شرفية كبيرة وصغيرة، كانت لدي ثقة تامة في المستقبل، وبينما كانت الصحيفة ليو ليانفين تجري معي حوارًا صحفيًا، وتسجل ما أقوله بقلمها، كان الصحفي لي مينغ فانغ يحمل الكاميرا ويقوم بالتقاط الصور، وكان صوت مصراع الكاميرا مثل صوت الألعاب النارية خلال الاحتفال بالسنة الصينية الجديدة، خلال المقابلة التي استغرقت أكثر من نصف ساعة، كان يحيط بنا الكثير من الناس منهم التجار والزبائن، في هذه اللحظة لم يقل أحد: «مختل عقليًا»، «غبي»، «أحمق».

بعدما التقط الصحفي لي مينغ فانغ الصور، قالت لي الصحيفة ليو ليانفين: «سوف ننتظرك حتى تنتهي من جمع الكشك، ثم نذهب إلى منزلك، لإجراء مقابلة مع ابنك الثاني ياو وويي».

في ظهر ذلك اليوم، غمرتني الإثارة والسعادة؛ ولكني كنت متوترًا بعض الشيء، وركبت سيارة الصحفي لي الذي قاد السيارة إلى المخرج الجنوبي للسوق، وقال لي: «إلى أين نذهب بعد ذلك؟». هذه المرة كنت في حيرة من أمري، قضيت في بكين 16 عامًا، دائمًا ما أكون مرتبكًا ولا أعرف الاتجاه، وفي الأوقات العادية تضطرنني العربة ثلاثية العجلات إلى إيجاد الطريق، أما الآن أجلس في السيارة، حتى الاتجاه الشمالي لا أستطيع إيجاده، قاد الصحفي لي العربة حتى وصل بالقرب من تشايهو بينغ تشياو 100 متر، وعندما أوشك على الانعطاف نحو اتجاه سانلوجو، لم أستطع تمييز المكان، لأعرف إلى أي اتجاه سوف ننعطف في الأمام، فسألني الصحفي لي إلى أي اتجاه ننعطف؟ لم أقل شيئًا، وكانت النتيجة أنه قطعنا طريقًا خطأ؛ بسبب توجيهي الأعمى، وبقينا فترة طويلة عند الجانب الشمالي لإشارة المرور في شانلوجو.

مشينا فترة طويلة حتى وجدنا الطريق في النهاية، وعندما اقتربت السيارة من بيتي، كانت تملأ قلبي سعادة لا تُوصف، وكنت متشوقًا إلى الدخول للمنزل، وعندما دخلنا عند باب الفناء، صحت لأول مرة منذ 40 عامًا بصوت عالٍ قائلاً: «يا أم قوه تشينغ، لدينا ضيوف في منزلنا».

كانت زوجتي تجهز الأشياء التي سيأخذها ياو وويي، وعندما سمعتني أناديها جاءت لترحب بالضيوف، قالت وهي تسير: «عندنا ضيوف في البيت، لماذا لا ترحب بهم، والمنزل غير نظيف؟». قالت الصحيفة ليو بلطف: لا يهم ليست هناك مشكلة. «كما قالت: إنهم جاؤوا إلى بيتنا الآن للبحث عن قصة حياة حقيقية، وإنهم تأثروا بأفراد عائلتنا. «أهتم دائمًا بمتابعة ياو، مهما كانت حرارة الطقس أو برودته وهو في السوق، يركز بكل هدوء في كتابة الكلمات، وعندما يأتي أحد للسؤال عن سعر شيء ما ويريد أن يزن له، يجيب بارتباك، ويزنها ويأخذ النقود، ثم يدفن رأسه لمواصلة الكتابة». توقفت الصحيفة ليو عن الكلام ثم قالت: «لم يخرج في المرحلة الابتدائية؛ ولكنه يستطيع الكتابة بشكل جيد، وكتب حتى الآن 200 ألف رمز، والكثير من الناس متأثر بتقانيه وإصراره؛ والقصة التحفيزية التي كتبها يمكنها قهر العالم».

أخذت الصحفية ليو والصحفي لي إلى الفناء الشمالي للبحث عن أخي، قلت لهم: «انظروا، باع أخي نبات القطيفة البري لعدة أيام، وهو أفضل الخضراوات البرية التي تزرع، وكان ينتظركم ليهديه إليكم؛ ولكن لم تأتوا، أهديتونا الكثير من الأشياء الجيدة، وسوف أتذكر جميلكم دائماً».

دخل الصحفي لي والصحفية ليو الغرفة الشرقية بمنزلي المستأجر، ليروا الجوائز والشهادات بالجدران الثلاثة، وسألوني في صوت واحد: «كل هذه الأشياء حصل عليها ياو ووي؟» فأجبت بكل فخر: «نعم». طلب مني الصحفي لي نقل طاولة الطعام الصغيرة إلى الخارج، ليضع الميديا التي حصل عليها ياو ووي ويقوم بتصويرها، كما دخل الغرفة لالتقاط الصور لكأسين حصل عليهما في سان فرانسيسكو بأمريكا في العام الماضي، وبعد الانتهاء من التقاط الصور بالغرفة الشرقية، قاموا بتصوير الأمتعة التي يأخذها ياو ووي معه عند الذهاب إلى مدرسة الووشو في الغرفة الغربية، كما صوروا خصوصاً وجبة الغداء بالبيت، وسألوا أبنائي قائلين: «هل تأكلون الشعيرية المجففة مع نبات القطيفة البرية كل يوم؟ وهل يكفي؟» فهز الأطفال رؤوسهم جميعاً وقالوا: «يكفي». كيف يكفي؟ قال الأطفال هذا الكلام لأنهم يفهمون ويقدرّون والديهم.

سعيد جداً بأبنائي

كان يتفوق ياو ووي دائماً على غيره في مدرسة الووشو؛ لذلك كنت فخوراً جداً به، فتحقيق ابني مثل هذه الإنجازات، هو ما أتعطش إلى رؤيته، كما أنه حلمي أيضاً، أتمنى أن يكون ابني متقوفاً دائماً، وأن يحافظ على الثقة بشكل متصاعد.

استخدمت الكتابة لتسجيل مراحل نمو الأبناء شيئاً فشيئاً، وعندما أسجل بقلم، يكون ذهني هادئاً، وعندما أكتب تتبخر تلك الأحزان والانتكاسات، وبينما أبيع الخضار في السوق، أقوم بتسجيل مذكراتي، فالكتابة لا تخفف الضغوط بداخلي فحسب؛ ولكنها أيضاً تحول هذه الضغوط إلى قوة تدفعني إلى الأمام، وباعتباري والد ياو ووي، فأنا شخص عادي ولا يمكن أن أكون عادياً ثانياً؛ ولكن قدرتي على ترك هذه الكلمات لأبنائي، ملأت قلبي بشعور تحقيق الإنجازات؛ كان أبنائي الثلاثة متميزين، وكنت أراهم مطيعين وأذكياء، وجميع الإنجازات التي حققوها هي ثمرة جهودهم، وهذا جعلني فخوراً للغاية، على الرغم من صغر أعمارهم، فإنهم كانوا كالكبار تماماً، وفي بعض الأحيان يفكرون بالأشياء بطريقة أكثر شمولية مني.

في مايو عام 2012، أجرى ياو ووي امتحان منتصف الفصل الدراسي الأول للصف الأول الثانوي. أدهشتني النتيجة جداً؛ حيث حصل على 104 درجة في اختبار مادة اللغة، وفي مادة الرياضيات حصل على 78 درجة، بينما حصل على درجة في اللغة الإنجليزية، كانت هذه نتيجة جهود ياو ووي، وقام معلم الصف بمنحه شهادة فخرية أمام كل زملائه في 81 الصف، أعرف أن ابني جيد، وأنه يجلب المجد والشرف لي، وعندما أفكر في هذا أشعر أنه يستحق كل هذا العناء حتى لو عانيت الشقاء والتعب مرة ثانية، عندما نرى نحن الوالدين الجدار الممتلئ بالشهادات، ينتابنا شعور بالفخر لا يُوصف.

بعد ظهر يوم 25 من مايو عام 2012، اتصل بي ياو ووي، وقال لي: «أبي، لا تتس أن تخبر العائلة، سأرفع رأسكم عالياً مساء اليوم في تلفزيون الصين المركزي». لم يذهب ياو ووي منذ أكثر من عامين لأداء العروض في تلفزيون الصين المركزي، وعلى الرغم من ذلك لم تنبسط عزمته، ويسعى دائماً من أجل الحصول على فرصة. «الفرصة تأتي لأولئك الذين هم على استعداد»، هذه الجملة صحيحة، واجه ياو ووي خلال دراسته في مدرسة الووشو الصعوبات والنتكسات؛ ولكن كلما تزداد الصعوبات والنتكسات تجعله أكثر إصراراً وشجاعة.

في 25 من مايو، أحضر أعماله وذهب إلى قاعة البث التلفزيوني بتلفزيون الصين المركزي، في تلك الليلة، أمسك ياو ووي بالهدية التذكارية «الخزف الأزرق والأبيض» التي أهداها له تلفزيون الصين المركزي، كنت سعيداً جداً، لم يخيب ابني آمالي، وقال: إنه يستطيع تحمل الضغوط، وهذا أمر جيد جداً، فلا يستطيع الأطفال الآخرون من عمره نفسه فعل ذلك، أعتقد أنه ما دمت تجتهد لتحقيق هدفك، فليس هناك شيء مستحيل، وعلى الرغم من أن عائلتنا بأكملها لم تكسب الكثير من المال خلال 16 عاماً في بكين، ولم تفعل شيئاً عظيماً؛ فإنه عندما أرى أبنائي يحققون النجاح والمجد، وبارين بوالديهم، أشعر أنهم يستحقون بذل المزيد من الجهد، ربما لم يحدث في منزل ياو شيئاً كبيراً يهز السماء والأرض؛ ولكن كانت النتائج التي يحققها الأبناء واضحة كضوء القمر، الذي يبينر للأسرة بأكملها، وجلب لها أملاً غير مسبوق.

ملحقات: لقاء صحفي

ياو تشي تشونغ، يبلغ من العمر 40 عامًا، من مدينة فويانغ بمقاطعة آنهوي، يعمل حاليًا بائع خضار بسوق قوانغان تيانتاو الموجود بزقاق قوانغان، ويسكن في قرية وايفنغ ينغ عند معبد وانتشوان بمنطقة فنغتاي، متزوج ولديه ولدان وبنت، وجاء مع أخيه لبيع الخضار في بكين، تلقى تعليمه حتى الصف الرابع الابتدائي فقط؛ ولكنه علم ابنه الثاني ياو ووي حتى أصبح متفوقًا، وهو يدرس حاليًا بمدرسة الووشو، وشارك في العديد من المسابقات، وحصل على العديد من الجوائز، وشارك في تصوير فيلم سينمائي، وليس ذلك فحسب، يريد ياو تشي تشونغ أن يترك لأبنائه «ثروة الحياة»، كان يكتب مذكراته أثناء بيع الخضار؛ حيث كتب مذكرات من 200 ألف رمز ليتركها لأبنائه، وأراد أن يلهم أبناءه ويحفزهم، ويحثهم على أن يأخذوا الحياة على محمل الجد، وأن يكونوا متفائلين، وأن يجتهدوا في حياتهم.

لذلك تلقى العديد من المقابلات من وسائل الإعلام؛ مثل وكالة أنباء شينخوا، ووكالة أنباء أسوشيتد برس، وصحيفة بكين اليومية، وجريدة شباب بكين وغيرها من الصحف، وفيما يلي هو تسجيل للمقابلة.

الصحفي: هل كان لطفولتك البائسة تأثير على حياتك؟

ياو تشي تشونغ: لا أحد يختار أصله؛ ولكنه يستطيع أن يقرر مستقبله، ولدت في أسرة فقيرة، ولم يتلقَ والداي التعليم، وكنا يعتقدان أن نقص التعليم والثقافة هو السبب الرئيس للشقاء والمعاناة؛ لذلك أردنا أن أتلقى تعليمي؛ ولكن الأوقات الجميلة لا تدوم، تلقت تعليمي حتى الصف الرابع الابتدائي فقط، ثم تركت المدرسة بسبب ضغوطات الحياة، وبعد ذلك كانت الحياة صعبة جدًا؛ لذلك قررت القدوم إلى بكين لأحاول هنا، وفي الواقع، كانت طفولتي البائسة هي الدافع لانتقالي إلى الشمال، واتخاذ قرارًا جديدًا بأن أصبح عنصرًا مهمًا في مجموعة العمال المهاجرين الذي يعملون في بكين؛ لأنني لا أريد أن يواصل أبنائي المضي في الطريق نفسه الذي قطعته، لم يذهب والداي إلى المدرسة لتلقي التعليم، وأنا تمتعت بفرصة تلقي التعليم لمدة أربع سنوات، وأردت أن يتلقى أولادي تعليمًا أفضل ولفترة أطول، جنّت إلى بكين لتحقيق هذه الأمنية، وأردت أن يتلقى أولادي التعليم حتى المرحلة الجامعية، ليأتي اليوم الذي يقدمون فيه إسهامات للوطن.

الصحفي: جئت إلى بكين وتحملت العمل الشاق لمدة 16 عامًا، لماذا اخترت مهنة بيع الزنجبيل؟ لماذا لم تبع الخضراوات الأخرى؟

ياو تشي تشونغ: عندما جئت إلى بكين لأول مرة، وجدت العديد من القرويين يختارون مهنة عمال بناء وديكور، وهذه المهن عملت بها عندما كنت في هانغتشو وويهاي وغيرهما من الأماكن، لم أرد السير مع التيار، وأردت أن أجد وظيفة أكسب منها المزيد من المال، حتى أتمكن من تعليم أبنائي، عندما جئت إلى بكين، كنت أبيع المخللات التي أعدها بنفسني لمدة 5 سنوات، وبعد ذلك وجدت أن المخللات تحتاج إلى فترة معينة، فأثر ذلك على تجارتي؛ لذلك قررت عدم بيع المخلل، وعلى الرغم من توقفي عن بيع المخللات، فإنني خلال هذه العملية، أحببت مهنة بيع الخضراوات، والتعامل كل يوم مع الزبائن المختلفين، الذين كان بعضهم يسرف في إنفاق المال، وبعضهم الآخر يتفاوض على السعر لتقليله ماؤًا أو ماوين، أحببت الحياة في هذه البيئة، هذه البيئة تجعلك تشعر بالحياة الحقيقية، وبعد ذلك اخترت العمل ببيع الزنجبيل؛ وذلك لأن الزنجبيل لا يفسد بسهولة، إذا لم يُباع اليوم سيُباع غدًا، ولكن إذا كانت خضراوات ورقية فهي تقسد بسهولة جدًا، ولن تربح من التجارة فيها، وهناك سبب آخر لبيع الزنجبيل؛ وهو أن «الزنجبيل هو فلفل حار قديم»، في الحقيقة هذه العبارة لها معنى آخر؛ وهو أن الحياة عبارة عن تراكمات، والزنجبيل يبقى لفترة طويلة دون أن يفسد، وهو مثلي تمامًا، على الرغم من فقري، فإنني ما زلت أستطيع المثابرة، ولم تكسرني الحياة قط.

الصحفي: لماذا قمت بالكتابة أثناء عملك ببيع الزنجبيل؟ ما الغرض الإبداعي من ذلك؟ وكيف كان يرى الناس حولك هذا التصرف؟

ياو تشي تشونغ: في الواقع كان سبب بدايتي للكتابة هو كتاب يدرسه أحد أبنائي، كان الكتاب بعنوان: «تربية الأبناء ليصبحوا ثروة»، هذا الكتاب جعلني أفكر في ضرورة أن أترك شيئاً لأبنائي، ولكنني لا أستطيع أن أترك لهم ثروة مادية؛ لذا اخترت أن أترك لهم ثروة روحية لا نهاية لها، وهي مذكراتي. سجلت في مذكراتي تجربتي الخاصة منذ بداية استرجاعها؛ لأشجع أبنائي على الاجتهاد في الدراسة، وألا يعيشوا حياة مثل التي عاشها والدهم؛ كما سجلت تجربة تعلم ابني ياو ووي فنون الدفاع عن النفس، وأردت أن أستخدم تجربته في التدريب والدراسة باجتهد؛ لتشجيع أطفال ما بعد التسعينيات؛ منذ الإصلاح والانفتاح، أصبحت الصين أقوى يوماً بعد يوم، وكما يقول المثل: «قوة الدولة بقوة شبابها»، فمستقبل الصين يحتاج إلى سواعد شبابها وإبداعاتهم.

على الرغم من أن بدايتي في الكتابة كانت جيدة، وكان الغرض منها واضحاً؛ فإن الناس حولي لم يفهموني؛ قال لي البائعون الآخرون: «نحن نبيع الخضار، علينا أن نلتزم بمهنة بيع الخضار، ما الفائدة من كتابة كل هذا؟ فتعليم الأطفال هو شأن المعلم، وشأن الدولة، فلماذا نقلق نحن عامة الشعب بشأن هذا الموضوع؟». كأن زملائي القرويين صبوا عليّ الماء البارد بقولهم: إنك لم تتخرج من المدرسة الابتدائية، ولا تعرف قراءة الكلمات الموجودة في مقال واحد، كم عدد الكلمات التي تعرفها؟ لا « نكتب، حتى لا تكون أضحوكة أمام الآخرين». حتى زوجتي لم تفهمني، وقالت: إن هذه الأشياء التي أكتبها لا فائدة منها، وإنها مضیعة للوقت، والأفضل استغلال وقت الفراغ في الراحة، ولكنني أردت فقط أن أترك شيئاً لأبنائي، لماذا لا يفهمني الجميع؟

الصحفي: كان يفضل الكثير من العمال المهاجرين الذي يعملون في بكين عدم التحاق أبنائهم بالمدارس، أو يقومون بإرسالهم إلى مسقط رأسهم لتلقي تعليمهم، كما أن دخلك الخاص ليس مرتفعاً، ما الذي جعلك تصر على التحاق أبنائك بالمدرسة وتكلفة التحاق ابنك الثاني بمدرسة فنون الدفاع عن النفس عالية جداً؟

ياو تشي تشونغ: أعلم أن هناك العديد من أسر العمال المهاجرين الذي يعملون في بكين يعيشون حياة صعبة مثلاً، كما أن التحاق أطفالهم بالمدرسة كان مشكلة كبيرة جداً، بسبب التغيرات التي تطرأ على حياتنا، ودائماً ما يكون مكان العيش هو المكان الذي تعمل فيه؛ لذلك كان إيجاد مدرسة لأبنائي أمراً صعباً جداً، وليس كالبحث عن شقة للإيجار، يمكنك استئجارها في أي مكان تذهب إليه. كانت حياة الوالدين غير مستقرة، ومن السهل أن يضيعوا على الأبناء فرصة التعليم، وبعض الناس يرسلون أطفالهم إلى مسقط رأسهم للالتحاق بالمدرسة، أنا أفهم ذلك تماماً؛ وذلك لأن مسقط الرأس هو مكان الإقامة والتسجيل، والتحاقهم بالمدرسة هناك أمر سهل، ويمكنهم تلقي التعليم الإلزامي مجاناً لمدة تسع سنوات، وبالإضافة إلى ذلك يكون مستوى الاستهلاك في المنزل منخفضاً أيضاً؛ لذلك كانت الحياة أسهل هناك، ولكنني لا أريد أن أترك أطفالي في مسقط الرأس، تماماً مثل "الأطفال الفقراء الذين يعيشون بمفردهم" الذين نراهم على شاشة التلفزيون، أريد أن أبذل قصارى جهدي لاهتمام بأبنائي، حتى يستطيعوا تعلم الاهتمام ورعاية الآخرين، وبالإضافة إلى ذلك، كان التحاق ابني الثاني بمدرسة الووشو رغبته التي أصر على تحقيقها، وأنا كأب ليس بوسعي سوى الانهماك في وظيفتي؛ لمساعدة أبنائي على تحقيق أحلامهم.

الصحفي: أتذكر أنك كتبت في مقالك أنك كسبت 28 يواناً من بيع المخللات أول مرة، وأن قلبك كان سعيداً حينها، على الرغم من أن العديد من طلاب الجامعات الذين تخرجوا يكون دخلهم الشهري آلاف اليوانات قليلاً بالنسبة إليهم في الوقت الحالي، ما رأيك في هذه المشكلة؟

ياو تشي تشونغ: في الواقع هذا الأمر له علاقة كبيرة بتجربة الإنسان الخاصة، أنا أعمل في بكين منذ أكثر من 10 سنوات، وانتقلت 9 مرات من منزل لآخر، ونصبت أكشاكاً في 8 أسواق ببكين؛ في البداية لم يكن لدي أي خبرة، وتعرضت للابتزاز من قبل "فريق الدفاع" الوهمي ودفعت 100 يوان، ولم أجروا على إخبار أسرتي بهذا الأمر، وعاقبت نفسي سراً بالجوع وعدم تناول الطعام عدة مرات؛ لأن المائة يوان هي مصاريف معيشة أسرتنا لمدة أسبوع؛ لذلك، كان الـ 28 يواناً مبلغاً كبيراً بالنسبة إليّ، وكذلك عندما جئت إلى بكين، كنت أعتقد أن الاعتماد على الجهود الذاتية للبقاء في بكين هو بالفعل شيء عظيم، وفي الوقت الحالي يشكو طلاب الجامعات من قلة المال الذي يكسبونه، فهذا له علاقة بتجربة تفوقهم، وأومن أن هؤلاء الأشخاص الذين يشكون من أن الراتب الشهري الذي يبلغ آلاف اليوانات قليل جداً، لا بد أنهم لم يتذوقوا طعم المعاناة، وفي الوقت نفسه، يرتبط سلوكهم هذا بعقليتهم المتهورة، وأنهم لا يرون بوضوح أن النفقات والمكاسب لا بد أن تكون متناسبة.

الصحفي: عندما أجريت مقابلة مع ابنك ياو ووي، قال: "عندما كنت صغيراً، ذهبتُ مع أبي لإحضار البضاعة ونصب الكشك، شعرتُ أن هذا العمل ليس متعباً جداً، وبعدما التحقت بالمدرسة كنت أسكن بها، وأعود إلى

المنزل فقط في عطلة نهاية الأسبوع، ولم أر المشقة التي كان يعانيها أبي، حتى ذلك اليوم الذي رأيت فيه مذكراته، عرفت حينها فقط أن حياة أبي لم تكن بتلك السهولة خلال هذه السنوات، سأعمل بجد ولن أدعه يعاني الشقاء والتعب مرة أخرى". عندما قال ياو وويي هذا الكلام، خفضت رأسي وكانت عيناى تترقق بالدموع. وبالمقارنة مع أقرانه، كانت الدموع في أعينهم دموع ألم وفقد، بينما كانت الدموع في عيون ابنك امتنانا وليست ألماً، ما الذي جعل ابنك يتعلم الامتنان والشكر وهو في هذه السن الصغيرة؟

ياو تشي تشونغ: ربما لأنه كان في كثير من الأحيان يرافقتي لإحضار البضاعة ونصب الكشك، عندما كان يرافقتي لبيع الخضراوات يقابل الكثير من الأشخاص أصحاب القلوب الطيبة، منهم من أعطاه قفازات وكريماً لليد، وتلقينا مساعدات مالية من الكثير من الناس في حياتنا، وفي كل مرة أقول لابني: إنهم ساعدونا في الأوقات الصعبة، لا بد أن نكون شاكرين لهم. وربما يكون لأنه ترعرع وسط هذه الأسرة الفقيرة، وهذا جعله يتعلم الامتنان في وقت مبكر جداً.

الصحفي: كنت تكتب مذكراتك أثناء بيع الخضار، وأثرت اهتمام الكثير من الناس، وتساعل بعض الناس على شبكة الإنترنت، معتقدين أن طريقتك هذه هي نوع من الإثارة والضجيج، فهل كانت لديك هذه الفكرة؟ هل تعتمد على الضجيج للمبالغة في مدح ابنك؟ أم أنك ترغب في الحصول على المزيد من مصادر الدخل؟

ياو تشي تشونغ: في هذا المجتمع المتقلب، يعتبر هذا الاعتقاد أمراً معقولاً؛ ولكن طريقة الإثارة والضجيج عادة هي طريقة موجودة داخل دائرة الترفيه والتسلية، وأنا كعامل مهاجر يعمل في بكين قد لا يكون لدي مثل هذه القدرة الكبيرة، وإذا كانت ضجيجاً، فأنا عملت في بكين لمدة 16 عاماً، وكانت حياتي صعبة جداً، لماذا لم أستخدم طريقة الإثارة والضجيج في وقت سابق لزيادة الدخل؟ وبالإضافة إلى ذلك، كانت كتابتي فقط حتى أترك لأبنائي شيئاً، فأنا لا أريد بعد 100 عام ألا أراهم، فعندما أعجز عن تعليمهم، سوف يتعلمون العادات السيئة، أو يفقدون الثقة في أنفسهم، أو السعي وراء المتعة والملاذات عند التقدم، كل هذه الأشياء لا أريد أن أراها؛ لذلك سوف أستمّر في تسجيل حياتي، بغض النظر عن تعليقات الآخرين؛ لأن غرضي النبيل وهو تعليم أبنائي ليصبحوا أشخاصاً جيدين.

تعليقات وسائل الإعلام

بائع خضار تلقى تعليمه حتى المرحلة الابتدائية فقط، يعيش في بيت متواضع، ويعمل من الفجر حتى الليل، وبذل الكثير من الجهد في كتابة مذكرات تحتوي على أكثر من 200 ألف رمز، وسجل حياة أسرة من خمسة أفراد تعمل في بكين، في هذه الأيام الأخيرة أصبحت قصة ياو تشي تشونغ «بائع الخضار» متداولة على شبكة الإنترنت، ولقيت احترام الكثير من المستخدمين.

في سوق تيانتاو بمنطقة شيتشنغ في بكين، كان على كشك ممثلي بالزنجبيل لافتة واضحة مكتوب عليها «مذكرات أب عامل مهاجر يعمل في بكين»؛ كان هذا الكشك هو كشك ياو تشي تشونغ «بائع الخضار»، الذي كتب مذكرات من 200 ألف رمز وهو يعمل في هذا الكشك، بالنسبة إلى شخص تلقى تعليمه حتى الصف الرابع الابتدائي فقط، لم تكن كتابة المذكرات أمرًا سهلاً، كان في كثير من الأحيان يبيع الخضار، ويقلب في القاموس ويقرأ الصحف، ولأن شراء الكتب أمر مكلف جداً؛ لذلك كان يذهب دائماً إلى المكتبات لقراءة الكتب وفحصها، وعندما يرى جملة جيدة يكتبها، هكذا كتبها كلمة كلمة وجملة جملة، إلى أن أنهى هذه المخطوطة المكونة من أكثر من 1000 صفحة.

أخذ ياو تشي تشونغ يبحث عن المزيد من المخطوطات والأوراق في كل مكان، حتى يقنع العاملين في وسائل الإعلام أنه كتب هذا المقال بنفسه، وأعطاهما الموظفين لرؤية محتوى المخطوطات، وفتح أول مخطوطة بعنوان: «حياة بسيطة»، وكان يبدو الخط جميلاً وأنيقاً: «بعد انتهاء موسم الحصاد في خريف عام 1997، كنت أحتضن الـ 180 يواناً التي حصلت عليها مقابل بيع نصف مو من بذور السمسم، وتركنا أنا وعائلتي موطننا الأصلي وركبنا القطار الأخضر، لنصل إلى جنة الحلم التي تتدفق بها حركة المرور وتملؤها الأضواء الساطعة».

وقال: إن ما كتبه في فصل «طفولة بائسة» هو تاريخ عائلته، بداية من جيل أجداده في الستينيات، الذين كانوا يعانون الفقر ولا يتناولون الطعام، حتى فترة التسعينيات وخروجه مع أقاربه للعمل في الخارج، ثم حياته الأسرية السعيدة الآن، بينما كتب في مخطوطة «تجربة العمل» كل الأشياء السيئة التي واجهها، وفي فصل «شكراً لكل من ساعدني» كتب عن الأشخاص الجيدين الذي قابلهم في بكين، ومخطوطة «مستقبلي حلم» التي بذل فيها الجهد الأكثر، وكتب فيها آماله التي يعلقها على أبنائه، ويتمنى لأبنائه الذين نشؤوا منذ الصغر في بكين، أن يفهموا من خلال هذه المخطوطات «تاريخ الأسرة» وماضيهم في الريف والمسؤوليات التي كانت على عاتقهم، واستفاد الأبناء بالفعل من «الكلمات الذهبية» التي كتبها الأب استفادة لا نهاية لها.

لاقت أقوال وأفعال هذا الأب الذي تجرع المرارة، صدى الكثير من مستخدمي الإنترنت، كانت تعليقات المستخدمين: المال ليس أفضل من هذه الكلمات الذهبية، في الواقع إن تجربة الوالدين وفهم الحياة هي أكبر ثروة نتركها لأبنائنا، وليست المنازل والسيارات وأوراق العملة والبطاقات الخضراء؛ بل نترك لهم روح السلام والطيبة والنقاء.

وكالة أنباء شينخوا

كان يتكرر المشهد نفسه يومياً في سوق تيانتاو بمنطقة شوانوو في بكين؛ وسط ضجيج أصوات الباعة في السوق، كان هناك رجل في منتصف العمر يبيع الزنجبيل والثوم، يركز بكل هدوء في كتابة الكلمات، وعندما يأتي أحد للسؤال عن السعر أو يناديه ليزن له، يجيب بارتباك، ثم يزن بمهارة ويأخذ النقود، ويدفن رأسه لمواصلة الكتابة.

اسمه ياو تشي تشونغ، يبلغ من العمر 40 عاماً، في عام 1997، جاء من مدينة فويانغ بمقاطعة آنهوي إلى بكين، كان يركب العربة ثلاثية العجلات ويبيع المخللات، ويعتمد الآن على بيع الزنجبيل والثوم للحفاظ بصعوبة على نفقات معيشة الأسرة ودعم أبنائه للالتحاق بالمدارس في بكين، ومن أجل توفير المال، باستثناء عطلة نهاية الأسبوع التي كان يعود فيها الأبناء، كانت العائلة تعيش على تناول الشعيرية النباتية في كل وجبة، وكانت الحياة صعبة جداً، وما جعل ياو تشي تشونغ يشعر بالسعادة هو أن نتيجة أبنائه كانت جيدة، خاصة ابنه الثاني ياو ووي الذي كان يدرس بمدرستين لتعلم الفنون الثقافية وفنون الدفاع عن النفس؛ والذي كان فخوراً به أكثر. يدرس ياو ووي البالغ من العمر 16 عاماً حالياً في مدرسة شاولين

الصينية للوشو، وحصل على الجوائز من مشاركته في عشرات مسابقات الوشو الدولية والمحلية، وفي عام 2009 أدى دور «لي داهنغ» بفيلم «لي تونغ»، وعندما يتحدث ياو تشي تشونغ عن ابنه لا يتوقف لسانه عن الكلام كأنه نهر لا ينضب.

على الرغم من أن ياو تشي تشونغ لم يتمتع بمستوى ثقافي عالٍ؛ فإن لديه أمنيات طيبة، يريد أن يكتب السيرة الذاتية «نداء الحب»؛ بدأ ياو الكتابة منذ نهاية عام 2009، وكان يكتب في الوقت الذي لا يبيع فيه الخضار، وعندما يقابله رمز لا يستطيع كتابته، يقلب في «قاموس شينخوا»، حتى الآن انتهى ياو من كتابة 200 ألف رمز، تأثر الزبائن بتقانيه وإصراره على الكتابة، ومن وقت لآخر كانوا يرسلون إليه أقلامًا وأوراقًا، وعندما سُئل ياو عما الذي يدعمه لمواصلة الكتابة، قال بجديّة: «أردت أن أترك شيئاً لياو ووي».

جريدة شباب بكين.

كان يتكرر المشهد نفسه يومياً في سوق تيانتاو بمنطقة شوانوو في بكين، وسط ضجيج أصوات الباعة في السوق كان هناك رجل في منتصف العمر يبيع الزنجبيل والثوم، يركز بكل هدوء في كتابة الكلمات، وانتهى من كتابة 200 ألف رمز حتى الآن، لقيت هذه الروح الإبداعية ثناءً من قبل مستخدمي الإنترنت، ولقبوه بـ «العم بائع الخضار».

العم بائع الخضار»، اسمه ياو تشي تشونغ، يبلغ من العمر 40 عاماً، من مدينة فويانغ بمقاطعة آنهوي، يسكن هو وزوجته «وأبناؤه في منزل بالإيجار من طابق واحد مكون من غرفتين، وخارج المنزل يفرش الأرض بالزنجبيل الطازج الذي أحضره من سوق الجملة شينفادي، وكان العاملون في وسائل الإعلام يمشون على أطراف أصابعهم بحذر لدخول منزل ياو تشي تشونغ.

وبهذه الغرفة -التي تبلغ مساحتها أقل من 8 أمتار مربعة- سرير لشخص واحد، وتوجد أشياء كثيرة فوق السرير، بينما تشغل طاولة مربعة مطوية وموقد وخزانة معظم المساحة المتبقية، والغرفة تكفي ليتحرك بداخلها شخص واحد فقط، وجدران المنزل مغطاة بشهادات فخرية متنوعة، وقال «العم بائع الخضار» بكل فخر: إن هذه الشهادات حصل عليها ابنه الثاني.

كانت كتابة العم بائع الخضار شيئاً عارضاً، واستخدم لغة واضحة لحكي جميع أنواع القصص التي حدثت بينه وبين أفراد العائلة وتصوراته وفهمه للحياة خلال ما يقرب من 40 عاماً، ومن هذه القصص «الذهب يتألق في النهاية»، والذي كان يحكي فيها: في عام 1991 ذهب ياو تشي تشونغ للعمل في مصنع الصوف بويهاي بمفرده، وكان يعمل بجد كل يوم ليوفر المال، حتى يقوم بتوفير المال، كان يذهب إلى المطعم ليساعد في تنظيف بقايا الطعام، والبحث عما يمكنه تناوله؛ ليكون وجبة طعام له، وكان ينفق النقود التي ادخراها في عام لشراء الملابس الجديدة لأفراد عائلته في السنة الجديدة، في السنة الأولى من العمل، وفر ياو تشي تشونغ وشقيقه 2620 يواناً، وبسبب أدائه المميز قبل عيد الربيع، حصل على مكافأة خاصة من الوحدة قيمتها يواناً، وكتب في نهاية المقال: إنه بغض النظر عن المكان الذي تعمل به لا تخش المعاناة والتعب؛ بل اعمل بجد، فالذهب 75 يتألق دائماً.

على الرغم من أن مستوى كتابة «العم بائع الخضار» متوسط؛ فإنه ينقل بين كلماته وسطوره مواقفه الإيجابية في الحياة وتصوراته الحياتية البسيطة المجدة، كما أنه مفعم بتطلعات لا نهائية نحو المستقبل، فضلاً عن الآمال الواسعة بشعور أبنائه بالامتنان للمجتمع.

كان العم بائع الخضار محباً للدراسة والتعلم، وفي وقت الفراغ كان يغوص في المكتبة الموجودة بالسوبر ماركت القريب من منزله، كان محباً للقراءة وتدوين الملاحظات، وعندما تقع عيناه على جملة جيدة، سرعان ما يسجلها كمقتطفات، وضع ياو تشي تشونغ يده على فمه، وقال بحرج: «الكتب الآن مكلفة للغاية، فيبلغ سعر الكتاب الواحد عشرات اليوانات، ولا أستطيع شراءه؛ لذلك أذهب إلى المكتبة لقراءة الكتب ونسخها، وفي النهاية أملأ الورقة التي تكون بجيب السروال، وفي بعض الأحيان لا تكفي الورقة، فأنسخ الكلام على راحة وظهر يدي، وبعد العودة إلى المنزل أنسخها في دفتر الصغير».

بعد ظهر أحد الأيام، تسلل «العم بائع الخضار» خفية إلى المكتبة، ونسخ ورقة كاملة، وفي طريق العودة إلى المنزل بشكل غير متوقع، فقد الورقة التي كتبها بدقة، في هذه اللحظة كان ياو تشي تشونغ قلقاً جداً، دفع دراجته وعاد لبحث عنها وعيناه تحديقاً بعيداً على طول الطريق بحثاً عنها، ومرت سيارة كبيرة، وتطايرت الورقة البالية عند مرور عجلة السيارة، فألقى

بدرجته وركض بسرعة كالمجنون، وأمسك بتلك الورقة كما لو كانت كنزًا ثمينًا، ومسح بحذر آثار عجلة السيارة من عليها، وابتسم ببراءة.

قال ياو تشي تشونغ بحزم وثبات: «تعتقد زوجتي دائمًا أن هذه الأشياء التي أكتبها لا فائدة منها، ولا تدعمني، ولكنني أردت فقط أن أترك لأبنائي ثروة قليلة».

صحيفة بكين اليومية..»

بحلول شهر ديسمبر، كان الطقس في بكين باردًا برودة غير عادية، كان ياو تشي تشونغ يبيع الزنجبيل في صباح كل يوم كالمعتاد؛ ولكنه يكون ملفوفًا بمعطف كبير فقط على غير العادة، هذا المعطف أهده له مدير سوق الخضراوات قوانغان تيانتاو المدير هوي جينغ شينغ، بسبب الضيق المالي، كان نادرًا ما يشتري ياو تشي تشونغ ملابس لنفسه، ويرتدي الملابس التي يستخدمها يوميًا، وكثيرًا ما كان يعتمد على مساعدة الناس الطيبين. «كانت الملابس دافئة، ومناسبة جدًا»، وكان يركب العربة ويضحك من قلبه.

لم يغبط «العم بائع الزنجبيل» الآخرين على حياتهم الرغدة، ولم تكن لديه آمانيات وهمية بمساعدة الآخرين له، «قلت مرات عديدة لأبنائي: إن أسرتنا تملك كل شيء؛ والأسر الأخرى تملك سيارات خاصة، وأسرتنا تملك عربة ثلاثية العجلات لا تُدار بوقود وتساعد على حماية البيئة، ويمتلك الآخرون الكثير من مصابيح الإنارة، بينما يمتلأ منزلنا بالكثير من النجوم، ويمتلك الآخرون عمارات ومباني، بينما تنعم أسرتنا بأفق تتمدد فيه دائمًا»، وفي مذكراته يعلم ياو تشي تشونغ أبناءه كيفية الاعتماد على الذات، ولكنه ممتنًا للغاية لكل من ساعده من قبل. عندما وصل ياو تشي تشونغ إلى بكين لأول مرة، كان يدفع العربة؛ لأنه لم يملك كشكًا ثابتًا، وكان ينصب بسطة للبيع في كل مكان، وفي الصباح يذهب إلى عشرات الأماكن، وبعد ذلك أشار عليه صاحب كشك الفاكهة، فانقل إلى كشك أمام مطعم المدير هوي، وأصبحت تجارته رائجة، ولم يكن بحاجة إلى تغيير المكان القديم، كان المدير هوي هو هوي جينغ شينغ، الذي لم يتردد في إجابة طلب ياو تشي تشونغ، ومنذ ذلك الحين، نصب ياو تشي تشونغ الكشك في هذا المكان أكثر من عامين.

يساعدني الآخرون بنية طيبة، ولا أُؤثّر على تجارة الآخرين»، عندما ينصب ياو تشي تشونغ الكشك كل يوم، يضع على «الأرض غطاءً بلاستيكيًا، من أجل الحفاظ على النظافة، كان يحتاج المطعم إلى الفحم، فيركب ياو تشي تشونغ العربة، ويذهب لمساعدة المدير هوي في إحضار قوالب الفحم دون مقابل، ومع مرور الوقت، تولدت علاقة صداقة عميقة بين ياو تشي تشونغ وحتى عندما ذهب إلى مكان آخر لنصب الكشك بعد ذلك، كان لا يزال ياو تشي تشونغ يذهب إلى منزل هوي، في المهرجانات واحتفالات السنة الجديدة، يقول ياو تشي تشونغ: «أنا لا أنسى من ساعدني». وبالصدف في أكتوبر عام 2002، فُتح سوق الخضراوات قوانغان تيانتاو بمنطقة شيتشنغ، وأصبح العم هوي مدير السوق، وبمساعدة المدير هوي استطاع ياو تشي تشونغ استئجار كشك ثابت هناك وما زال يعمل به حتى الآن.

تلقى "بائع الزنجبيل" المساعدة من الكثير من الناس "هناك السيدة جينغ التي كانت ترسل لي الكثير من منتجات العناية بالبشرة كل شتاء؛ لأنها تعلم أن البشرة الخشنة المتجمدة من السهل أن تتشقّق"، وكذلك العمّة التي أهدتني قلمًا، وقالت: إنها تهديني هذا القلم ليكون في متناول يدي". كانت مساعدة الآخرين لياو تشي تشونغ تسعده جدًا، "هذا يدل على أنهم يقدرّون ما أقوم به". كان دائمًا ما يسجل أسماء الذين قدموا إليه المساعدة حتى لو أهده شيئًا صغيرًا جدًا؛ ولكن كان الكثير منهم على عجلة ولم يذكروا أسماءهم؛ لذلك، في صفحة العنوان بالدفتّر الأخضر، حاول "بائع الزنجبيل" استخدام خط جميل وأنيق بقدر الإمكان لكتابة الآتي: "تم استخدامها في 4 من أكتوبر عام 2012، أهدها لي رجل عجوز يبلغ من العمر 75 عامًا".

يرى ياو تشي تشونغ أن أولئك الذين ساعدوه هم أنبل من قابلهم خلال فترة عمله في بكين، كتب ياو تشي تشونغ في بداية مخطوطة "تاريخ العائلة": "تعتمد الأسرة الفقيرة على تلقي المساعدة من الكثير من الأشخاص النبلاء وأصحاب الفضل، وبعدما كانت الأسرة لا تملك أي طعام وتقترض مصاريف السفر للذهاب للعمل، جاء الفرج أخيرًا وأصبحت تحيا حياة سعيدة".

جريدة أنهوي اليومية.."

كان هناك صاحب كشك يبلغ من العمر 40 عامًا بسوق قوانغان تيانتاو الموجود بزقاق قوانغان في بكين، وكان يضع على الكشك "قاموس شينخوا"، وقلماً وكومة من الورق كل يوم، عندما يغادر الزبائن يأخذ هذه الأشياء الثلاثة، ويظل يكتب ويرسم في الورق. قبل ثلاث سنوات، أصبح هذا المشهد يتكرر في هذا السوق تقريباً دون انقطاع، وكانت النتيجة هي تسجيل مرحلة نمو الابن وتاريخ العائلة، كان يُدعى ياو تشي تشونغ، من مدينة لينتشوان بمقاطعة أنهوي، عمل في بكين لمدة 16 عامًا، أما بالنسبة إلى إصراره، يقول: إنه "عرف الفقر وتحلى بالشجاعة". حتى يحفر نفسه وأبناءه.

كان كشك ياو تشي تشونغ صغيراً جداً، وكان مخصصاً لبيع الزنجبيل والثوم وما شابه ذلك، باستثناء بيع الخضراوات، كان يقضي وقته وسط تلك الكومة من الورق، وعندما يأتي مشترٍ يقوم بتحيطه ويدعوه لل شراء، وعندما يغادر يدفع رأسه ويواصل الكتابة ثانية؛ ولأنه تلقى تعليمه حتى الصف الرابع الابتدائي فقط، كان يحمل معه القاموس طوال الوقت، عندما يعود إلى المنزل في المساء، من الساعة التاسعة حتى الحادية عشرة يكون الوقت المحدد للكتابة، ولا يتغير ذلك تحت أي ظرف من الظروف، قام ياو بلصق القاموس الموجود بمنزله أكثر من مرة؛ بسبب تصفحه كثيراً. أطلق ياو تشي تشونغ على ما كتبه سيناريو"، وهو تسجيل للحياة اليومية ورؤيته لها؛ ولكن منذ البداية كان يريد فقط أن يسجل لابنه ياو ووي مراحل نموه.

في مايو من العام الماضي، أجرى صحفي من وكالة أنباء أسوشيتد برس مقابلة مع ياو تشي تشونغ في بكين، وكتب على حسابه في بلوجر: «هذه قصة تحفيزية حقيقية، عندما ترى حياتهم، ستعرف كم أنت سعيداً، أب يبيع الزنجبيل في بكين، وأطفال يتلقون تعليمهم في العاصمة، وكان يأكل المعكرونة النباتية في المنزل كل يوم، حتى يوفر المال، التحق ابنه ياو ووي بمدرسة لتعلم العلوم الثقافية ورياضة الووشو، وبفضل جهوده حصل على ميداليات عديدة».

تقديم ياو تشي تشونغ: في ذلك العام عندما خرج ياو تشي تشونغ للعمل اقترض 50 يواناً من جاره للسفر، والآن على الرغم من أن أسرته كلها في بكين، فإنه يعتمد بشكل أساسي على كشك الخضراوات الصغير الخاص به، حتى طبق الشعرية لا يأكله في الخارج.

فيما يتعلق بهذا العمل، خطط ياو تشي تشونغ للكتابة حتى تخرُج ابنه ياو ووي في الجامعة، وعلى الرغم من أن ياو ووي لا يزال في الصف الثاني الثانوي؛ فإنه بالنسبة إلى الجامعة يبدو أن الخطة كانت واضحة في ذهن ياو تشي تشونغ؛ «حصل على ميدالية في مسابقة الووشو بأمريكا، ولم يكن هذا فخراً لعائلتنا فقط؛ بل أيضاً فخراً للصين». على الرغم من حياة الفقر؛ فإنه عندما يتعلق الأمر بالابن، يعتقد ياو تشي تشونغ أن المستقبل المشرق ينتظره.

بالنسبة إلى هذا «السيناريو» الذي أطلق عليه ياو تشي تشونغ ذلك الاسم، هو في الأساس تصورات وتسجيلات للحياة اليومية، وهو من ناحية يقتل الوقت، ومن ناحية أخرى يعد تحفيزاً للذات، «تركت هذا لابني، ليكون حافزاً له يدفعه إلى الأمام، حتى يعرف الفقر ليتحلى بالشجاعة».

جريدة أنهوي التجارية».

رجل من أنهوي يبلغ من العمر 40 عامًا، تلقى تعليمه حتى الصف الرابع الابتدائي، كان يكتب مذكراته خلال عمله ببيع الخضار، أنفق 3 سنوات لكتابة مذكرات تحتوي على أكثر من 200 ألف رمز، وسجل حياته هو وأسرته المكونة من خمسة أفراد خلال عمله في بكين، هذا الشخص يدعى ياو تشي تشونغ، يبيع الزنجبيل في سوق الخضراوات تيانتاو بمنطقة شينتشونغ في بكين، وهناك لافتة واضحة مكتوب عليها: "أب عامل مهاجر يعمل في بكين". اعتاد مستخدمو الإنترنت على تلقيه بـ "العم بائع الزنجبيل" أو "العم بائع الخضار".

عمل ياو تشي تشونغ في بكين أكثر من 10 سنوات، وكان يعيش في غرفة صغيرة، ويعمل كل يوم من الفجر حتى الليل ما بين السوق والمنزل، ويضع على الكشك "قاموس شينخوا" وقلماً وكومة من الورق، بعدما يغادر الزبائن، يأخذ القلم ويسجل على الورق مراحل نمو ابنه وتاريخ عائلته، وأطلق على ما يكتبه اسم "سيناريو". وعلى الرغم من ملابسه القذرة، فإنه كتب هذا السيناريو بشكل صحيح وبطريقة منظمة، ولصق الغلاف بشريط لاصق، وكتب عليه: دعوة للحب. كان تقييم مستخدمي الإنترنت أن هذا "السيناريو" لم يسجل قصة ثلاثة أجيال من عائلة ياو تشي تشونغ فحسب؛ بل سجل أيضاً عصرنا المشترك، وسجل أشياء غير عادية عن عائلة عادية.

أطلقت العديد من وسائل الإعلام على "السيناريو" الذي كتبه ياو تشي تشونغ اسم "تاريخ فقر العائلة"، وقال هو بنفسه إنه كتب "تاريخ فقر العائلة" ليعرف أبنائه الفقر حتى يتحلوا بالشجاعة، آملاً في أن يتعرف الأطفال الذين نشؤوا في بكين منذ الطفولة من خلال هذه المخطوطات على "تاريخ العائلة" في الريف والمسؤولية التي كانت على عاتقها، كما أن لديه ثقة في أن يتحول "فقر العائلة" إلى "ثروة العائلة". قال بعض مستخدمي الإنترنت: إن الأطفال يرون ظروف الوالدين ومراحل نموهم، وخبرة الوالدين وتصوراتهما للحياة هي أكبر ثروة يتركونها لأطفالهما، وبالنسبة إلى الأطفال المستنيرين ذوي الخبرة والمعرفة، تعتبر مواقف الوالدين الإيجابية والقوية وأفعالهما في الحياة أفضل من ألف وعظ، وهذه عظمة غير عادية.

شبكة جنوب شرق - فوتشو.

1. قد يكون المرء فقيرًا ولكنه لا يتوقف عن الطموح؛ علينا جميعًا أن نتعلم من هذه الروح التي تتمتع بها عائلة ياو، فهي « تستحق التعلم، إذا أمن كل فقير بفكرة ياو «إذا عانيت الفقر ثانية فلا تعان من فقر التعليم»، وأن تؤمن بقدرة الجيل القادم من الأطفال على الحصول على التعليم، وأن الصين سوف تصبح أكثر قوة بهم.
2. فعلت العائلة العادية أشياء غير عادية، فهي مثال جيد وقدوة جيدة في المجتمع، والإيمان بقصتها يلهم المزيد من الفقراء للوقوف بقوة وثبات، والعيش بشجاعة أكثر، والتمني لأسرهم حياة سعيدة.
3. عامل مهاجر بسيط؛ ولكنه يبعث حبًا أويًا كبيرًا جدًا، لم تكن حياته الأسرية سهلة؛ ولكنه أصر على تعليم أبنائه أفضل تعليم، وهذه قصة تحفيزية تبعث طاقة إيجابية، وأمل أن يتعلم المزيد من الفقراء منها.
4. التأثير؛ ما الحب الأكثر ثباتًا في العالم؟ هو حب الوالدين؛ منذ لحظة ولادة الطفل، يكون الوالدان قلقين عليه، وكما يقول المثل: «تربية الابن مائة عام، والقلق عليه 99 عامًا». هذه هي الحقيقة، وهذا هو الهدف من كتابة ياو تشي تشونغ مذكراته؛ أراد أن يترك لأبنائه بعضًا من ثروة الحياة، وأن يتخذوا مسارًا أفضل في المستقبل.
5. لم تكن الحياة خارج البلدة سهلة، رجل مثل ياو تشي تشونغ يعتمد فقط على بيع الخضار، لإعالة أسرة مكونة من خمسة أفراد تعيش في بكين، لم يكن ذلك أمرًا سهلاً، والأصعب هو تحمل تكاليف الأطفال الثلاثة، ولكن كان أفراد الأسرة قادرين على العمل الشاق وتحمل الصعاب، وكان الأبناء يعملون بجد واجتهاد، وعلى الرغم من فقرهم، فإن الحياة الصعبة لم تهزم طموحهم، وكانوا يعيشون حياة جيدة كل يوم.
6. إن إصرار ياو تشي تشونغ على تحقيق هدفه يستحق أن يدرسه شباب ما بعد التسعينيات، فالشباب الآن يفعلون الأشياء بتهور، وعندما تواجههم مشاكل في العمل، تسيطر عليهم فكرة التخلي، بينما استطاع ياو تشي تشونغ كتابة 200 ألف رمز في كشك الخضار، ناهيك عن نوعية وجودة كتابته، فإن اعتماده على مستواه الثقافي وتعليمه الذي تلقاه حتى الصف الرابع الابتدائي فقط وإصراره على كتابة 200 ألف رمز لم يكن أمرًا سهلاً، تخيل كم الصعوبات التي واجهها خلال عملية الكتابة؟ هي بالتأكيد كثيرة؛ ولكنه كان يصبر دائماً، وروح الإصرار والتفاني تستحق أن يتعلمها الشباب.
7. قصة تحفيزية حقيقية، نتمنى أن نتحسن حياتهم، وأن يلتفت إليهم المزيد من الناس، لمنحهم المساعدة والتشجيع في الحياة، كما نأمل أن يتعلم المزيد من الناس من روحهم؛ ليغمر الحب مجتمعنا كله، ويصبح هذا العالم أفضل.
8. هكذا هي الحياة، تسيل فيها دموعنا ونبذل جهودنا؛ ولكن ستشعر بالسعادة ما دام أن الحب يغمر القلب، مثل ياو تشي تشونغ الذي عانى الشقاء والبؤس والحزن؛ ولكنه لا يزال إنساناً يملك قلباً ممتناً، يشعر بالسعادة أكثر؛ وعلى العكس إذا كان هناك جيل ثان ثري « يفهم فقط معنى المتعة، حتى لو كان يتناول أطعمة نادرة فاخرة كل يوم، وينغمس في المتعة طوال اليوم، » فإنه لن يشعر بالسعادة ولن يجدها.
9. حياته غريباً في بكين لم تكن سهلة، ناهيك عن حاجته إلى إطعام أسرته، كما أنه يريد تعليم أبنائه؛ وعلى الرغم من قضاء مثل هذه الأيام لم يكن أمرًا سهلاً؛ فإنه لم يفقد الثقة في نفسه، وأصر على ما يريده بشجاعة، لم يكن إصراره على تحقيق حلمه في دراسة ابنه للوشو فحسب؛ ولكنه جعله يتذوق متعة الأدب.
10. يقول الجميع: "إن ابن الفقير يتحمل مسؤولية البيت في سن مبكرة". أعتقد أن هذه الجملة صحيحة؛ لأن ياو ووي هو مثال لهذا الابن، وليس كباقي أقرانه يأخذون مصروفهم من والديهم، كما أنه لم يكن مشاعياً في المدرسة، ولم يطلب من والديه شراء ملابس ذات ماركة تجارية، وبدلاً من ذلك كان يظهر لهما النتائج الجيدة التي يحققها، ويأخذ لهما الميداليات التي يحصل عليها ويحسده الناس عليها مرارًا وتكرارًا.

- يجب أن تُدرس روح التفاؤل التي كانت تملأ "العم بائع الخضار"، على الرغم من أن الناس يعتقدون جميعًا أنه يعاني الفقر؛ فإنه يشعر أنه يحيا حياة سعيدة، وأن أبناءه بارين به، وأنه يحيا في انسجام مع زوجته، وفي أوقات فراغه كان يكتب مذكراته، فمواجهة الحياة بهذه الإيجابية هو أمر ثمين جدًا؛ لذلك فهو يستحق أن نتعلم منه.
12. في الحقيقة كانت الطريقة التي يستخدمها ياو تشي تشونغ في تعليم أبنائه جيدة جدًا؛ حيث سجل في مذكراته معاناته في الطفولة، أملًا في أن يحفز أبناءه للاجتهاد في تحصيل العلم؛ لأن المعرفة فقط يمكنها تغيير المصير البائس؛ لذلك، اختار أن يترك لأبنائه "ثروة الحياة"، وأن تكون تجربة الوالدين وفهم الحياة وتصوراتها هي أكبر ثروة يتركها لأبنائه.
13. إذا عانيت الفقر ثانية فلن أعاني من فقر التعليم، وإذا تجرعت كأس المرار لن يتجرعه أبنائي"، لم يتمتع ياو تشي تشونغ " بمستوى ثقافي عالٍ؛ ولكنه يتمتع بالوعي الشديد بأهمية تعليم أبنائه، والعمل من الصباح حتى الليل يوميًا في بيع الخضار، وعند الظهر يتناول كيسًا من المعكرونة فقط، أو يتناول شخصان كيسًا واحدًا. وفي مثل هذه الظروف المعيشية، لم تساوره فكرة تخلي ابنه عن التعليم؛ بل جعلته يصبر أكثر على تحقيق حلمه، وأن يتعلم ابنه فنون الدفاع عن النفس المفضلة لديه، فضلًا عن توفيره للمال حتى يشارك ابنه في المسابقات المختلفة، هذه صورة حقيقية للحب الأبوي العظيم.

الخاتمة

هذا الكتاب حقق أخيراً رغبتي في الالتقاء بالأصدقاء؛ فهو نتاج لأكثر من ثلاث سنوات من الجهد المضنى و40 عامًا من الخبرة الحياتية.

بدأت الكتابة قبل ثلاث سنوات، وكان ياو ووبي هو القوة الدافعة الملهمة، منذ أن التحق ياو ووبي بمدرسة الووشو، تغير قلبي تدريجيًا، وفكرت ماذا يجب أن أترك لأبنائي؟ لذا استخدمت قلبي لتسجيل كل شيء يتعلق بأبنائي أثناء بيع الزنجبيل، وكم من الليال التي لم أغف فيها بحثًا في القاموس، واستخدمت كتابتي الطفولية البسيطة، لتسجيل تاريخ الأسرة وإرسال ابني لمدرسة شاولين للوشو ببيكين بكل حب.

منذ ثلاث سنوات كانت الكتابة مثل بيع الزنجبيل والثوم، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتي، يعتقد العاملون في وسائل الإعلام أن قصتي ملهمة جدًا اليوم، وتستحق مشاركة المزيد من الأصدقاء الذين يناضلون في الحياة، ومن هنا تولدت لدي فكرة الكتابة، تلقيت تعليمي حتى الصف الرابع الابتدائي فقط؛ لذا فإن النص المكتوب يتميز بالبساطة، ولكني أصر دائمًا على التعلم وإثراء النفس، لم أمتلك المال لشراء الكتب، وكنت أذهب إلى كل مكتبة لنسخ الكتب، ونسخت عبارة: «السكين لن يكون حادًا إلا بشحذه، والإنسان لن ينجح إلا بالكفاح وتحمل الصعاب»، و«الإصرار على تحقيق المجد والتقدم أفضل من الغضب، والنهوض أفضل من معاناة الآخرين»، هكذا كنت أستخدم هذه العبارات التحفيزية لتشجيع نفسي، تحسنت مهارتي في الكتابة دون وعي، ويبدو أن الكتاب أصبح أمرًا طبيعيًا.

يحوي هذا الكتاب عددًا كبيرًا من الكلمات، انتهيت من كتابتها بدموعي؛ لأن بعض الأجزاء لم أرغب في التطرق إلى تفاصيلها، ذهبت إلى العمل بالخارج، واعتمدت على مساعدة أصحاب القلوب الطيبة، في الحصول على نفقات السفر، وفي بكين بفضل مساعدة الآخرين والجهود الدؤوبة التي بذلتها عثرت على كشك، واستخدمت طريقي الخاصة في إيجاد مكان أستقر فيه، إن بكين في قلبي جنة مقدسة، ومنزل ياو هو عشب صغير تحت جدار مدينة بكين، وعلى الرغم من ضعفه فإنه مليء بالحيوية، كان الحصول على كشك فارغ في سوق خضراوات شارع تشانغ تشون هو المكان الذي طالما حلمت به، والذي سيجعلني أمتلك رأس المال للعمل في هذه المدينة.

وهنا أشعر بالامتنان لهؤلاء أصحاب القلوب الطيبة، وأشكرهم على تقديمهم العون والمساعدة النزيهة، كما أشكر الذين أذوني؛ لأنهم جعلوني أفهم أن الحزن والعقبات هي ممارسات حياتية، وأود أن أشكرهم على إثراء معنوياتي وإمكاناتي.

يا أصدقائي، إن الصعوبات والنكسات ليست مخيفة، كما أن الأصل المتواضع للإنسان ليس أمرًا مخزيًا، فالأهم أن نمتلك قلبًا متطلعًا وممتنًا، وأن نمضي في الطريق بقوة وثبات، إذا قرأت هذا الكتاب، سوف تخرج ببعض النتائج، وستكون قادرًا على مواجهة الحياة بإيجابية، يتمتع كتابي بقيمة؛ لذا أنا راض تمام الرضا، أود أن أقول للقراء الذين يشعرون بالافتقار والتراجع؛ الحياة عملية من المعاناة وتهذيب الذات، وخلال هذه العملية، سوف نواجه الصعوبات والأوجاع وجميع أنواع الضربات، هذه هي الحياة، تحب أن ترانا نعانى الشقاء، ثم نتذوق السعادة، وما دمنا نواجه بشجاعة ونقبل بهدوء، سنكون قادرين على رؤية السماء المشمسة المشرقة بعد العاصفة.

وأخيرًا، أود أن أشكر من كل قلبي قادة مسقط رأسي أنهوي ومحرري دار تايمز، على رعايتهم ودعمهم واجتهادهم، حتى نُشر هذا الكتاب أخيرًا.

ياو تشي تشونغ

التاسع من ديسمبر عام 2012

